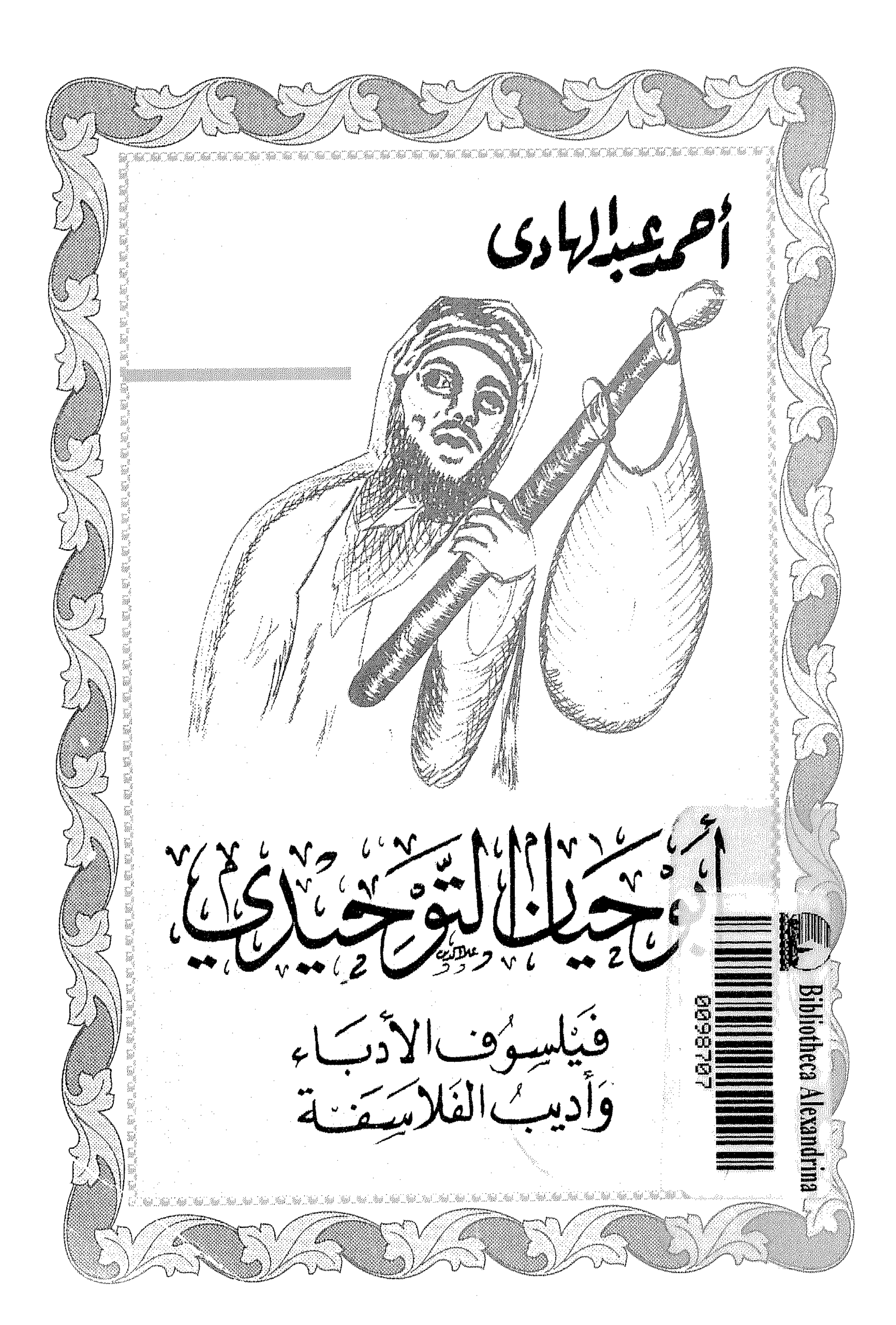

أحمد عبد الهادى
أبو حيان التوحيدي
فيلسوف الأدباء
وأديب الفلاسفة
Bibliotheca Alexandrina
0098707



١٩٩٧

أبوحيان التوحيدى

فيلسوف الأدباء . وأديب الفلاسفة

تأليف
أحمد عبدالهادى

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهرانى - الفجالة
ت : ٥٩٠٤٦٩٦ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بحمدِكَ اللهمَّ نستعينُ ، وبالصلاة على نبيِّك نستلهم التوفيق كما يقتضيه الدين : أما بعـد ، **فقد قال العِمادُ الأصفهانى** :

إنِّى رأيتُ أنَّه لايكتب إنسانٌ كتاباً فى يومِـه ، إلاَّ قـال فـى غـدِه : لو غُيِّـر هذا لكان أحسَن ، ولو زِيدَ كذا لكان يُستَحسن ، ولو قدِّم هذا لكان أفـضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجـمل ، وهـذا من أعظم العِبَر ، وهـو دليلٌ على استيلاء النقص على جُملةِ البشر .

وقال ابن حزم الأندلسى :

المؤلَّفاتُ سبعةٌ لاثامنَ لها :-

* فهى إمَّا شىءٌ لم يُسبَقِ المؤلِّفُ فيه فيستخرجه،

* وإمَّا شىءٌ باطل أو خاطىء فيصحِّحه ،

* وإمَّا شىءٌ مستغلِقٌ فيشرحه ،

* وإمَّا شىءٌ مسهَبٌ فيختَصره ،

* وإمَّا شىءٌ متفرِّق فيجمعه ،

* وإمَّا شىءٌ منثور فيرتِّبه .

الإهداء

إلى مَنْ حاولوا إخفاءَ جُهدِي … لهم أُطروحتى الغرَّاءَ أُهدِي

فقدْ كاشفتُ فيها كلَّ ساعٍ … لنور حقيقةٍ بِهُدىً ورُشدِ

ولم أُدْلِجْ(*) حفيًّا بالدَّياجِي … لأقلِبَ كلَّ محمودٍ لضدٍّ

ولم ألحظْ أبا حيَّانَ هذا … وجوديًّا كتفنيدِ المُجِدِّ

لهذا لم أكنْ ممَّن دعَوْهم … لحفل الزيف بل حفلِ التعدِّى

ولكنِّى أقمتُ له احتفالاً … بما فى ذا الكتاب من التحدِّى

فها هو ذا كتابى فاقرؤوهُ … وهُبُّوا ما استطعتم للتصدِّى

فى ١٥/١٠/١٩٩٥

المؤلف / أحمد عبدالهادى

(*) أدلج سار بالليل والدياجى · جمع داجية وهى الظلمة .



المقدمـــة

* من هو أبوحيان التوحيدى ؟
* اختلاف المؤرخين فى تحديد تاريخ ميلاده ووفاته ومكان مولده.
* الاختلاف على مَن وجّه إليه أشهر كتبه « الإمتاع والمؤانسة » (لماذا كان المرجّح هو أبوعبدالله بن سعدان ؟)
* الاختلاف على المقصود بابن العميد فى كتابه (مثالب الوزيرين)
* موضوعات الدراسة وينابيعها .



المقدمــة

من هو أبوحيّان التوحيدى :

هو على بن محمد بن العباس ، وكنيته أبوحيان ، ولُقِّب [١] بالتوحيدى لأن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد اسمه التوحيد ، ويرى ابن حجَر العسقلانى أنَّ هذا اللقب يحتمل أن يكون نسبة إلى التوحيد الذى هو الدين لأن المعتزلة كانوا يسمّون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، ولكنّ أبا حيان لم يعرض لهذا اللقب فى كتاب من كتبه ولم يُشرْ أبوُحيان من قريب أو بعيد إلى نسَبه أو نسب أسرته .

وأُضيف إلى هذا فأقول . لعلَّ كثرة مناجاته لله تعالى وتسابيحه وتحاميده لله تعالى فى كتابه الإشارات الإلهية جعلهم يطلقون عليه لقب التوحيدى خاصة وأنَّ له نزوعا إلى التصوف ومخالطته المتصوفة ، وله رسالتان فى الصوفية وفى أخبار الصوفية .

وأبوحيان التوحيدى واحد من عَمد [٢] الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجرى ، وهو عصر ازدهار الثقافة والآداب والفنون بل كان ربيعها وشبابها الناضر وفيه بلغت الفلسفة شأواً عظيماً ، ويعتبر أبوعثمان الجاحظ عميد الأدب العربى فى القرن الثانى أول من تتلمذ التوحيد عليه ، من قراءاته لمؤلفاته حتى أنَّ بعض النُّقاد قال عنه إنه الجاحظ الثانى ، لأنه كان شاهد عصره · أى مسجِّل القرن الرابع كما كان الحال بالنسبة للجاحظ فى القرن الثانى .

على أن دور التوحيدى لم يكن مجرد نقل آداب وفلسفة القرن الرابع ، بل كان البوتقة التى انصهرت فيها تلك العلوم والآداب والفنون والقضايا الفلسفية فهو كأُمَّة النَّحل التى تجود علينا برحيقٍ سائغٍ شرابُه ، فيه شفاء للناس أجمعين .

وهو أحد أولئك العلماء والأدباء الذين أصيبوا فى حياتهم [٣] بالبؤس والشقاء ، وظلَّ حياته يجاهد ويكافح فى التأليف واحترف الوِراقة والنسخ وجوْب الأقطار ، يقصد

---

(١) د. أحمد محمد الحوفى – أبوحيان التوحيدى جـ ١ ص ٢٢ – سلسلة قادة الفكر فى الشرق والعرب .

(٢) خيرى شلبى – أبوحيان التوحيدى – ربيع الثقافة العربية ص ٥ ، ٦ (توفى الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ فكتاباته تحمل سمات القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث).

(٣) د. أحمد أمين وأحمد الزين – مقدمة كتاب الامتاع والمؤانسة لأبى حيان / جـ

الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يَحْظَ من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يعترف بذلك فى بعض كتبه على نحو أربعين درهما فى الشهر أو مايساوى جنيهن بسعر اليوم تقريبا، بينما كان مَن حوله مِن العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوفير ، وليس منهم من يدانيه علما أو يجاريه أدباً . قصد ابن العميد وابن شاهويه وابن سعدان وأبا الوفاء المهندس وغيرهم ... ومدح وأطرى ، وبكى واشتكى وهدَّد وأوعد فلا نفعَه مدحه ولاذمه ، ولا إطراؤه ولاهجاؤه .. فإن استفاد بشئ مما عاناه فإنما هو الأدب بماكتب وألَّف .

وكان قبل وبعد اشتغاله بالأدب [١] نسَّاخا وورَّاقا مهنته نسخ الكتب بخطه الجميل ، وحافظته العجيبة تؤكد أنه نسخ كل المخطوطات فى رأسه قبل أن ينسخها على الورق ، وكان من عشاق المجالس والندوات الثقافية المنتشرة فى عصره ، وتتلمذ على يد أبى سليمان المنطقى الفيلسوف الكبير وأبى سعيد السيرافى أحد كبار النحويين والمتكلمين والشيخ على بن عيسى الرُّمانى وأبى على أحمد بن يعقوب (مسكويه) وغيرهم .

ويبدو أن شخصية التوحيدى كانت منسحقة تماماً على المستوى الاجتماعى الى الحدِّ الذى يجعل منظره منفِّرا للسادة وعِلْية القوم الذين يخالطهم ، فهو لايملك الهندام الذى يؤهله لمجالسة هؤلاء لولا تفضُّل ذوى الفضل عليه ، ومساعدته للوصول إلى مجالس الأمراء والوزراء ومن هؤلاء الذين ساعدوه فى ذلك صديقه أبوالوفا المهندس .

يضاف الى زراية مظهره عدم تزوُّده بأخلاق عالية تعدل علمه وأدبه . ولو أنه كان كذلك لصار نادرة زمانه ، ومثلاً عاليا فى عصره ، لكنه كان كما وصفه ياقوت الحموى « سخيف اللسان ، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان ، الذمُّ شأنه ، والثَّلب دكَّانه، وكان مع ذلك محدودا محارَفا (محروما) يتشكَّى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه » .

ومن هذا القبيل فى الشكاية من الفاقة والحرمان [٣] شكواه إلى صديقه أبى الوفاء المهندس . حيث يقول . "خلِّصنى أيها الرجل من التكفف ، أنقِذنى من لَبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضُّر ، اشترنى بالإحسان ، اعتبدْنى بالشكر ، استعملْ لِسانى بفنون المدح ، اكفِنى مؤونة الغداء والعشاء" .

(١) خيرى شلبى – ابوحيان التوحيدى – ربيع الثقافة العربية مرجع سابق ص ٨ ، ١١ .
(٢) د محمد الحوفى – أبوحيان التوحيدى جـ/ ١ مرجع سابق ص ٧٤
(٣) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ حـ٣ .

"إلى متى الكُسيرة اليابسة، والبُقيلة الذاوية ، والقميص المرقّع ، وباقليٌّ درب الحاجب ، وسذابُ درب الرّواسين (الحاجب والرّواسين مكانان وباقل وسذاب شخصان فقيران) الى متى التأدُّم بالخبز والزيتون ، قد والله بَحَّ الحَلْق ، وتغيَّر الخُلُق : اللَّهَ اللَّهَ ، فى أمرى ، اجبُرنى فإنَّنى مكسور ، اسقنى فإننى صَدٍ ، أغثنى فإننى ملهوف ، شهِّرنى فإننى غُلْفٌ ، حَلِّنى فإنَّنى عاطل .

قد أذلنى السفر من بلد الى بلد ، وخذلنى الوقوف على باب فباب ، ونكرِنى العارف بى ، وتباعدنى القريب منى" .

اختلاف المؤرخين فى تحديد تاريخ ميلاده ووفاته ومكان مولده :

لم يختلف المؤرخون فى تعليل لقبه فحسب ، بل اختلفوا فى تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته ومكان مولده . يقول الدكتور الحوفى « كثيرا مانجد عُسرا فى الكشف عن مولد عالم أو أديب أو عظيم من القرون الخالية لأن الناس لم يكونوا يقيِّدُون مولد أبنائهم كما نفعل الآن ، ولقد يرتبط مولد الشَّخص بحدث جلَل ، يعيِّن زمن استهلاله على هذه الأرض .

أما وفيات هؤلاء العلماء (١) والأدباء فقلَّما تُجهَل ، وإن حدث فيها اختلاف لأنهم كانوا قد اشتُهروا ..... لكنَّنا فى تاريخنا لأبى حيان نلقى عسرين : عُسْراً فى توقيت مولده ، وعُسْراً فى تعرُّف وفاته » ويعلل الكاتب ذلك بقوله « كأنما اتفق الناس على إهماله ميْتاً كما أهملوه حيًا ، وكأنما أبَى حظُّه المهضوم إلاَّ أن يلازمه فى الحياة والموت » .

وقد حدد السندوبى ناشر كتاب أبى حيان «المقابسات » بأن تاريخ ميلاده هو سنة ٣١٢ هـ معتمدا فى ذلك على ماذكره ياقوت الحموى فى معجم الأدباء اذ ذكر ان أباحيان كتب رسالة الى القاضى أبى سهل على بن محمد يعتذر فيها عن إحراق كتبه وأرَّخها سنة أربعمائة وقال فيها « وبعد فقد أصبحتُ هامةَ اليوم أوغد » ، فإنِّى فى عُشر التسعين (بين الثمانين والتسعين) وهل بعد الكِبَرة والعجز أمل فى حياة لذيذة» . وهذا يعنى أنه قد مات بعد عام أربعمائة هجرية . بينما ذهب السيوطى إلى أنه توفى سنة ٣٨٠ هـ . وسبق السيوطى ماذكره أبوالعباس زركوب فى كتابه (شيرازنامة) من

---

(١) د. أحمد محمد الحوفى – أبوحيان التوحيدى جـ/١ ص ٢٣ .

أنه سمع أباه يقول : إنه رأى مقبرة أبى حيان مكتوبا عليها إنه توفى سنة ٣٦٠ هـ ، وذهب القزوينى إلى أن أبا حيان قد مات فى عام ٤١٤ هـ متفقا فى ذلك مع رواية [١] الشيخ أبى الحسن بن أحمد شيخ مشايخ عصره . فقد ذكر أنه رأى أباحيان فى منامه فسأله . مافعل الله بك ؟ فقال . غفر لى على رغمك . وفى اليوم التالى طلب من أصحابه أن يحملوه إلى شيراز فزار قبر أبى حيان وصلّى عليه ، وأمر بوضع لوح على قبره مكتوب عليه · هذا قبر أبى حيان التوحيدى توفى سنة ٤١٤ هـ . ويستنبط مما سبق أن الخلاف بين المؤرخين فى وفاة أبى حيان يقع فيما بين سنتى ٣٦٠ ، ٤١٤ هـ وهما سنتان بعيدتان بعدا شاسعا وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على إهمال تاريخ وفاة هذا العلم الذي تهتم به اليوم المجتمعات الأدبية والفلسفية فى كثير من دول العالم المتحضر ، وتقيم المهرجانات احتفاء بذكراه.

رأينا كيف أن المؤرخين قد اختلفوا فى زمن ميلاد أبى حيان التوحيدى واختلفوا فى سنة وفاته وهم قد اختلفوا أيضا اختلافا بيِّنا فى جنسيته « فهو عند ياقوت [٢] شيرازى الأصل ، وقيل نيسابورى ، وقال بعد الفضلاء إنه واسطى – قدم بغداد فأقام بها مدة ومضى الى الرَّى » . فهل هو فارسىٌّ الأصل كما يقول ياقوت ؟ ونقل عنه ذلك السيوطى والسندوبى والدكتور زكى مبارك ؟

أم أنه عربى الأصل كما ذكره الأستاذ محمد كُرد علىٰ فى كتابه « أمراء البيان»...؟ ولعلّ رأىَ الأخير أصوب من آراء غيره للأسباب التالية :

١ – لم يُشِر أبوحيان فى مؤلفاته من قرب أو من بعد أنه كان يُمتُّ إلى فارس بسبب ، أو يتصل لديها بنسب.

٢ – إنّ اسمه بلقبه وكنيته يدل على عربيته فهو أبوحيان على بن محمد بن العباس التوحيدى .

٣ – إن صاحب كتاب شيراز نامة وهو فارسى [٣] ذكر أن أبا حيان بغدادى وفَدَ على شيراز .

٤ – ثم إن أباحيان صرَّح بأنه يجهل الفارسية .

---

(١) رواية أخرى رواها أبوالعباس أحمد زركوب – انظر المرجع السابق ص ٢٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

٥ – تعصّبه للعرب وردّه على الشعوبية يؤكد أصله العربى فقد مدح العرب فى جاهليتها وإسلامها ، وأثنى على أخلاقها وطباعها ولغتها وعجب أشد العجَب من الجَيهانى إذ سبَّ العرب وحط من قدرهم فرد عليه التوحيدى رداً مفحماً .

الاختلاف على مَن وجّه إليه أشهرَ كتبهِ [1]: (الإمتاع والمؤانسة)

لقد اختلف المؤرِّخون فيمن وَجَّه الى أبى حَيان الأسئلة التى أوردها فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» وردَّ عليها على مدى سبع وثلاثين ليلة ، وكانت فى شتى أمور المعرفة . وكذلك اختلفوا فى الشخص الذى طلب من أبى حيان أن يدوّن مادار فى هذه المناقشات بدقة ولايترك منها شاردة ولا واردة إلاّ سجَّلها .

أمَّا عن الاختلاف الأول فقد اختلفوا فيمن دار بينه وبين أبى حيان ذلك الحوار فى أمور شتى ، على مدى سبع وثلاثين ليلة ، ومن هو الوزير الذى طرح أسئلته عليه والذى أُقّب بالعارض وكان معاصرا لأبى حيان ، ومَع أن أغلبهم رأى بأنَّ المقصود بأبى عبدالله العارض هو وزير صمصام الدولة البويهى فى سنة ٣٧٣ هـ ، أى أنه أبوعبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان ومع هذا فقد رأينا القفطى فى كتابه « أخبار الحكماء» يذكر بأنه الوزير أبوالفضل [2] عبدالله بن العارض الشيرازى ، كما اختلَف القفطى ثانيا مع المؤرخين فى الشخص الذى كلَّف أبا حيَّان بتدوين ذلك الكتاب فذكر أنه أبوسليمان المنطقى بينما المشهور هو صديقه أبوالوفاء المهندس .

وللتدليل على أن المقصود بالوزير أبوعبدالله العارض هو أبوعبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان نورد النقاط التالية

لماذا كان المرجّح هو أبوعبدالله بن سعدان ؟

يقول الدكتور أحمد أمين فى مقدمه كتاب الإمتاع والمؤانسة « لقد بحثتُ [3] فى مظانِّ (اسم أبى عبدالله العارض) فلم أُوَفَّق « إلىَ العثور عليه ، وقبل ذلك عُنىَ المرحومُ أحمد زكى باشا بالسؤال عنه من بعض علماء الشرقَ والغرب فكان حظّه حظّى .

---

(١) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان – مقدمة الكتاب – ص (ى ، ك) ووردت الليالى فى الكتاب أربعين ليلة.

(٢) قلت : أبوالفضل بن الحسن الشيرازى استورره معز الدولة البويهى بعد وفاة وريره أبومحمد الحسن بن هارون المهلّبى سنة ٣٥١ هـ . وأعتقد أنه لم يلقب بالعارض و ولم يتصل به أبوحيان فى ذلك الوقت (المؤلف) .

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان – مقدمة الكتاب (أحمد أمين وأحمد الزين) ص هـ ، و

وأخيرا رجَّحت أنه هو الوزير أبوعبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى » . واستند الكاتب إلى الأسباب التالية :

١ – أنه ورد فى صدر كتاب الإمتاع والمؤانسة ماذكره أبوحيان على لسان صديقه أبى الوفا قوله « إنك لما انكفأت من الرَّى إلى بغداد فى أخر سنة ٣٧٣ هـ مغيظا من ابن عبَّاد ، وعدتُك صلاح حالك ، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبى عبدالله العارض الوزير» ونحن إذا رجعنا إلى مَن استُوزِر فيما بين سنة ٣٧٠ وسنة ٣٧٥ هـ وهى الفترة التى انكفأ خلالها أبوحيَّان من الرَّى إلى بغداد ، لم نجد وزيراً يكنَّى بأبى عبدالله إلا الوزير أبا عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان الذى استوزره صمصام الدولة فيما بين سنتى ٣٧٣ ، ٣٧٥ هـ .

٢ – جاء فى أثناء الإمتاع والمؤانسة من أن أباحيان [1] قصَّ على الوزير أنَّه سمع رجلا على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقيَّة الوزير المشهور مصلوباً بعد أنْ مات عضُد الدولة البويهى – وهو الذى صلبه – « سبحان الله عضد الدولة تحت الأرض وابن بقيَّة فوق الأرض » فلما سمع الوزير ذلك قال استأذنتُ الملك فى دفن ابن بقيَّة فدُفن وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقيَّة دفن فى عهد صمصام الدولة . وهذا يؤدى بنا إلى الاعتقاد بأن الوزير المذكور هو ابن سعدان .

٣ – من المعروف أن أبا حيَّان كان متصلا بالوزير ابن سعدان وألَّف له كتابه : «الصداقة والصديق» قبل تحمُّل ابن سعدان أعباء الدولة ، فهذا يعنى أنه هو الذى دار بينه وبين أبى حيان الحوار الذى سُجِّل فى كتاب « الإمتاع والمؤانسة» .

٤ – ذُكِرَ فى كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أصدقاء أبى عبدالله [2] العارض الوزير مما يؤكد أنه ابن سعدان، وأصدقاؤه هم . ابن زرعة وأبوالوفاء المهندس ومسكويه والأهوازى وبهرام وابن شاهويه .

٥ – جاء فى كتاب الإمتاع والمؤانسة أن الوزير سأل أبا حيَّان عما يقول الناس فيه فقال له « سمعت بباب الطاق قوما يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشطِّ ، فلما نزل الوزير ليركب الزبزب صاحوا وضجوا ، وذكروا غلاء القوت ، وعوز الطعام وتعذر الكسب ، وغلبة الفقر ، وأنه أجابهم بجواب مُرّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرم « وهذ الأوصاف كلها تنطبق كما ذكر أبوشجاع فى كتابه » ذيل تجارب الأمم » على حادث جرت لابن سعدان .

(١) المرجع السابق ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ذ .

الاختلاف على المقصود بابن العميد فى كتابه « مثالب الوزيرين » :

قد اتصل أبوحيان أول ما اتصل بالوزراء فى عصره بابن العميد ثم بابن عبَّاد وذكر ياقوت الحمَوى فى معجم الأدباء أن ابن العميد هذا هو أبوالفضل بن العميد وأن أباحيان ألّف فى ثلبه وثلب ابن عباد كتابه (مثالب الوزيرين) أو (أخلاق الوزيرين) ثم نقل عن ياقوت من جاءوا بعده كابن خلّكان والسيوطى والسندوبى .

ولكن فى كتب أبى حيَّان وفى الصفحات التى نقلها ياقوت من كتاب «مثالب الوزيرين» نجد أمرا يسترعى النظر ، ويجعلنا نرجّح ترجيحاً بقرُب من اليقين أن المقصود ليس ابن العميد المشهور أى ليس أبا الفضل بن العميد «الذى قيل فى حقه بدأت الكتابة بعبدالعميد وانتهت بابن العميد » وإنما المقصود هو الابن أى أبوالفتح بن العميد ، فقد اتّصل أبوحيان بأبى الفتح بن العميد الذى وزَر لمؤيّد الدولة وقتل سنة ٣٦٦ هـ غير أن أباحيان لم ينل ماكان يأمله من ابن العميد وذلك قبل أن يتصل بالصاحب بن عبّاد الذى تولّى الوزارة لمؤيّد الدولة بن بويه بعد أبى الفتح بن العميد (أى من سنة ٣٦٧ الى سنة ٣٧٣ هـ) ثم قفل أبو حيَّان عائدا الى مدينة السلام (بغداد) بعد أن خاب أمله فى الصاحب بن عبَّاد كما ذكر ذلك بقوله « فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعا إلى مدينة السلام بغير زاد ، ولاراحلة ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهماً واحدا ولاماقيمته درهم واحد» .

ونرى كما يرى الدكتور الحوفى أن المقصود هو أبوالفنح وليس أباه أبا الفضل بن العميد نظراً لما أوضحناه آنفاً للأسباب التالية

١ – أن أباحيان كان إذا ذمَّ ابن عباد يقول . الصاحب بن عبَّاد [١] بينما كان اذا ذم ابنَ العميد لايقول : أبوالفضل بن العميد ، أى لايعنى أباالفضل بالذمِّ لأنه اذا عناه قال . ذو الرئاستين أو الأستاذ الرئيس ، أما الذى كان يذكر مثالبه فهو أبوالفتح ويذكره بابن العميد مجردّا من كنيته .

٢ – وهو قد يذكر أباالفضل بن العميد هكذا بكنيته فى معارض أخرى غير معارض الذمِّ التى كان يعنِى بها أباالفتح ، وكان يفرق بينه وبين أبيه بالطريقة السابقة .

٣ – وكذلك إذا كان يعنى الأب يصرّح باسمه هكذا « هذا من رسالة لبعض – مَن انتجع الرئيس أبا الفضل بن العميد » .

(١) د. أحمد محمد الحوفى – أبوحيان التوحيدى جـ /١ ص ٤٢ ، ٤٤

٤ – ولو أن أبا الفضل بن العميد كان مقصوداً فى مثالب الوزيرين لَما ذكره أبوحيان بالرئيس أو ذى الرئاستين في أيّ موقف من المواقف ، لكن الذى كان يعنى بالثلب أبا الفتح ويذكره مجرداً بابن العميد .

٥ – ثم إن العداوة التى تحدّث عنها أبوحيان فى كتابه (مثالب الوزيرين) لم تكن بين الصاحب بن عبّاد وأبى الفضل بن العميد ، ذلك لأن الصاحب كان يعمل كاتباً لأبى الفضل فى أيام وزارته أى لم يكن وزيرًا حينئذ ، وكان مخلصا لأبى الفضل ولم يكن يغار منه .

٦ – وأبوالفضل بن [١] العميد أو ذو الرئاستين تولى الوزارة فى عهد ركن الدولة ابن بويه وتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، فخلفه ابنه أبوالفتح أو ذو الكفايتين حيث وزرَ لركن الدولة ثم لابنه مؤيِّد الدولة ، وقتل أبوالفتح سنة ٣٦٦ هـ .

ثم تولّى الوزارة لمؤيد الدولة البويهى (من سنة ٣٦٧ الى سنة ٣٧٣ هـ) الصاحبُ بن عبّاد ، اذِ استوزره مؤيَّد الدولة وحكّمه فى أمواله وهو الذى لقَّبه بالصاحب أيام إمارته لأنَّه كان يصْطحبه ويأنس به ، وقيل : إنه سُمِىَ بالصاحب [٢] لأنه صحِبَ أبا الفضل بن العميد (الملقب بالرئيس والمكنّى بذى الرئاستين).

فلما مات مؤيّد الدولة سنة ٣٧٣ هـ وتولّى الحكم أخوه فخر الدولة مكّن للصاحب ابن عبّاد فى الوزارة وبقِىَ فيها مقدَّم الكلمة إلى أن مَات سنة ٣٨٥ هـ . بعد أن قضى فى الوزارة ثماني عشرة سنة – وشهرا واحداً .

وبذلك يتضح أن أباحيان التوحيدى قد اتصل بأبى الفتح بن العميد ثم اتصل بعده بالصاحب بن عبّاد وكتب فيهما كتابه (مثالب الوزيرين) وهما الوزيران اللذان تولّى أولّهما الوزارة لركن الدولة ثم لابنه مؤيد الدولة (فترة وجيزة) وتولى ثانيهما الوزارة لمؤيد الدولة ثم لأخيه فخر الدولة .

موضوعات الدراسة وينابيعها :

أما النهج الذى نهجتُه فى هذه الدراسة فهو نهج بسيط ومنطقىٌ ، واضعاً نصب عينىّ ماسيتكلّفه القارئ لهذا الكتاب من جهدٍ لاستيعابه ، وأقصد به القارئ العادىّ لا الدارس المتخصِّص ، ولذا فقد عمدت إلى السهولة والإيضاح ما استطعت إلى ذلك

(١) المرجع السابق

(٢) اسمه إسماعيل بن عباد انظر المرجع السابق ص ٥٤ .

سبيلا ، وسلكتُ في ذلك مسلك التفريع الأفقي للدراسة ، وإن كان الدارسون الأكاديميون يفضِّلون التفريع الرأسي – فالطريقة الأفقية لهذه الدراسة هي خير وسيلة لاستيعابها والإفادة منها .

فبعد هذه المقدمة قسمت الكتاب إلى أربعة أجزاء أفقية متوازية .

١ - **الجزء الأول**: وتعرضتُ فيه لعصر أبي حيان السياسي والعلمي والأدبي ، فتكلمت عن نشأة دولة بني بويه التي عاش الكاتب في ظلالها ، وتحدَّثْتُ عن ملوكها ووزرائها ومدى اهتمامهم بالأدب والأدباء ، وتعرضت أيضا لدراسة الحالة العلمية والثقافية ودخول الفلسفة اليونانية كمكوِّن جديد للثقافة العربية ، وتحدثت عن تحصيل أبي حيان لثقافة سابقيه ومعاصريه ، وتأثُّره بفلاسفة عصره ، واستيعابه لعلوم الفقه واللغة والنحو والتصوُّف ، وحفظه الواسع لعلوم الدين والأدب . شعراً ونثراً ، كما تحدثت عن تأثره بمدرسة ابن العميد.

٢ - **الجزء الثاني** . وتحدثتُ في هذا الجزء عن معالم حياة أبي حيان التوحيدي وصلاته بوزراء عصره كأبي الفتح بن العميد ، والصاحب بن عباد (في الرَّي)، وأبي عبدالله بن سعدان (في بغداد) .. وعشتُ مع فلسفته التي استقاها من أساتذته الفلاسفة في عصره كأبي سليمان المنطقي وابن مسكويه ، ومن جمع بين الدين واللغة والفلسفة كأبي سعيد السِّيرافي ثم أوضحتُ كيف كان أبوحيان فيلسوف التوحيد ورائد علم النفس التحليلي .

٣ - **الجزء الثالث** : وعنوانه أبوحيان التوحيدي (ماله وماعليه) وفيه تكلَّمتُ عن الذين طعنوا في عقيدته ورموه بالزندقة ، والذين دافعوا عنه وعَدُّوه أحد المتصوِّفين في ذلك العصر ، كما تحدثت عن واقعة وضع رسالة سلفية لم تظهر إلاَّ من كتاباته وهي تتصل بالصحابة رضوان الله عليهم ، وتحدثت عن الذين اتهموه بوضعها والذين قالوا بصحتها ، وتكلمت عن أمانته في النقل والتحرِّي في الرواية، ودافعتُ عنه ضدَّ من قال عنه إنه كاتب وجوديٌّ ظهر في القرن الرابع .

٤ - **الجزء الرابع** وهو الخاص بالحديث عن مؤلَّفاته ، فأوردتُ مؤلَّفاته التى ذكرها ياقوت فى مُعجمه ، وتحدثْت عن ثلاثة منها باستفاضة ، بقدر استطاعتى ، وهى الهوامل والشوامل ، والإمتاع والمؤانسة - ومثالب الوزيرين ، وختمتُ الكتاب بالحديث عن خصائصه الفكرية والفنية ، وعقدت مقارنة بينه وبين كتاب عصره .

وقد استقيتُ هذه الدراسة من ينابيعَ محدودة ومصادرَ معدودة ، وهى :

١ - لأبى حيان التوحيدى -- الهوامل والشوامل - والإمتاع والمؤانسة - والإشارات الالهية . (ولم يتيسر لى الاطلاع على غيرها من مؤلفاته) .

٢ - لأبى منصور الثعالبى - يتيمة الدَّهر فى محاسن أهل العصر .

٣ - لأبى المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . (وقد استعنت بهذا المرجع لتتبع تاريخ دولة بنى بويه) .

٤ - للدكتور / أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى (جزءان) وهو أهمها جميعا.

٥ - للدكتور . حامد حفنى داود - الآداب الإقليمية فى العصر العباسى الثانى .

٦ - للأستاذ القاصِّ الأديب . خيرى شلبى - أبى حيان التوحيدى / ربيع الثقافة العربية .

٧ - لياقوت الحموى : معجم الأدباء (الجزءان الرابع عشر والخامس عشر) .

هذا عدا بعض الكتابات التى توفَّرتُ عليها فى جريدة أخبار الأدب..

ولعلَّك تعجب - أيها القارئ الكريم - إذا علمت أن هذه الدراسة قد كُتِبَت فى فترة وجيزة من الوقت ، ويستلزم كتابة مثلها أضعافَ الوقت الذى كُتبتْ فيه ، كذلك فإنَّ مصنِّفَها لم يكن لديه الإلمامُ الكافى بشخصية أبى حيان التوحيدى قبل تأليفه هذا الكتاب ، ولقد وفقه الله تعالى ، فى هذه العجالة من الوقت ، وأمكنه تقديم هذا المؤلَّف المتواضع فى الموعد المحدَّد له آملا أن يلقَى قبولا واستحسانا ، وتشجيعا ورضوانا ، ذلك أنَّنى كنت أضَعُ نصب عينيَّ حينما شرعت فى كتابته ابتغاء وجه الله تعالى ، والكتابة فى أديب فيلسوف متعدِّد الجوانب ليس بالأمر اليسير ، لاسيما فى هذا الوقت الوجيز الذى أُعِدَّت فيه هذه الدراسة ، وهذا بالتالى يعرِّض الكاتب الى أحد أمرين . إمَّا إلى استطراد مُمِلٍّ ، أو إيجاز مُخِلّ ، وإمَّا إلى استيفاء جانبٍ على حساب جوانبَ

أخَرى ، وإمّا إلى اقتباس غير موفَّقٍ ، أو إخبارٍ غير محقَّقٍ ، فإنْ كنتُ قد أحسنْتُ فبتوفيقٍ الله تعالي ، وإنْ كنتُ قد أسأت فهو تقصير منى أو نسيان ، ولذا فإنِّى أسال المغفرة من الرحمن ، وهو أهل العفْوِ والإحسان .

وليعذرنى القارئ الكريم - الذى أجعله دائما نُصْبَ عينىَّ - فى الإطالة إذا كان المَقام يقتضى ذلك ، لأنِّى أقصد منْ هذا أن أتحمَّل دونَهُ عبْءَ الاستحواذ على مؤلفات أبى حيان وقراءتها قراءة متأنِّيَة ثم أقدِّم له أهمَّ مافيها - مااستطعْتُ إلى ذلك - حتى أجنىَ الثمرة المرجُّوة من تأليف هذا الكتاب .

ولهذا السبب عمدْتُ إلى التنويه إلى نقاطٍ تستحق التأكيد فى أكثرَ منْ موضوع ، كذلك فإنَّ عرضىَ للمحاورات الفلسفية أو القضايا المنطقية أو الأسئلة التى يطرحها أبوحيان والأجوبة التى يتلقَّاها من أستاذه مسكويه - بطريقة الحوار المبسَّط - إنَّما أرَدْتُ من ذلك التسهيل والتيسير ، وتحمُّل عبء الرجوع إلى المصادر ، وليس فى هذا إسهابٌ ولا إسفاف .

ولقد تقدمت بهذا العذر للقارئ الكريم حتى لايقول قائل (متفلسف أو متعالم) . لماذا هذه الإطالة ؟ ولماذا هذا العرض ؟ ولماذا هذا الإسراف ؟ ولماذا هذا التكرار ؟ ولماذا هذا الحوار؟ إن كل هذا موجود فى الكتب والأسفار . وحتى لايتسرع بهذه الأسئلة التى تدلُّ على فطنته ورسوخ قدمه فى العلم ، فإنِّى أطلب منه أن يتدَّبر ماقاله العماد الأصفهانى فيما يتعلق بقصور الإنسان عن بلوغ مرتبة الكمال فى التأليف ، وكذلك قول ابن حزم الأندلسى الذى لخَّص لنا فى إيجاز أن التأليف لا يتعدى سبعة مجالات ولم أُورد هذين القولين فى أول هذا الكتاب اعتباطا ، ولكن ليرجع إليهما المتسائل قبل أن يطرح تساؤله .

والله ولى التوفيق ،،،

منشية البكرى فى ٣١ مايو سنة ١٩٩٥ — **أحمد محمد عبدالهادى**



- ١ -

عصــر أبــى حيّــان

عصر أبى حيان السياسى والعلمى والأدبى

أولا : عصره السياسى

من هم بنو بويه ؟

ثانيا : عصره العلمى والأدبى

ثالثا : الحالة الثقافية

رابعا : صلة أبى حيان بمنشئى الكتابة الديوانية



عصر أبى حيان

نقصد بعصر أبى حيان عصره السياسى ثم عصره العلمى والأدبى وأخيراً الثقافة فى عصره .

أولا : عصرُه السياسى :

عاش أبوحيان [1] فى القرن الرابع الهجرى ، وفى هذا العصر انفرط عقد الخلافة العباسية وتفككت عراها ، وتشتت شملها وتحولت من خلافة إسلامية مترامية الأطراف إلى دول وأمم شتى ففى ذلك العصر تلاحظ الآتى.

١ – استيلاء ابن رائق على البصرة وواسط .

٢ – استبداد البريدى بالأهواز .

٣ – استقلال بنى بويه بفارس والرى والجبل وأصفهان من ٣٢٠ ألى ٤٤٧ هـ .

٤ – انفراد الدَّيْلَم بطبرستان وجرجان وكرمان .

٥ – قيام الدولة السامانية فى خراسان وماوراء النهر(من ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ) – وخلفتها الدولة الغزنوية بالهند وأفغانستان (٣٥١ – ٥٨٢) وأقام بنوحمدان ملكهم فى الموصل وديار بكر ومضر وربيعة (من ٣١٧ الى ٣٩٤ هـ)

٦ – استقلال الأخشيديين بمصر والشام (٣٢٣ – ٣٥٧) ثم خلفهم الفاطميون (٣٥٧ – ٥٦٧ وهى الفترة التى مكثوها بمصر) .

٧ – استيلاء القرامطة لفترة من الوقت على اليمامة والبحرين.

٨ – استقلال عبدالرحمن الناصر الأموى بالأندلس .

والذى يلاحظ أن هؤلاء المنفصلين ليسوا من جنس واحد ، فالسامانيون والبويهيون من الفرس والأخشيديون والغزنويون من الترك ، والحمدانيون والفاطميون والأمويون الذين حكموا الأندلس فى ذلك العصر من العرب .

والذى يهمنا من هذه الدول التى انفصلت عن الخلافة الإسلامية فى بغداد بل كاد بعضها يقضى عليها قضاءا مبرما ، الذى يهمنا منها هو دولة البُوَيْهيين التى اتخذت عاصمة لها مدينة الرَّى وعاش أبوحيان فى كنفها خلال القرن الرابع الهجرى .

---

(١) د. أحمد محمد الحوفى – مرجع سابق – ص ٧، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

ولكى نلمَّ بشئٍ عن عصر أبى حيان السياسى نذكر شيئا عن هذه الدولة الشيعية المذهب الفارسية المنشأ والتى كادت تقضى على دولة الخلافة فى بغداد سنة ٣٣٤ هـ كيف نشأت وكيف ترعرت إلى أنّ غربت شمسها فى عام ٤٤٧ هـ . وذلك [١] حينما عظم شأن دولة السلاجقة الأتراك وحيث رأي الخليفة العباسى القائم عظم شأن قوة طغرلبك السلجوقى ، فراسله ليكون له عونا على أعدائه البويهيين وغيرهم ، ودخل طغرلبك مدينة بغداد عام ٤٤٧ هـ ووقعت بغداد فى قبضة السلاجقة وزال عنها حكم آل بويه منذ ذلك التاريخ .

وهكذا ضعفت دولة الخلافة وتحقق ماقاله الشاعر الذى [٢] رآه أبوحيان وسجل شعره فى كتابه البصائر والذخائر - قال ذلك الشاعر العلوى بالكوفة وهو يحاول تنبيه العباسيين الى خطر تلك الانتفاضات القومية :

أرى ناراً تشبُّ على يَفاعٍ ... لها فى كلِّ ناحيةٍ شعاعُ
وقد رقدَتْ بنو العبَّاس عنها ... ونامَتْ وهى آمنَةً رِتاعُ
كما رقدَتْ أميَّةُ ثم هبَّتْ ... لتدفعَ حين ليس لها دفاعُ

وهذه الأبيات نظيرة أبيات لنصر بن سيَّار أرسلها إلى مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حين جاشت خراسان بالمسوِّدة :

أرى تحت الرماد وَميضَ نارٍ ... ويوشك أن يكون لها ضِرامُ
فإنَّ النار بالعودَين تُذكَى ... وإنَّ الشرَّ مبدؤه كلامُ
فقلت من التعجُّب ليتَ شعرِي ... أأيقاظٌ أميَّةُ أم نيام
فإن يكُ أصبحوا وثووا وناموا ... فقلْ قوموا فقد حانَ القيامُ

من هم بنو بُوَيْه ؟

ذكر أبوالمحاسن بن تغرى بردى أنه فى عام ٣٢٢ هـ ظهرت الديلم [٣] عند دخول أصحاب مرداويج الديلمى إلى أصبهان ، وكان على بن بويه من جملة أصحاب مرداويج

(١) محمود رزق سليم - صفى الدين الحلى ص ٧ سلسلة نوابغ الفكر العربى .
(٢) د أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى - مرجع سابق ص ٧ .
(٣) جمال الدين أبوالمحاسن بن تغرى بردى - النجوم الزاهرة - الجزء الثالث ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

فاقتطع مالا جزيلا وانفرد عن مرداويج الديلمى ، والتقى مع ابن ياقوت فهزمه واستولى على فارس وأعمالها . وكان هذا العام (٣٢٢ هـ) أول ظهور بنى بويه ، قيل : إن بويه كان فقيرا ، فرأى فى منامه أنه بال فخرج من ذَكَره عمود من نار ، ثم تشعّب يمنةً ويسرة وأماماً وخلفاً حتى ملأ الدنيا ، فقصّ رؤياه على معبِّر ، فقال له المعبِّر ما أعبِّرها إلاَّ بالف درهم ، فقال بويه · والله مارأيتها قطُ ولاعُشْرَها ، وإنما أنا صيَّاد اصطاد السمك ، ثم اصطاد سمكة فأعطاها للمعبِّر فقال له المعبِّر ألك أولاد ؟ قال . نعم ، قال. أبشر فإنَّهم يملكون الأرض ويبلغ سلطانهم فيها على قدر ما احتوت عليه النار ، وكان معه أولاده الثلاثة علىٌّ أكبرْهم وهو آول مابقَل عِذارهُ ، وثانيهم الحسن وثالثهم أحمد ، ثم ذكر ابن تعرى بردى آن حلم بويه تحقق حينما قدِمَ أحمد بن بويه الذى تولى إمارة الديلم بعد آخيه علىّ قدم بغداد ظافراً ، وحلع عليه الخليفة المستكفى خلعه العظيمة الباهرة ، ثم لقبه بمعزٍّ الدولة ولقَّب أخاه عليًا عماد الدولة وأخاه الحسن ركن الدولة . وضربت ألقابهم على السكّة – النقود – ثم ظهر ابن شيرازاد واجتمع بمعز الدولة ، (ومعز الدولة المذكور هو أول مَنْ مَلَك من الديلم ومن بنى بويه) وأول من وضع السُّعاة ببغداد ليجعلهم رسلا بيبه وبين أحيه ركن الدولة فى الرَّى ، وكان له ساعيان «فضل ومرعوش» وكان كل واحد منهما يمشى فى اليوم ستة وثلاثين فرسخا ، فضَرِىَ بذلك شباب بغداد وانهمكوا فيه حتى نجب منهم عدة سعاة.

ثم حدث أخيراً أن تجرّأ معز الدولة أحمد بن بويه فى ذلك العام (٣٣٤ هـ) تجرأ على الخليفة المستكفى فخلعه من الخلافة وسمل عينيه ، وسبب ذلك كما ذكر ابن الأتير والذهبى وصاحب عقد الجمال أن قهرمانة الحليفة صنعت دعوة عطيمة حضرها جماعة من قواد الديلم والأتراك ، فاتَّهمها معز الدولة آنها فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفى ويزيلوا معز الدولة ، فساء ظنه لذلك وخاف أن تفعل به كما فعلت مع توزون، فكان ذلك سبب خلع المسكتفى وسمل عينيه بعد القبض عليه .

بينما ذكر ابن تغرى بردى كيف حدث القبض على الخليفة المستكفى والقهرمانة وخواص الخليفة بقوله « وسببه أنه لما كان أول جمادي الآخر دخل معز الدولة على الخليفة المستكفى فقام والناس وقوفاً على مراتبهم ، فتقدم اثنان من الديلم فطلبا من الخليفة الرزق ، فمدَّ يده إليهما ظنًّا منه أنهما يريدان تقبيلها ، فجذباه من السرير وطرحاه الى الأرض وجرَّاه بعمامته ثم هجم الديلم على دار الخلافة ، وعلى الحُرَم

ونهبوا وقبضوا على القهرمانة وخواص الخليفة ، ومضى معز الدولة الى منزله ، وساقوا المستكفى ماشياً إليه وسُملت عيناه ، وكانت خلافته سنة وأربعة أشهر ويومين .

ثم ذكر ابن تغرى بردى أن [1] المستكفى توفى بعد هذا الحادث بأقل من أربع سنوات فى عام ٣٣٨ هـ ، وهو ثالث خليفة عباسى خلع وسُمل ، وتنبأ بذلك القاهر العباسى بعد ما فُعل به وبخلفه المتقى فقال : يقينا اثنين ولابدَّ لنا من ثالث . ثم إن معزَّ الدولة بعد أن خلع المستكفى أحضر أباالقاسم الفضل بن المقتدر جعفر وبايعه بالخلافة ولقبه بالمطيع لله وسنُّه يومئذ أربع وثلاثون سنة « ثم قدَّموا ابن عمه المستكفى المذكور فسلَّم عليه بالخلافة وأشهد الله على نفسه بالخلع ، وذلك قبل أن يُسمل . ثم صادر المطيع خواص المستكفى وأخذ منهم أموالا كثيرة . وقرر له معز الدولة كل يوم مائة دينار » .

وفي العام الذي خَلع المستكفى ووُلى فيه المطيع عُظم الغلاء ببغدادوأكل الناس الجيف والروث وماتوا على الطرقات وأكلت الاكلبُ لحومهم وبيع العقار بالرُّغفان ، ووُجدت الصِّغار مشويَّة مع المساكين ، وهرب الناس إلي البصرة وواسط وهلك منهم خلق كثير ، وذكر ابن الجوزى انه اشتُرى لمعزالدولة كُرَّ الدقيق بعشرين ألف درهم وقال ابن تغرى بردى « والكُر سبعة عشر قنطارا بالدمشقى » . ولما استفحل الأمر هجم ناصر الدولة بن حمدان على بنى بويه ومعهم الخليفة المطيع وجاء ناصر الدولة فنزل سامراً . فخرج إليه معز الدولة ومعه الخليفة المطيع وابتدأت الحرب بينهم بعُكبرا، فلما وقع القتال جاء ناصر الدولة الحمدانى فنزل ببغداد من الجانب الشرقى وملكها ، وجاء معز الدولة ومعه المطيع كالأسير فنزل فى الجانب الغربى . ثم قوى أمر معز الدولة حتى ملك بغداد ، ونهبت عساكره أهلها وهرب ناصرَ الدولة .

وفي سنة ٣٣٥ هـ جدَّد [2] معز الدولة أحمد بن بويه الآمان بينه وبين الخليفة المطيع لله بعد أن انهزم ناصر الدولة بن حمدان فى السنة الماضية أمام معز الدولة ، ثم وقع الصلح بينهما على أن يكون لناصر الدولة من تكريت إلى الشام وفى هذا العام أيضا استولى ركن الدولة الحسن ابن بويه على مدينة الرَّى .

وفى العام اللاحق خرج الخليفة المطيع ومعز الدولة بن بويه الى البصرة لمحاربة أبى القاسم عبدالله بن البريدى ، فلما قاربوها أستأمن إلى معز الدولة جيشُ البريدى وهرب هوَ إلي القرامطة ، وملك معز الدولة البصرة ، وأقطع المطيع فيها من ضياعها ، وفى

---

(١) المرحع السابق ص ٢٨٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ .

هذا العام أيضا قدم عمادُ الدولة على بن بويه إلي الأهواز وهو الأخ الأكبر لمعز الدولة ، فبادر أخوه إلي خدمته ، وجاء وقبَّل الأرض وتأدب أمامه ، ثم بعد أيام ودعه أخوه معز الدولة عائدا إلى بغداد حيث أخذ واسطاً والبصرة .

وفى عام ٣٣٧ هـ حدث الغرق ببغداد وزادت دجلة واحدا وعشرين ذراعا وهرب الناس ووقعت الدور ، ومات تحت الردم خلق كثير ، وفيها دخل بغداد أبوالقاسم عبدالله بن البريدى بأمان من معزالدولة وأقطعه معزالدولة قرى بأعمال بغداد ، وفيها اختلف معزالدولة بن بويه وناصر الدولة الحسن بن حمدان ، وسار معزالدولة الى الموصل ، فتأخر ناصر الدولة الى نصيبين خائفا ، ثم صالح معزٌ الدولة على أن يعطيه فى كل سنة ثمانية آلاف درهم.

وفى العام التالى (٣٢٨ هـ) وهو العام [1] الثالث من ولاية آنوجور الآخشيدى عامل الخليفة العباسى على مصر ، أرسل أُنو جور [2] هداياه إلي معز الدولة وعرض على معز الدولة أن يكون أخوه مشاركا له في إمرة مصر ويكون هو من بعده ، فأجابه لذلك. وفى هذا العام أيضا تُوفى السلطان عماد الدين أبوالحسن على بن بويه ، وهو الأخ الأكبر لمعز الدولة، وكان قد ملك جميع بلاد فارس وكان ملكا عاقلا شجاعا مهيبا. اعتلٌ بقرحة فى الكُلى انحلت جسمه ومات بشيراز وله تسع وخمسون سنة ، فأقام مقامه الخليفة المطيع له أخاه أبا علىٍّ الحسن ركن الدولة والد السلطان عضد الدولة بن بويه، فلما تحرك ابن محتاج صاحب خراسان علىَ ركن الدولة فى سنة ٣٤٤ هـ نجَدَه أخوه معز الدولة بجيش من العراق ، وفي هذا العام دخل ابن ماكان أحد قواد صاحب خراسان إلي أصبهان فخرج منها ابومنصور بن ركن الدوله البويهى فتبعه ابن ماكان فأخذ خزائنه ، وعارضه أبوالفضل بن العميد وزير الدولة ومعه القرامطة فأوقعوا به وأثخنوه بالجراح وأسروا قواده وسار ابن العميد بعد هزيمة ابن ماكان إلي أصبهان.

وفى العام التالى (٣٤٥ هـ) خرج روزبهان الديلمى على معز الدولة فسيَّر إليه معز الدولة لقتاله الوزير المهلَّبى ، فلما كان المهلَّبى بقرب الأهواز تسلّل رجال المهلبى الى روزبهان فانحاز المهلبى ومن معه الى أحد الحصون ، فخرج معز الدولة بنفسه لقتال روزبهان وسار معه الخليفة المطيع فقاتلاه حتى ظفر به معز الدولة فى المصاف وفيه ضربات وأسر قواده ؛ وقدم معز الدولة بغداد وروزبهان بين يديه على جمل ثم غُرِّق فى دجلة .

(١) المرجع السابق ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ .

وفى سنة ٣٤٦ هـ حدث بالرّى ونواحيها زلازل عظيمة خارجة عن الحد ، ثم خسف ببلاد الطالقان فى ذى الحجة فلم يفلت من أهلها إلا نحو ثلاثين رجلا وخُسف بمائة وخمسين قرية من قرى الرّى ، واتصل الخسف الى حُلوان ، فخُسف بأكثرها . وقذفت الأرض عظام الموتى وتفجّرت منها المياه ، وتقطع بالرّى أحد الجبال ، وعُلّقت قريةٌ بين السماء والأرض بمن فيها نصف نهار ثم خسف بها ، وانخرقت الأرض خروقا عظيمة وخرجت منها مياه نتنة ودخان عظيم . (ولاتستغرب لحدوث هذه الغضبة الإلهية إذا علمنا باستشراء الفساد فى ذلك الوقت وظلم الحكام وتجبرهم) ففي عام ٣٥٠ هـ [١] شرع معز الدولة بن بويه فى بناء دار هائلة عظيمة ببغداد وأخرب لأجلها دورا وقصورا، وقلع أبواب الحديد التى كانت على مدينة المنصور وألزم الناس ببيع أملاكهم ليدخلها فى البناء ، ونزل فى الأساسات ستة وثلاثين ذراعا ، فلزمه من الغرامات عليها الى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، وصادر الدواوين وغيرها ، وجعل كل ما حصل له شئ أخرجه فى بنائها ، وقد درست هذه الدار من قبل سنة ستمائة ، ولم يبق لها أثر ، ويعلّق ابن تغرى بردىٰ على ذلك بقوله « دار الظالم خراب ولو بعد حين ».

وفى العام التالى (٣٥٢ هـ) ألزم معز الدولة فى يوم عاشوراء الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب فى الأسواق وعلّقوا عليها المسوح ، وأخرجوا النساء منشورات الشعور يُقمن المأتم علي الحسين بن على رضى الله عنه ، قال بن تغرى بردى « وهذا أول يوم تقع فيه هذه العادة القبيحة الشيعية ببغداد ، وكل ذلك فى صحيفة معز الدولة بن بويه ، ثم اقتدى به من جاء بعده من بنى بويه وكل منهم رافضى خبيث » .

ووقعت كذلك في العام التالى فتنة عظيمة بين أهل السنة والرافضة وخرج جماعة ونُهب الناس ، وحدث في سنة ٣٥٥ هـ حدَثٌ أشد هولاً بسبب هذه البدعة فلما أقيم المأتم على الحسين رضى الله عنه ببغداد ، ورد الخبر بأن ركب الشام ومصر والمغرب من الحجاج أُخذوا وهلك أكثرهم ، ووصل الأقلُّ الى مصر ، وتمزّق الناس كل ممزق ، وأخذتهم بنو سليم ، وكان ركبا عظيما نحو عشرين ألف جمل معهم الأمتعة والذهب .

وفي عام ٣٥٦ هـ مات السلطان معز الدولة بن بويه الذي كان أبوه يصطاد السمك وكان ولده هذا ربما احتطب فآل أمر ابنه إلي المُلك ، وكان قدومه إلى بغداد سنة أربع

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧ ، ٢٣٤ .
(٢) المرجع السابق جـ / ٤ ص ١١ ، ١٤ .

وثلاثين وثلثمائة ، وكان موته بالبطن ، فعهد إلي ولده عز الدولة أبى منصور بُختيار ، وكان الرفض فى أيامه ظاهراً ببغداد ، ويقال . إنه تاب قبل موته وتصدق وأعتق .. قال ابن تغرى بردى : « وجميع بنى بويه على هذا المذهب القبيح غير أنهم لايفشون ذلك خوفا علي المُلك » ... وكانت دولته اثنين وعشرين سنة وكان قد ردّ المواريث إلى ذوى الأرحام . ويقال : إنه من ذرية سابور ذى الأكتاف . وهو أخو ركن الدولة (أبوعضد الدولة) وأخو عماد الدولة السابق ذكره والذى توفى سنة ٣٣٨ هـ .

وفى عام ٣٦٠ هـ توفى أبوالفضل محمد بن الحسين بن العميد الكاتب المشهور ووزير ركن الدولة بن بويه ، والعميد لقب والده ، وكان فيه فضل وأدب وترسل ، وَزَر لركن الدولة الحسن بن بويه بعد [1] موت أبيه ، ومن بعض أصحاب أبيه الصاحب بن عبَّاد ، قال الثعالبي فى كتابه يتيمة الدهر » وكان يقال : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» . وكان الصاحب بن عبَّاد قد سافر إلى بغداد ، فلما عاد إليه بالرى قال له ابن العميد : كيف وجدت بغداد قال · بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد . وكان ابن العميد سَيوسا مدبِّرا قائما بحقوق المملكة وقصده الشعراء من الآفاق ومدحه المتنبى وابن نباتة السعدى وغيرهما ومن شعر ابن العميد قوله :

آخِ الرجـــــالَ مـن الأبـا ... عـــد والأقـــاربَ لاتقـــارِبْ
إنَّ الأقـــاربَ كـــالعــقـــا ... ربِ بلْ أضـــرٌّ من العـــقـــاربْ

وقيل إن الصاحب بن عباد اجتاز بدار ابن العميد بعد وفاته فلم يَر هناك أحداً بعد أن كان الدهليز يغصُّ من زحام الناس فقال :

أيُّهـا الربَّع لِمْ عـلاك اكـتـئـابُ ... أين ذاك الحِـجـابُ والحُـجَّـابُ
أينَ مَنْ كـان يفـزَع الدهُر منه ... فـهُـو اليـوم فى التُّـرابِ تُرابُ

وقال على بن سليمان· رأيت بالرَّى دار قومٍ لم يبقَ منها سوى بابها - يعنى دار ابن العميد - وعليها مكتوب :

---

(١) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١ - وقول اس تعرى بردى بأن الفضل بن العميد ورر لركن الدولة بعد موت أبيه ومن بعض أصحاب أبيه الصاحب بن عباد هدا قول فيه تساؤل . لأن الصاحب بن عباد كان صاحبه هو وعاصر ابيه أبا الفتح الذى قتل فى عام ٣٦٦ هـ بيما توفى الصاحب بن عباد فى سنه ٣٨٥ هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعـجَبْ لصـرف الدُّهور مـعـتـبـراً　　　فـهـذه الدار من عـجـائبـهـا

عـهـدى بهـا بالملوك زاهـيـةٌ　　　قـد سَطع النُّور من جـوانبـهـا

تبـدَّلت وحـشـةً بسـاكنهـا　　　مـا أوحَش الدَّارَ بعـد صـاحـبـهـا

وكان ابن العميد قبل أن يقتل بمدة قد لهج [1] بإنشاء هذين البيتين وهما .

دخَل الدنيـا أناسٌ قـبلنا　　　رحَلُوا عنهـا وخلُّوها لنا

ونـزلْنَاها كـمـا قـد نَزلُوا　　　ونُخلِّيـهـا لقـومٍ بعـدَنا

وفى عـام ٣٦١ هـ وقع صلح بين [2] منصور بن نوح السامانى صاحب خراسان وبين ركن الدولة الحسن بن بويه وولده عضد الدولة بن ركن الدولة ، بأن يحمل ركن الدولة إلي منصور بن نوح السامانى فى كل سنة مائة ألف دينار ، ويحمل ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار .

وفى عام ٣٦٢ هـ حشد الروم حشودهم وأخذوا نصيبين واستباحوا وقتلوا وسبوا ، وقدم من نجا منهم واستنفروا الناس فى الجوامع ، وكسَروا المنابر ومنعوا الخطيب ، وحاولوا الهجوم علىَ الخليفة المطيع لله ، واقتلعوا بعض شبابيك دار الخلافة حتى غلّقت أبوابها ، ورماهم الغلمان بالنشّاب من الرواشن ، وخاطبوا الخليفة بالتعنيف وبأنه عاجز عما أوجبه الله عليه من حماية حوزة الإسلام وأفحشوا القول ، ووافق ذلك غيبة السلطان عز الدولة بختيار بن معز الدولة أحمد بن بويه فى الكوفة ، فخرج إليه أهل العقل والدين من بغداد ، وفيهم الإمام أبوبكر الرازى الفقيه وأبوالحسن على بن عيسى النحوى ، وأبوالقاسم الداركى ، وابن الدقاق الفقيه ، وشكوا إليه مادهم الإسلام من هذه الحادثة ، فوعدهم عز الدولة بالغزو ، ونادى بالنفير فى الناس ، فخرج من العوام خلق مثل عدد الرمل ثم جهز جيشا وغزوا ، فهزموا الروم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا أميرهم وجماعة من بطارقته ، وانفذت رؤوس القتلى إلى بغداد وفرح المسلمون بنصر الله تعالى.

لما دخل في هذا العام (٣٦٢ هـ) المعزُّ لدين الله الفاطمى مدينة القاهرة احتجب عن الناس ، ثم ظهر للناس بعد مدّة وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت *

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ والمعروف أن ابنه أبا الفتح هو الذى مات مقتولا .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٥ .

والجواهر تلمع كالكواكب . وزعم أنه كان غائباً في السماء ، وأن الله قد رفعه إليه ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعباً وخوفاً ، وقطع ماكان يؤدّيه من قبل ابن الإخشيد في كل سنة من إتاوة للقرامطة الشيعة وهي [1] ثلاثمائة ألف دينار ، فعظم ذلك على القُرمطي الحسن بن أحمد بن أبي سعيد ، فسار القرمطي إلى بغداد وسأل الخليفة المطيع لله العباسي على لسان السطان عز الدولة بختيار بن بويه أن يمدّه بمال ورجال ويولّيه الشام ومصر ليُخرج المعزّ منها ، فامتنع المطيع لله من ذلك ، وقال . كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، فأمّا المصريون (يعني الفاطميين) فأماتوا السنن وقتلوا العلماء . وأما هؤلاء (يعني القرامطة) فقتلوا الحاجّ وقلعوا الحجر الأسود وفعلوا مافعلوا (أي أن الخليفة كان يمقت الاثنين لأنه سني وإن كان مطيعا للسلطان) .

فقال عز الدولة بختيار للقرمطي اذهب فافعل مابدا لك . وقيل ان بختيار أعطاه مالا وسلاحا ، فسار القرمطي إلي الشام ومعه أعلام سود ، وادّعى أن الخليفة المطيع ولاّه ، وكتب على الأعلام اسم المطيع عبدالكريم (اسم ابن الخليفة) وتحته مكتوب «السادة الراجعون الى الحق » وملّك القرمطيُّ الشام ولعنَ المعزَّ الفاطمي وأباه على منابرها ، وقال هؤلاء من ولد القدّاح ، ثم أقام القرمطي الدعوة لبني العباس ، وسار إلي مصر بعساكره ، ولما بلغ المعز مجيئه تهيّأ لقتالهم ، فنزل القرمطي بمشتول الطواحين (مشتول السوق) وحصل بينه وبين المعز مناوشات ثم تقهقر المعز ودخل القاهرة ، وانحصر بها الى أن أرضى القرمطيَّ بمال وخدعه ، فانخدع القرمطي وعاد الى نحو الشام ، فمات بالرملة في شهر رجب وأراح الله المسلمين منه . وصفا الوقت للمعز ، فإن القرمطي كان أشد عليه من جميع الناس للرعب الذي سكن في قلوب الناس منه ، فكانت القرامطة إذا كانوا في ألف حطّموا مائة ألف خِذلاناً من الله تعالى لحكمة يعلمها .

ثم حدث في عام ٣٦٣ هـ [2] أن انشق سُبكتكين التركي عن أستاذه عز الدولة بُختيار وناصره الخليفة المطيع الذي تنازل مختاراً لابنه عبدالكريم الذي لقّب بالخليفة الطائع لله . وفي عام ٣٦٤ هـ خرج الخليفة الطائع ومعه سُبكتكين من بغداد يريدان واسطا لقتال بختيار مصطحبين معهما الخليفة المطيع ، فمات المطيع الفضل في المحرم من ذلك العام ، فردّه ولده الطائع في تابوت إلى بغداد فدفن بها ، ومات سُبكتكين التركي بعد المطيع بيوم واحد ، فعقد الأتراك لأفتكين الرامي مولي معز الدولة اللواء ، .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ ، ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ١٠٥ .

وكان أعوَر فأطاعوه وعرض عليه الطائع اللقب فامتنع واقتصر على الكنية ، وعمل على لقاء عزالدولة ، فاستنجد عز الدولة بابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى ، فنجده وقاتل الأتراك وكسرهم بعد حروب كثيرة ، ثم طمع عضد الدولة فى الامارة وعزل ابن عمه عز الدولة ، فاقره الخليفة الطائع وعظم أمره بعد ذلك

وفى عام ٣٦٥ هـ كتب ركن الدولة (١) أبوعلى الحسن بن بويه إلىَ ولده عضد الدولة أبى شجاع · أنه قد كبر سنه ويؤثر مشاهدته ، فاجتمعا فقسّم ركن الدولة الملك بين أولاده ، فجعل لعضد الدولة فارس وكرمان ، ولمؤيِّد الدولة الرَّى وأصبهان ، ولفخر الدولة همذان والدينور ، وجعل ولده الأصغر أبا العباس في كنف عضد الدولة وعظم هذا الآمر على ابن أخيه عز الدولة المعزول فكتب الى ركن الدولة يخبره ماعمله عضد الدولة ويسأله زجره وأن يؤمنه مما يخاف ، فخاطب ركن الدولة ولده عضد الدولة فى الكف عنه ، فشكا إليه عضد الدولة ماعامله عز الدولة به وانضمام وزيره ابن بقّية عليه فلم يزل به ركن الدولة حتى أجابه بالكف عنه .

وفي عام ٣٦٦ هـ توفى السلطان ركن الدولة (٢) أبوعلى الحسن بن بويه بعد أن ملك اربعا وأربعين سنة واشهرا ، وكان أبوالفضل بن العميد ومن بعده ابنه أبو الفتح وزيرُين له ، والصاحب بن عبَّاد كان وزيراً لولديه مؤيِّد الدولة ثم فخر الدولة ، وبموت ركن الدولة حدث صدام كبير بين جيوش ابنه عضد الدولة وجيوش ابن أخيه عز الدولة بختيار حيث انضم الى غضد الدولة من القرامطة أبوبكر محمد بن شاهويه ومعه ألف رجل ، وأخذوا الكوفة وأقام الدعوة بها لعضد الدولة وأسقط خطبة عز الدولة بختيار . ووقعت وقعة أخرى بين عضد الدولة وعز الدولة فى ذلك العام وفيها أُسر غلام تركى لعز الدولة فاشتد حزنه عليه ، فامتنع عن الأكل والشرب ، وأخذ فى البكاء واحتجب عن الناس ، وبذل لعضد الدولة فى الغلام ، جاريتين عوّادتين فرده عضد الدولة عليه .

فى عام ٣٦٧ هـ دخل (٣)عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بغداد ، وخرج منها ابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه ، ثم تقاتلا فانتصر عز الدولة ثم قتل ، وعز الدولة هو ابومنصور بختيار بن معز الدولة أحمد بن بويه ، ولِىَ ملك العراق بعد أبيه، وتزوج الخليفة الطائع لله عبدالكريم بابنته شاه زمان على صداق مائة الف دينار،

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) المرجع ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠

وكان عز الدولة شجاعا قويا يمسك الثور العظيم بقرنيه فيصرعه ، وكان بينه وبين بن عمه عضد الدولة منافسات وحروب على الملك ، تقاتلا فيها غير مرة ثم قتل فى آخرها وسنّه ست وثلاثون سنة ، وحُمل رأسه الى عضد الدولة فوضع المنديل على وجهه وبكى وتملك عضد الدولة العراق بعده . (فصار له مُلك العراق وفارس وكرمان) .

وفى العام (٣٦٧ هـ) أيضا ظفر عضد الدولة بوزير عز الدولة أبى طاهر بن بقية ، وكان عضد الدولة قد بعث إليه يُميله عن عز الدولة ، فقال: الخيانة والغدر ليستا من أخلاق الرجال ، فلما قتل عز الدولة قبض عليه عضد الدولة وشهّره فى بغداد من الجانبين وعلى رأسه بُرنس ثم أمر به أن يطرح تحت أرجل الفيلة فقتلته الفيلة ثم صلب فى طرف الجسر من الجانب الشرقي ، فاجتاز به أبوالحسن محمد بن عمر الأنبارى الصوفي الواعظ وكان صديقاً له فرثى ابن بقيّة بمرثيته المشهورة التى يقول فيها .

علوٌّ فى الحياةِ وفى المماتِ　　لحقًّا أنت إحدى المعجزاتِ
كأنَّ الناس حولك حين قاموا　　وفودُ نَداك أيَّام الصِّلاتِ

وفى عام ٣٧١ هـ بدأ النزاع بين أبناء [1] ركن الدولة الثلاث عضد الدولة وفخر الدولة ومؤيد الدولة إذ اتفق فخر الدولة وقابوس بن وَشْمُكير على عداوة عضد الدولة في الباطن ففطن عضد الدولة لذلك ولم يُظهره (لأنه كان يجلُ أخويه ومن هذا القبيل استقباله فى بغداد فى العام السابق ٣٧٠ هـ للصاحب بن عبّاد وزير أخيه مؤيِّد الدولة بالحفاوة البالغة) وجهّز العساكر مع أخيه مؤيِّد الدولة لقتال قابوس فتوجه إليه مؤيد الدولة وحصره وأخذ بلاده ، ولم ينفعه فخر الدولة المتحالف معه وكان لقابوس من البلاد طبرستان وغيرها .

وفى سنة ٣٧٢ هـ توفى السلطان [2] عضد الدولة أبوشجاع بن ركن الدولة بن بويه ولِيَ ملكة فارس بعد عمه عماد الدولة ، ثم قوى على ابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة ، وأخذ منه العراق وبغداد ، وزوج ابنته للخليفة الطائع العباسى ، وبلغ سلطانه مع سعة المملكة والاستيلاء على الممالك ما لم يبلغه أحد من بني بويه ودانت له البلاد والعباد ، وهو أول من خُطب له على المنابر فى بغداد بعد الخلفاء ، وأول من ضُربت الدبادب على باب داره ، وكان فاضلا نحويا ، وله مشاركة فى فنون كثيرة ، وأول من

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

خوطب بالملك شاهنشاه في الإسلام . قال أبوعلى الفارسى منذ تلقَّب شاهنشاه(*) تضعضع أمره ، وماكفاه ذلك حتى مدح نفسه فقال :

عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاَّب القدَر

ويشاء الله تعالى أن يعجِّل بأخذه فراح يردد قول القاسم بن عبدالله الوزير نادما على ماكان منه :

قتلتُ صناديد الرِّجال فلم أدَعْ عدوًا ولم أُمهِل على ظَنَّةٍ خَلْقا

وأخليْتُ دور الملك من كلِّ نازلٍ وبدَّدتُهم غربا وشردتهم شرقا

ثم جعل يبكى ويقول « ما أغنى عنِّى ماليه . هلك عنِّى سلطانيه » وصار يرددها إلى أن مات فى شوال ببغداد وله سبع وأربعون سنة ، وتولَّى الملك من بعده ابنه صمصام الدولة. (وهو الذى استوزر ابن سعدان الذى كنىٌّ عنه أبو حيان بالوزير العارض) .

وفى أول العام اللاحق (٣٧٣ هـ) أُظهرت وفاة عضد الدولة ، وحُمل تابوته الى المشهد ، وجُلس ابنه صمصام الدولة للعزاء ، وجاءه الخليفة الطائع معزيًّا ، ولطم عليه الناس فى الأسواق أيَّاما عديدة ، ثم ركب صمصام الدولة الى دار الخلافة ، وخلع عليه الخليفة الطائع عبدالكريم سبع خلع ، وعقد له لواءين ولقَّب شمس الملَّة ، وبعد فترة يسيرة ورد الخبر على صمصام الدولة بموت عمه مؤيِّد الدولة ، فجلس صمصام الدولة أيضا للعزاء ، وجاءه الخليفة الطائع مرة ثانية معزيا فى عمه مؤيِّد الدولة ، ولما مات مؤيد الدولة كتب وزيره الصاحب اسماعيل بن عباد الى أخيه فخر الدولة علىٍّ بن ركن الدولة بالإسراع اليه ، وضبط ممالك أخيه مؤيد الدولة ، فقدم فخر الدولة إليه وملَك بلاد أخيه واستوزر الصاحب بن عباد ، وعظم ابن عباد في أيام فخر الدولة الى الغاية .

وبذلك نصل إلى الغاية المنشودة من سرد تاريخ دولة بنى بويه ، أى وصلنا إلى مؤيد الدولة الذى توفى سنة ٣٧٣ هـ والذى استوزر الصاحب بن عباد منذ سنة ٣٦٧ هـ حتى وفاته فى عام ٣٧٣ هـ وبموته ضم أخوه فخر الدولة أملاكه إليه واستوزر الصاحب بن عبَّاد حتى وفاة الصاحب فى سنة ٣٨٥ هـ .

وعلمنا من هذا السرد الطويل أن أبا الفضل بن العميد كان وزيراً لركن الدولة بن بويه حتى وفاة أبى الفضل سنة ٣٦٠ هـ ، ولما كان الصاحب بن عباد قد تولَّى الوزارة

(*) نهى الرسول صلى الله عليه وسلم من مناداة الملك بالشاهنشاه (لأن معناها ملك الملوك) .

لخلفه مؤيد الدولة منذ عام ٣٦٧ هـ ، فإن الفترة الوجيزة بين هذين العامين (من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٦ هـ) قد استوزر فيها ركنُ الدولة أبا الفتح بن العميد خلفاً لأبيه أبى الفضل ، وبذلك يتّضح أن كتاب (مثالب الوزيرين) الذي ألّفه أبوحيان التوحيدى هو فى أبى الفتح بن العميد والصاحب بن عباد . بينما يتضح أن كتاب «الإمتاع والمؤانسة » هو كل مادار من محاورة بين أبى عبدالله بن سعدان وأبى حيّان ، حينما كان ابن سعدان وزيرا لصمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه وتأكيداً لذلك نقرأ الفقرة التالية كما أوردها ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة « السنة التاسعة [١] من ولاية العزيز نزار على مصر وهى سنة أربع وسبعين وثلثمائة فيها دخلت القرامطة البصرة لما علموا بموت عضد الدولة ولم يكن لهم قوة على حصارها ، فجُمع لهم مال فأخذوه وانصرفوا . وفيها وقع الصلح بين صمصام الدولة وبين عمه فخر الدولة ، بمكاتبة أبى عبدالله بن سعدان إلى الصاحب بن عبّاد . فكان ابن سعدان يخاطب الصّاحب بن عباد بالصاحب الجليل ، والصاحب بن عباد يخاطب ابن سعدان بالأستاذ مولاى رئيسى» زدْ على ذلك ماسبق ذكره فى المقدمة ، ونقصد بذلك ماجاء فى كتابُ الإمتاع والمؤانسةُ أن أباحيان قص على الوزير أنه سمع رجلا على جسر بغداد يقول وقد رأي ابن بقيّة الوزير المشهور مصلُوبا بعد أن مات عضد الدولة / سبحان الله عضد الدولة تحت الأرض وابن بقية فوق الأرض ، فلما سمع الوزير ذلك قال (لأبى حيان) هكذا حدثنى أبو الوفاء صديقك : فاستأذنتُ المَلك فى دفن ابن بقيّة فدُفن ، وبتحليل هذه الواقعة نقول : المَلك المراد في هذه القصة هو صمصام الدولة لأنه تولّى الملك بعد وفاة أبيه عضد الدولة والوزير الذى قال . أستأذنت الملك فى دفن ابن بقية هو الوزير أبو عبدالله بن سعدان كما اتضح من الفقرة عن ابن تغرى بردى والتى تؤكد أنه تولى الوزارة لصمصام الدولة ، وكان وزير عمه فخر الدولة حينئذ الصاحب بن عباد ، وعن طريق هذين الوزيرين تم التصالح بينه وبين عمه بعد وفاة أبيه .



(١) المرجع السابق ص ١٤٥ .

ثانيا : عصره العلمي والأدبي :

لاتلازم بين الحالة السياسية والحالة العلمية [1] والأدبية . ذلك أنه من الحقائق الملموسة من استقراء التاريخ ان الحركات العلمية والأدبية لاتتمشى مع التطور السياسى أو تتجاوب بذات الدرجة مع التقلبات السياسية . فالسياسة تتسم بالتغيُّر المفاجئ ، وقد تجئ على مهل وتدبير ، أمَّا الحركات العلمية والأدبية فلابد لها من تمهيد طويل ، ولابد لانقطاعها أو ضعفها من مهلة تطول أو تقصر .

فالدولة العباسية فى ذلك القرن - الرابع الهجرى - قد تدهورت وتمزقت أوصالها ، واستبدت فى أنحاء كثيرة منها القوميات المختلفة غير أنها رغم هذا الاضمحلال فإن النشاط العلمى والأدبى دائب فى طريقه إلى آفاق رحبة . ولذلك أسباب أهمها :

١ - ان التيار الذى كان قويا مندفعا فى القرن الثالث مازال على قوته واندفاعه فى القرن الرابع الهجرى ، ولم يتاثر بالعوامل السياسية المفاجئة.

٢ - أن الملوك والأمراء الذين صاروا قائمين بشئون الحكم والسياسة فى أقاليمهم وجدوا الخير لهم فى تقريب العلماء ، وتشجيع الأدباء ، وسواء أكانوا يبتغون من ذلك محاكاة خلفاء بنى العباس الأوائل ، أم يريدون أن يُضفوا على ملكهم هالة من الأبهة والمجد وحُسن الأُحدوثة ، أو يتخذوا من العلماء والأدباء اعوانا لهم فى شئون الملك والسياسية ، فقد نتج عن ذلك ازدهار الحياة العلمية والأدبية.

٣ - ومع هذا فقد اشتهر آل بويه بالعلم والأدب ، وهم ليسوا بعرب ، فكان عز الدولة بن المعز شاعرا ، وكان عضد الدولة وابنه تاج الدولة أديبين وكذلك أبوالعباس بن ركن الدولة ، على أن عضد الدولة كان نابغا فى عدة علوم . لذلك ظهر ميلهم فى اختيارهم الوزراء والمقربين اليهم ، فكان أكثر وزرائهم كتابا أو شعراء أو علماء ، فمعز الدولة استوزر الحسن المهلَّبى ، وركن الدولة استوزر ابن العميد وابنه أبا الفتح ، ومؤيد الدولة ، ثم أخوه فخر الدولة استوزرا الصاحب بن عبَّاد .

٤ - على أن بنى حمدان بالموصل [2] وحلب وهم عرب خُلَّص كانوا شعراء وأدباء كسيف الدولة الحمدانى وابن عمه أبى فراس ، ومع هذا فقد غُص بلاطهم بالشعراء والأدباء والعلماء . فهذا أبوالطيِّب المتنبى قضى فى كنف سيف الدولة

---

(١) د. أحمد محمد الحوفي - أبوحيان التوحيدى جـ/١ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٧ ، ١٨ .

تسعَ سنوات وقصد سيف الدولة علماء وأدباء كثيرون منهم السَّرِيُّ الرَّفا وأبوالعباس النامى وأبوالفرج الببغاء وابن نباتة السعدى وأبوالفرج الأصفهانى وعبدالرحيم ابن نباتة والفارابى وابن خالويه .

٥ – وكان الغزنويون مشغولين بالفتح ، لكن حروبهم لم تصرفهم عن مناصرة العلم والأدب ، ولم تشغل الحروب السلطان محموداً عن اجتذاب الأدباء والعلماء الى حاضرة ملكه ، فهو الذي كتب الى أمير خوارزم يقول له: علمت أن فى مجلسك جماعة من العلماء المبّرزين ، فأرسلْهم إلىَّ ليشرف بهم مجلسى ، ونستفيد من علمهم ، وهو الذى أشار على الفردوسى أن يتم الشاهنامة التى بدأها الدقيقى باقتراح من نوح بن منصور السامانى .

٦ – وأمَّا مصر فى عهد الأخشيد [1] ثمَّ فى عهد الفاطميين فقد اهتم الحكام بالعلماء والأدباء فهذا أنوجور الأخشيدى يستوزر أبا القاسم جعفر بن الفضل بن الفرات، وهذا أبو الطيب المتنبى يزور مصر فى ولاية ابى المسك كافور ويأسره كرم أبى شجاع فاتك أكبر مماليك الأخشيد إذ طوّقه بهداياه قبل أن يمدحه ويعث إليه هدية قيمتها ألف دينار ثم اتبعها بهدايا أخرى فاستاذن كافورا فى مدحه فأذِنَ له فمدحه بالقصيدة التى يقول فيها .

لاخيلَ عندك تُهديها ولامالُ	فليسعدِ النُّطق إن لم تُسعدِ الحالُ

ولعلَّ مدح المتنبى لفاتك كان من أهمَّ عداوة كافور له . ولم تشفع له كافورياته التى قال فى إحداها بعد تركه سيف الدولة بن حمدان :

قواصدَ كافورٍ توارِكَ غيره	ومن ورد البحرَ استقلَّ السواقيا
فجاءت بنا إنْسانَ عينِ زمانه	وخلَّت بياضا خلفها ومآقيا

٧ – وهى أول قصيدة مدح بها كافورا ثم مدحه بعد ذلك بقصيدته التى يقول فيها .

وأخلاق كافور إذا شئتُ مدْحَه	وإنْ لم أشأْ تُملَى علىَّ فأكتبُ
إذا تَرك الإنسَّانُ أهلاً وراءه	ويمَّمَ كافوراً فما يتغرَّبُ

(١) جمال الدين أبوالمحاسن ، النجوم الزاهرة – جـ/ ٣ ص ٢٩٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

وهذا الاستشهاد للتدليل على اهتمام كافور الأخشيدى بالأدباء والعلماء مع أنه كان من الرقيق الذى اشتراه الأخشيد وفى ذلك يقول الذهبى « وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكان تقرأ عنده فى كل ليلة السير والأخبار للدولة الأموية والعباسية ... » .

٨ – والفاطميون منذ أن نشأت دولتهم بالمهدية سنة ٢٦٧ هـ احتضنوا العلماء والأدباء ثم حينما فتحوا مصر والشام اتخذوا مصر عاصمة لهم من عام ٣٥٧ هـ الى عام ٥٦٧ هـ وهم يجلُّون العلماء والأدباء فهذا شاعر الأندلس محمد [1] بن هانئ الاندلسى يودّع قائد الفاطميين وهو يتأهب بجنده لغزو مصر – يودعه بقصيدته المشهورة التى يقول فيها :

رأيتُ بعينِى فوقَ ماكنتُ أسمعُ	وقد راعنى يومٌ من الحشر أروعُ
غداة كأنَّ الأفقَ سُدَّ بمثله	فعادَ غُروب الشمس مِنْ حيث تطلعُ
فلم أدرِ إذْ ودَّعتُ كيفَ أودِّعُ	ولم أدرِ إذْ شيَّعتُ كيفَ أشيِّعُ

استكمال نقل الفلسفة اليونانية الى العربية ظاهرة جديدة فى الحركة [2] العلمية والأدبية : فقد تم فى القرن الذى عاش فيه أبوحيان والقرن الذى يليه نقل الفلسفة اليونانية الى العربية ، ومن أشهر النَّقلة : أبوبشر متى بن يونس القُنَّائى (المتوفى ٣٢٨هـ) وأبوزكريا يحيى بن عدى المنطقى (المتوفى حوالى سنة ٣٦٤ هـ وأبوعلى اسحاق بن زُرعة (المتوفى ٤٤٨ هـ) وأبوالخير بن الحسن بن الخمار (ولد سنة ٣٣١هـ) وقد اتصل أبوحيان التوحيدى بهؤلاء وبغيرهم ، وتتلمذ على أيديهم وأفاد منهم كثيرا .

سمات الحركة العلمية والأدبية فى القرن الرابع الهجرى :

١ – استكملت العلوم أسباب النضج والنماء ، وظهر ذلك جليا فى المعاجم اللغوية والفلسفة والطب والطبيعيات ، والتاريخ وتقويم البلدان وغيرها مما صنفوه او نقلوه عن اليونان والفرس والهنود .

٢ – انتهى تطور النثر الفنى الى أسلوب خاص [3] : إذ امتازت أكثر كتاباتهم بالتفنن فى التعبير وجنحوا إلى الصناعة والسجع ، واحتفلوا باللفظ ومالوا إلى التطويل وايثار الخيال الشعرى وغير ذلك من السِّمات .

(١) المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ ، جـ/٤ .
(٢) د. أحمد محمد الحوفى – أبوحيان التوحيدى جـ/١ ص ١٨ ، ١٩.
(٣) المرجع السابق ٢ص ٢٠ ، ٢١ .

٣ – ظهرت القصص والمقامات .

٤ – كثُرت المكتبات الخاصة والعامة .

٥ – ازدهر المذهب الشيعي لأن آل بويه في الشرق شيعة ولأن الفاطميين في مصر أشد منهم تشيُّعا ، وكذلك القرامطة وهم من غلاة الشيعة في العراق والشام.

٦ – شاعت في العالم الإسلامي مذاهب شتى في القرن الرابع ، وتزاحمت في البلد الواحد واشتد بينها الصراع ففي بغداد نحل شتَّى متناحرة ، وفي العراق والأهواز وفارس وأصبهان وخراسان مجوس من أتباع زرادشت يعبدون النار ، وفي البصرة قدرية وشيعة وحنابلة – وفي مصر سنية وشيعة – وفي خوزستان معتزلة – وفي كل اقليم شيعة وحنابلة وشافعية ، وكثيرا ماتحدث الفتن بين الحنابلة والشافعية أو بين الشيعة والسنة .

٧ – خفّت حدَّة الشعور بالشعوبية بقيام دول غير عربية رغم اعتراف بعضها بالخلافة العباسية فقد خضعت بعض الأقاليم لبني بويه وقويَ نفوذ القرامطة في العراق والحجاز والشام ، وقامت الدولة الغزنوية الشيعية في خراسان وماوراء النهر وشمالي الهند.

٨ – ظهرت شخصيَّة العواصم والمدن واضحة في نسبة علمائها وأدبائها إليها : كالأصفهاني والرازي ، والمروروزي والبخاري والقُمِّي والنيسابوري .

٩ – كانت اللغة العربية هي لغة الأدب والحكومة في القرن الرابع .

١٠ – اصطبغ شعر بعض الشعراء بصبغة إقليمية واصطبغ شعر آخرين بالفلسفة كأبي العلاء .

١١ – خلفت العواصم التي ينتمون إليها بغداد في الريادة فصارت مثابة الأدباء والعلماء ، والفلاسفة والشعراء .

١٢ – حسْبُ القرن الرابع الهجري ان يتألق في سمائه عشرات من كبار الكتاب ، وعشرات من العلماء والفلاسفة ، فمن الكتَّاب الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وابن عبَّاد وأبوالفضل بن العميد والشريف الرضي وأبوالفرج [1] الأصفهاني وأبواسحاق الصابي وأحمد بن يوسف وعلي بن عبدالعزيز الجرجاني .

ومن الفلاسفة والعلماء : مسكويه والفارابي وابن سينا وابن دُريد وابن الأنباري وابن فارس والآمدي والباقلاَّني والرازي وابن حزم وابن شهيد وأبوأحمد العسكري وأبوهلال العسكري والحاتي والمرزباني والثعالبي .

(١) المرجع السابق ص ٢١

ثالثاً : الحالة الثقافية :

لانستطيع الفصل بين أدب أبى حيان السياسى والحالة الثقافية ، ذلك - لأن الثقافة هى صدى الأحداث السياسية والاجتماعية ، وصورة الحياة الاقتصادية وسجل الأفكار الدينية والمذهبية والقضايا الفلسفية ، وإن أهم كتب أبى حيان وهو « الإمتاع والمؤانسة » يلقى نورا على الطريق فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . نعنى العصر البويهى وهو عصر مغبش بالظلام - (كما تبيَّن لنا من عرض بعض الأحداث السياسية والكوارث التى تعرَّض لها العالم الإسلامى فى ذلك الوقت) والكتاب المذكور يتعرض لكثير من [1] الشئون الاجتماعية فى ثنايا حديثه ، فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد وابن سعدان فى محاسنهم ومساويهم ، ويصف العلماء ، ويحلل شخصياتهم ، وما كان يدور فى مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب ، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين ، كالمناظرة الممتعة التى جرت بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس القُنَّائى فى المفاضلة بين المنطق اليونانى والنحو العربى ، ورأى العلماء فى الشعوبية ، والمفاضلة بين الأمم ، الى كثير من أمثال ذلك ، وفي الكتاب النص الوحيد الذى كشف لنا عن مؤلفى إخوان الصفا ، وقد نقله القفطى منه ، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل (إخوان الصفا) ومن ألَّفها . وعن القفطى نقل هذا النص كلٌ من كتبوا عن إخوان الصفا .

كما أن فى الكتاب فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيرا حالة الشعب في عصره ، وموقفهم من الأمراء والملوك وهيجانهم واضطرابهم ، وأسباب ذلك. فأبوحيان فى هذا الكتاب وفي غيره من الكتب التى صنفها كما يقول ياقوت الحموى «شيخ فى الصوفية» وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وأمام البلغاء « والدكتور الحوفى [2] يفضله عن كثير من أرباب الكتابة والصناعة اللفظية فيقول « أيقنت أن الرجل مغبون القدر ، مهضوم المكانة . وأيقنت أنه أجدر بالدراسة والتقدير من أرباب الصناعة اللفظية الذين ذاعت شهرتهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، ومازالوا يدرَّسون إلى اليوم على أنهم زعماء مدرسة ، أو أصحاب طريقة فى الكتابة ، كابن العميد وابن عبَّاد والقاضى الفاضل ولسان الدين بن الخطيب. والحق أن أبا حيان يفضل هؤلاء جميعا ، ويفضل أضرابهم من كتَّاب الزخرفة والزينة ، كبديع الزمان الهمذانى والحريرى » .

---

(١) أحمد أمين وأحمد الزين - مقدمة كتاب الامتاع والمؤانسة مواف .

(٢) د. أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى - مقدمة الكتاب .

فأبوحيان نتاج القرن الرابع قرن النضج [١] الثقافي والعلمى ، وكان أبوحيان مكتبة جامعة لأكثر مجالات هذه الثقافة ، فهو عالم واسع المعرفة ، متنوع الثقافة ، خبير باللغة والنحو والأدب والكلام والتصوف والفقه والفلسفة ولم يذر من هذه العلوم سوى الطب والكيمياء والرياضة .

استيعابه لمعارف وعلوم عصره :

وقد استقى كلَّ هذه المعارف والعلوم مما يلي :

١ – استقاها من الكتب التى كان ينسخها بعد قراءتها واستيعابها . فقد كان يتخذ حُرفة الوراقة ونسخ الكتب مصدر رزق له ، وهذا ساعده على التمعن فيها والإفادة منها . وهو يشبه الجاحظ فى هذا المضمار ، فقد كان الجاحظ يكترى دكاكين الوراقين ، ويجلس فيها للنظر والقراءة ، أما أبوحيان فقد كانت الوراقة حرفته وسهل عليه الإفادة منها .

٢ – لم يكن لأبى حيان عمل آخر يشغله عن البحث والدرس فى بطون هذه الكتب .

٣ – لم تمنعه هذه الحرفة من مجالسة العلماء والتردد على مجامعهم والأخذ من المشهورين منهم .

ففى الفلسفة : درس على أبى زكريا يحيى بن عدى المنطقى ، وقرأ فى بغداد على ابى سليمان المنطقى (محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى) كتاب النفس لأرسطو . وكان أبوسليمان أكبر علماء بغداد فى الفلسفة والمنطق .

كذلك تتلمذ على أبى محمد المقدسى العروضى ، وأبوالفتح النوشجانى ، وأبوزكريا الصَّيْمرى ، وأبوبكر القُومِسى ، وعيسى بن على ، ومسكويه ، وكتابه (الهوامل والشوامل) إن هو إلا أسئلة سأل أستاذه مسكويه عنها فأجابه عنها . ومن أساتذته الحسن العامرى وأبوالنفيس الرياضى ، وعلى بن عيسى الرمانى ، وقد أثنى عليه فى كتابه (تقريظ الجاحظ) .

وكان أبوحيان على صلة [٢] بنقَلَة الفلسفة اليونانية إلي العربية فى القرن الرابع كأبى بشر متى بن يونس القنَّائى ، وأبى زكريا يحيى بن عدى المنطقى ، وأبي على إسحاق بن زُرعة ، وأبى الخير بن الحسن ابن الخمار.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

وأمَّا الفقه والحديث : فقد ذكر السبكى أنه درس الفقه الشافعى على القاضى أبى حا ـد المروروزى وسمع الحديث من أبى بكر الشاشى وأبى سعيد السيرافى وجعفر الخلدى ، وعلى أبى الفرج المعافى بن زكريا النهروانى أعلم الناس بفقه الطبرى .

وذكره الأسنوى فى طبقات الشافعية لكن لانعرف لأبى حيان مذهبا خاصا فى الفقه ، بل لم يؤثر عنه سوى الفتيا فى مسألتين . الأولى داء الكَلَب الذى يعترى الجمال ، والثانية الربا فى الزعفران ولانعتقد أن فتواه فى هاتين المسألتين كان اجتهادا منه بل ربما كان رأيا منقولا عن سابقيه.

وفى اللغة والنحو . تنبئ كتبه عن علم واسع باللغة ، من حيث مفرداتها والخبرة بدقة استعمالها ، والمهارة فى تركيبها ، وقد استمدها من مشافهة الأعراب فى البادية، ومن العلماء الذين درس عليهم ، وأعظمهم قدرا أبوسعيد السيرافى ، فقد قرأ عليه شرحه لكتاب سيبويه وهو معجب بأبى سعيد إعجابا عظيما ، إذْ يقول عنه إنه الإمام ويقول إنه شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل المفقود الشكل .

ومن ذلك قوله فى كتابه (تقريظ الجاحظ) أبوسعيد السيرافى شيخ الشيوخ وإمام الأئمة، معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافى والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة . أفتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ، ولاعثر منه على زلة . وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه فى ثلاثة آلاف ورقة بخطِّه فما جاراه فيه أحد ، ولاسبقه إلى تمامه إنسان . هذا مع الثقة والديانة والأمانة فى الرواية ، صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله .

وأبوسعيد السيرافى هو الحسن بن عبدالله [١] بن المرزبان ، النحوى القاضى ، كان أبوه مجوسيا واسمه بهزاد فأسلم فسمى عبدالله ، سكن الحسن بغداد ، وولى القضاء بها ، وكان مفتياً فى علوم القراءات والنحو واللغة والفرائض والكلام .... الخ – توفى سن ٣٦٨ هـ .

وفى علم الكلام : وهو العلم الذى [٢] سمى أولا بالنظر فى العقائد والأحكام الدينية فقها ، ثم اطلق عليه الفقه الأكبر على الاعتقادات ، والفقه فى المعاملات . ثم اختص بالعقائد فسمى علم العقائد أو التوحيد أو علم الصفات أو علم الكلام : وسمى كذلك

(١) أبوالمحاسن جمال الدين تغرى بردى – النجوم الزاهرة ، الجزء الرابع ص ١٣٢

(٢) د. أحمد محمد الحوفى– أبوحيان التوحيدى ص ٣٧ ، ٣٨ من الجزء الأول و ص ٣٦ ، ٣٧ من الجزء الثانى .

لأنه يكسب صاحبه قدرة على الكلام فى المسائل الشرعية كالمنطق فى المسائل الفلسفية، وفى هذا الصدد ذكر ياقوت فى حق أبى حيان فقال : « هو محقق الكلام » ، ومتكلم المحققين ووصفه السبكى بأنه متكلّم صوفى . وقال ابن حجَر : إنه سمى التوحيدى نسبة الى التوحيد ، إذ كان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل التوحيد .

وشيوخه فى هذا المجال ، أبوسليمان المنطقى (محمد بن طاهر بن بهرام .. السجستانى) ويحيى بن عدى المنطقى ، ومسكويه وكتابه الهوامل والشوامل هو أسئلة فلسفية كلامية وجهها إلى أستاذه أبي على أحمد بن يعقوب بن مسكويه فيبعث إليه ابن مسكويه بأجوبة شافية كافية . والأسئلة التى يوجهها أبوحيان تدل على ذكائه وقدرته على الكلام ، ومع أنه يستطيع أن يجيب على كل سؤال يطرحه إلا أنه فضّل أن يسمع رأى أستاذه مسكويه ثقة منه أنه أكثر إفادة وإقناعا وكذلك كان شأنه مع الأساتذة الذين يجلّهم .

ومن ذلك القبيل سؤاله أباسليمان المنطقى [1] الفيلسوف عن الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة (فى الإقناع) فأجابه بأن طريقة الفلاسفة أصحُّ وأقوم وسجل هو إجابه أبى سليمان ولم يناقشه فيها ولم يعقّب عليها . وكذلك كان أمينا في حمل رأى أبى سليمان [2] المنطقي عن جماعة إخوان الصفا الى مجلس ابن سعدان ، فقال أبوحيان عن رسائل إخوان الصفا (حملت جملة منها الى أبى سليمان المنطقى وعرضتها عليه ، ونظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، ثم ردّها علىَّ وقال : تعبوا وما اغنوا ، ونصَبوا وما أجدَوْا وحاموا وماوَردُوا ، وغنّوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ... ظنوا مالا يكون ولايمكن ولايستطاع ، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة فى الشريعة ، وأن يضموا الشريعة للفلسفة ، وهذا مرام دونه حدَدٌ (مشقات) وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدَّ أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم أقداراً ، وارفع أخطاراً .. فلم يتم لهم ما أرادوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات فاضحة ، وألقاب موحشة ، وعواقب مخزية ، وأوزارٍ مثقلة .

وأما التصوف : فأبوحيان من المتصوفين الأوائل الذين ساروا فى درب التصوف ، وهى رحلة طويلة بدأها بالتفقه فى الدين ، ودراسة علم الكلام للرد على المناطقة والمتفلسفين ، وكان نتاج رحلة التصوف كتابه الإشارات الإلهية والرسالة الصوفية

---

(١) المرجع السابق جـ/١ ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ، ص ١٠ من الجزء الثانى .

ورسالة فى أخبار الصوفية ولم تخلْ كتبه الأخرى من المواقف التصوفية ، ففي كتابه المقابسات الذى سَجَّل فيه ماسمعه من فطاحل العلماء فى بغداد بمجلس أستاذه أبى سليمان المنطقى ، فى هذا الكتاب لمحات تصوفية شفافة : مثل الموضوعات الفلسفية التى تدعوا الى الفضيلة والأخلاق السامية ، ومادار حول حتمية المعاد والنوم شاهد على المعاد ، ونقل على أبى مقداد كلاما فى الناموس ، ونقل دفاع أبى سليمان عن البعث وزاد عليه من عنده ، ومن موضوعات كتاب المقابسات موضوع فى شرف الزمان والمكان وتفاوت الناس فى الفضيلة .

وأما فى الشعر : فإن أباحيان لم يكن شاعرا ولاشبه[1] شاعرٍ ، ولايقدح فى ذلك أن له بضعة أبيات من الشعر لأن القدر الضئيل لايدل على شاعريته ، ولاعلى ممارسته للشعر التى تسلكه فى عداد الشعراء المقلِّين .

وهو نفسه يعترف بذلك فى قوله لابن سعدان إذْ سأله عن أصحابه الشعراء ، وحُكمه عليهم ، ورأيه فيهم « لستُ من الشعر والشعراء فى شئ ، وأكره ان أخطو على دحْضٍ أى مزلقة – لا أحتسى غير محُضٍ » فلما ألحَّ عليه ابن سعدان وصفَهم له وصْفَ الخبير البصير الحاذق . على أنه ملأ بعض كتبه بشعر مختار جيد ، كما فى الصداقة والصديق ، ونقل عن ابن المعتز وأثنى عليه . وكان هذا رأى الدكتور الحوفى فى أبى حيان التوحيدى شاعراً .

علىَّ أنَّ لى أن أتساءل إذا لم يكن أبوحيان شاعرا فلماذا لم ينسب الأشعار لقائليها، فكثيرٌ من الأشعار التى كان يستشهد بها فى كتبه ، خاصة فى «الإمتاع والمؤانسة» – كما أعتقد – كان ينشئها إنشاء لتناسب المقام على طريقة مقامات البديع الهمذانى ، ففى ليلة جعلها ابن سعدان مجونية ليأخذ بنصيب من الهزل بعد الكلال من المحاورات الجدِّية ، وقال له : هاتِ ماعندك ، فكان ما استشهد [2] به قصيدة مجونية طويلة ، وقد اعتذر محققا الكتاب عن إيرادها قائلَيْن « ولولا الأمانة العلمية والإخلاص للتاريخ لحذْفنا أكثرها واكتفينا بما لطف ورقّ » فعند استشهاده بهذه القصيدة يقول :

---

(١) المرجع السابق جـ/١ ص٤٢ (ولنا رأينا فى هذه القضية وهو الوارد بعد إيراد رأى الدكتور الحوفى كما ذكره المرجع السابق).

(٢) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى / الليلة الثامنة عشر ص ٥٠ ، ٥١ الجزء الثانى .

- قال الشاعر ولم يخبرنا من هو وفيها يقول :

أصـــبـحتُ من سُــفْلِ الأنامِ   إذْ بعتُ عِــرضي بالطَّعَــامِ
أصـــبـحتُ صَــفْـعـانًا لئـيـ   ـمَ النفس مِن قَــومٍ لئـــامِ
فى إسـت ربَّات الخـــيــا   مِ ومَنْ يحنُّ الى الخــيـــامِ
يا عــــاذلى أسَـــرفْتَ فى   عــذل الخليع المستــهــامِ
رجـــل يــعــضُّ إذا نــصـــ   ـحتَ له علَى فـــأس اللجـامِ
دع عنك من يعــصى العــذو   ل ولا يُصــــــيخ إلى الملامِ
خلَــع العِـــــذارَ ولاح فى   ثــوبِ المعـــــاصى والأثامِ
وتــراه يــرعــــــــد حين يُذ   كَــرُ عنده شــهــرُ الصــيـامِ
خــوفــاً من الشّــهــر المعــذِّ   بِ نفــســـه في كلِّ عـــامِ
سلِسُ القــيــادِ إلى التــصـا   بـى والملاهــي والحـــرامِ

فإن كان أبوحيان يستنكف من الانضواء تحت لواء الشعراء لكى لا ينسب إليه ذلك النوع الخليع من الشعر فهل يأنف من الانتساب إليهم من يقول :

إنَّ الغـــريب بحـــيث مـــا   حطَّت ركـــائبـــه ذليلْ
ويد الغـــريب قـــصـــيـــرة   ولـســـــانه أبداً كـلـيل
والناس ينصـــر بعــضُــهم   بعـــضـــاً وناصـــره قليل

ثم أليس البيتان التاليان هما من شعر أبى حيان وهما البيتان اللذان أنشدهما الوزير أبا عبد الله العارض فى أول الليلة الرابعة من ليالى "الإمتاع والمؤانسة" .

كلانا سواءٌ في الهوى غير أنَّها   تجلَّد أحــيــانا ومــابى تَجلُّدُ
تخـاف وعيـد الكاشحين وإنَّما   جُنونى عليها حين أُنهى وأُبْعَدُ



رابعاً : صلة أبى حيَّان بمنشئى الكتابة الديوانية :

نعلم جميعا أنَّ الكتابة الديوانية قد بلغت شأواً عظيماً فى القرن الرابع على يد كتَّابٍ مبرِّزين يأتى على رأسهم ابن العميد ، عميد الكتَّاب فى ذلك القرن ، ثم الصاحب بن عباد الذى طبَّقت شهرته الآفاق ، والتفَّ حوله من الشعراء والكتَّاب والعلماء والفلاسفة مالم يبلغه أحد من وزراء بغداد ومايليها من الأقاليم . وأبوحيان التوحيدى وإنْ لم يكن من كتَّاب الدواوين – قد تأثر أيَّما تأثر بالكتابة الديوانية بسبب مزاولته مهنة النسخ والتحبير ، فقد أتاحت له الفرصة السانحة للاطلاع والاستيعاب والمحاكاة.

نشأة الكتابة الديوانية :

أوجب اتساع الدولة الإسلامية منذ عصر الأمويين[1] أن يكون هناك نوع من الكتابة الفنية ، سُمِّيت بالرسائل الديوانية ، يزاولها كتاب مختارون ومفتنُّون فى الكتابة لبلوغ القصد من هذه الرسائل بأوجز العبارات وأبلغ المعانى ، وكان لاحتكاك العقلية العربية بالعقلية الفارسية ، أو العقلية السامية والعقلية الآرية أثر في إحكام هذا الفن ، ففى أوائل القرن الثانى حينما التقت هاتان الحضارتان طال نفس الرسائل طولا ملحوظا ، وكان ذلك واضحا فى أسلوب عبدالحميد الكاتب آخر كتَّاب بنى أمية ، وابن المقفع أول الكتاب فى العصر العباسى . وظهر بعد ذلك بقليل فى التوقيعات فى آخر الرسائل الذى اشتهر به كتَّاب البرامكة .

ومازال الكتاب يطوِّلون رسائلهم ويجوِّدون فى اختيار عباراتها ، ويُعنون بالمترادفات ويكثرون منها توضيحا واسترسالا حتى بلغ الترسُّل حد الكمال فى أواسط القرن الثانى ، وفى القرن الثالث خرج الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ بأسلوب جديد ، فأضاف الى الرسائل شيئا جديدا عرف به ، هو الجمل المزدوجة وهى التى يعنى فيها الكاتب بأواخر الجمل فى الوزن ، دون التزام بتوحيد الحرف الأخير ، وذلك مايميز الأزدواج عند الجاحظ من السجع الذى انتشر بعد عصره ، كما أضاف كتَّاب القرن الثالث الى هذا النمط من الأسلوب الإطالةَ فى مقدمات الرسائل ، ومنها التحميدات ، كذلك عُنوا بخواتيهما ، وأصبحت الرسالة تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية هى : المقدمة وموضوع الرسالة والخاتمة . أما السجع فقلما ظهر فى أسلوبهم وإن ظهر كان من النوع السهل المطبوع الذى يفلت من ثنايا القلم دون تكلف ، أو إعمال فكر كما تفلت البادرة الجميلة أثناء الكلام .

---

(١) الآداب الاقليمية – د حامد حفنى داود – ص ٣٦ ، ٣٧ .

ويعتبر القرن الثالث [1] قرن الكتابة بحق ، فهو فضلا عن عناية الكُتَّاب بالترسُّل ويعدهم عن التكلف والسجع المصنوع ، والمحسنات البديعية ظهر من بينهم فلاسفة النقاد الذين حرصوا كل الحرص على الأسلوب الرصين فى الكتابة . منهم أبوعثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، أما الجاحظ فقد رسم ببيانه الأسلوب الجيِّد فى الكتابة ، وكأنه كان فى صنعه نموذجا للمحاكاة الفنية فى أسلوب الكتابة ، بينما وقف ابن قتيبة موقف الناقد اليقظ الذى يحمل على الكتَّاب الخارجين عن أنماط العربية فى الكتابة ، ولأمر ما ألف كتابه « أدب الكاتب» فى فن الكتابه ، معرِّفا كتَّاب عصره بالأسلوب الصحيح الذى يجب احتذاؤه ، مشدِّدا اللوم والنكير على هؤلاء الذين أسرفوا فى النهل من الثقافة اليونانية ، والذين تأثروا بألفاظ الفلاسفة ، واستخدموا مصطلحاتهم الفلسفية في كتاباتهم بقصد التشدق وإظهار العلم حتى خرجوا عن أسلوب الترسُّل المقبول فى العربية .

تطور فن الكتابة فى القرن الرابع الهجرى .

فلما كان القرن الرابع ، وخفَّت حدة النقد على الكتَّاب والشعراء تشبث الكتاب بالصناعة اللفظية ، وكان أول الداء انتشار السجع فى أساليبهم ، وقد بدأ السجع المصنوع أول الأمر فى أساليب كتَّاب ديوان الخليفة المقتدر كابن الفرات وابن مُقلة :

وتفصيل ذلك ان كتاب القرن الرابع لم يكتفوا بما صنعه أسلافهم من سجع قليل بل ساروا بأساليب الرسائل أشواطا أخرى مثل :

١ - الإكثار من السجع المصنوع فى أواخر الفواصل والتزموا بها التزاما تاما .

٢ - اضافوا الى التزام السجع فى أساليبهم [2] ماعُرف فى القرن الرابع من ألوان البديع سواء فى ذلك اللفظى والمعنوى ، إلاَّ أن هذا القرن كان قرن الشعر قبل النثر ، كما كان قرن التطوُّر فى حياة البديع والبلاغة العربية .

٣ - تأثر الكتاب فى أساليبهم بالشعراء ، فأكثروا من تضمين رسائلهم بالشعر بعد أن كان هذا التضمين قليلا فى العصر السابق ... وهذا مردُّه إلى أن أكثر الكتَّاب فى ذلك القرن كانوا جميعهم يقرضون الشعر وهذه الظاهرة واضحة فى أسلوب ابن العميد والصاحب وعبدالعزيز بن يوسف وابراهيم بن اسحاق العباسى وجميعهم من الكتَّاب الشعراء .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ ، ٣٩ .

وتُعزى البلاغة اللفظية من سجع وبديع وزخرفة لفظية وتضمين للشعر فى هذا القرن الى اتصال العرب بالفرس منذ قامت الدولة العباسية على أيديهم والفرس أهل حضارة مادية وآثار فنية مجسمة وملونة ، ولاشك أن هذه الحضارات المادية انتقلت الى العرب، وظهرت فى أنظمتهم السياسية ، كما ظهرت فى تقاليدهم وعادتهم ومظاهرهم الاجتماعية ، وبدت هذه الحضارة المادية واضحة فى كل شئ حتى فى ملابسهم وقصورهم وأبنيتهم بما فيها من أثاث ورياش ، ثم تحول هذا التأنق المادى من المادة الى اللغة بحكم سنّة التطور ، ونظرية المؤثِّر والأثر فظهرت هذه الزخرفة فى أساليب الكتابة كما ظهرت فى أساليب الشعر .

ومن أشهر الكتاب فى الديوان العباسى [1] عبدالله بن المقفَّع ، وكان كاتبا لأعمال المنصور بالبصرة ، وخالد بن برمك وزير السفاح وكاتبه ، والموريانى وزير المنصور ورئيس ديوانه ، والربيع بن يونس الذي كتب للمهدى ... وظهر كتاب آخرون فى بلاد فارس حيث الدولة البويهية التى أخذت مكانة بغداد ، ومن ثمَّ انتقلت زعامة الكتابة إلى بلاد المشرق على أيدى جماعة من أعلام الكتابة كابن العميد والصاحب وعبدالعزيز بن يوسف وأبى العباس من وزراء ملوك بنى بويه .

ابن العميد زعيم كتاب المشرق :

هو أبوالفضل محمد بن الحسين بن العميد [2] ، ينتهى نسبه إلى أسرة فارسية بمدينة قُم ، ولد سنة ٣٠٠ هـ وكان والده نخالا فى سوق الحنطة بهذه المدينة ثم ارتفع شأنه بالعلم وحسن التدبير ، وكان يكتب فى أول حياته لصاحب خراسان ، ثم اتصل ببنى بويه ودبَّر معهم شئون دولتهم ، وهكذا نشأ ابنه أبوالفضل فى بيئة عالية اشتهرت بالكتابة الديوانية ، وحسن التدبير ، فاستوزره الملك ركن الدولة بن بويه ، فساس دولته ودبر شئونها وتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

طريقته وأسلوبه فى الكتابة :

يعتبر ابن العميد أول عمداء الكتابة فى العصر العباسى الثانى وأعظم كتَّاب القرن الرابع ووزرائه المشتغلين بشئون الدواوين ، ويعتبر أول المطوِّرين لأساليب الكتابة فى هذا العصر ، فقد تحرّى فى أسلوب الرسائل أن تكون الجمل مسجوعة فى صورة

(١) المرجع السابق ص ٤١ .
(٢) المرجع السابق ص ٤١ ، ٤٢ .

ملتزمة ، وان تكون الفقرة قصيرة فى الغالب ، محلاة بالمحسّنات البديعية ، ألفاظها مختارة رنّانة ، وجملها حسنة الرصف ، جيدة السبك ، مع الإكثار من تضمين جيّد للأشعار ، والاستشهاد بالأحاديث المناسبة المأثورة ، والأمثال السائرة المشهورة بعد الاقتباس من القرآن . وبسبب هذه الصناعة اللفظية يميل بعض النقاد الى تسمية طريقته بالشعر المنثور ، كما يميلون إلي اعتباره خاتمة الكتّاب فيقولون ، « بدئت الكتابة بعبدالحميد وختمت بابن العميد » .

تأثر معاصريه – ومنهم أبوحيان التوحيدى – بكتابته :

وتأثر كتاب المشرق بطريقة ابن العميد فى الكتابة فجروا على أسلوبه ، ناسجين على منواله فى الصناعة اللفظية ، وفى مقدمة هؤلاء الكتاب الذين تاثروا طريقته تلميذه الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وأبوبكر الخوارزمى (توفى سنة ٣٨٣ هـ) وابى اسحاق الصابى (توفى سنة ٣٨٤ هـ) وبديع الزمان الهمذانى (توفى سنة ٣٩٨ هـ) وأبوحيان التوحيدى (توفى سنة ٤٠٠ هـ) (*).

نموذج لأبى حيّان يحاكى فيه أسلوب ابن العميد :

النموذج الذى يناسب هذا المقام هو شيء يسير مما دار فى الليلة الخامسة والعشرين من حوار بينه وبين الوزير العارض قال له أحبُّ أن أسمع كلاماً فى مراتب النظم والنثر ، وإلى أىٍّ[1] حدّ ينتهيان ، وعلى أى شكل يتفقان وأيُّهما أجمع للفائدة وأرجع بالعائدة وأدخل فى الصناعة وأولى بالبراعة ؟

فاستصعب أبو حيان الجواب على هذا السؤال ، ولكنه إرضاء للوزير ، قسّم الكلام إلي ثلاثة أقسام علي لسان شيخه أبى سليمان المنطقى فقال : «قال شيخنا أبو سليمان : الكلام ينبعث فى أوّل مبادئه إمّا من عفو البديهة ، وإمّا من كدِّ الرويّة ، وأمّا أن يكون مركبا منهما ، وفيه قواهما بالأكثر والأقل .

ففضيلة عفو البديهة أن يكون أصفى ، وفضيلة كدِّ الرويّة أن يكون أشفى ، وفضيلة المركب منهما أن يكون أوفى ، وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل ، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل (يلاحظ أن المحقق بدل هنا كلمة أقل بأكثر) وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما » ... .

(*) المرجع السابق ص ٤٢ .

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى جـ/١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

ثم يقول أبو حيان « وسمعت أبا عابد الكرْخى صالح بن علىٍّ يقول النثر أصل الكلام ، والنظم فرعه ، والأصل أشرف من الفرع ، والفرع أنقص من الأصل ، لكن لكل واحد منهما زائنات وشائنات . فأمَّا زائنات النثر فهى ظاهرة : لأن جميع الناس فى أوَّل كلامهم يقصدون النثر ، وإنما يتعرضون للنظم فى الثانية بداعية عارضة ، وسبب باعث وأمر معين .

قال : ومن شرفه أيضا أن الكتبُ القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الإلهى مع اختلاف اللغات كلِّها منثورة مبسوطة ، متباينة الأوزان ،متباعدة الأبنية ، مختلفة التصاريف ، لا تنقاد للوزن ولاتدخل في الأعاريض.

وبعد أن عرض كثيراً من فضائل النثر على النظم قال .

" وأمَّا ما يفُضَّل به النظم على النثر فأشياء سمعناها من هؤلاء العلماء الذين كانت سماء علمهم درورا ، وبحر أدبهم متلاطما ، وروض فضلهم مزدهراً ... قال السلامى : من فضائل النظم أن صار لنا صناعة برأسها ، وتكلم الناس فى قوافيها ، وتوسعوا فى تصاريفها وأعاريضها ، وتصرفوا فى بحورها ، واطلعوا على عجائب ما استخزن فيها من آثار الطبيعة الشريفة ، وشواهد القدرة الصادقة . وما هكذا النثر .. " .

ويقال : ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيت من الشعر ، ولايقال : ماأحسن هذا الشعر لو كان فيه شيء من النثر ، لأن صورة المنظوم محفوظة ، وصورة المنثور ضائعة .

ففى هذا النموذج الذى سُقناه للقارئ الكريم من نثر أبي حيان التوحيدى يتأكد لنا أنه ليس ثمة بينه وبين الكتابة الديوانية التى برع فيها ابن العميد فرق شاسع – ناهيك فى ذلك عن موضوع هذه الكتابة – لأن أبا حيان لم يعهد إليه أى منصب كتابى فى الدواوين ولكن سمات الكتابة الديوانية فى كثير من كتاباته .. ولاعجب فى ترسمه لخطى ابن العميد فقد كان أستاذاً لجميع كتاب ذلك العصر .



- ٢ -

أبوحيان التوحيدى

* معالم حياته وصلاته بوزراء عصره

* فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

* فيلسوف التوحيد ورائد علم النفس التحليلى



أبوحيان التوحيدى

معالم حياته :

بادئ ذى بدء لقد سبق الإلماح فى مقدّمة هذا الكتاب الى التساؤل عن أبى حيان التوحيدى ، وهذا ليس بمانع من العودة مرة أخرى للتأكيد على ما ألمحنا إليه ، فهو على بن محمد بن العباس [1] ، وكنيته أبوحيَّان ، ولُقِّب بالتوحيدى - كما سبق القول - لأن أباه كان يبيع نوعاً من التمر ببغداد اسمه التوحيد .. وهو الذى عناهُ المتنبى فى قوله :

يترشَّفن مِنْ دمَى رشفاتٍ هُنَّ فيهِ أحلىَ مِنَ التوحيدِ

أو أنَّ لقبَه هذا نسبةٌ إلى التوحيد - أى الدين - كما رأى ذلك ابن حجر العسقلانى، لأن المعتزلة يسمُّون أنفسهم : أهل العدل والتوحيد .

ويقول الدكتور الحُوفى « ولانستطيع أن نرجح رأيا على آخر فى تلقيبه بالتوحيدى ، فربَّما كان أبوه يبيع هذا النوع من التمر ، وربَّما لقِّبه بالتوحيدى بعضُ معاصريه أو لاحقيه ممَّن عرفوا مذهبه فى التوحيد ، لكنَّ الذى نوقن به أنه لم يعرض لهذا اللقب فى كتاب من كتبه ، على كثرة ماذكر فى كُتبه ، ولم يُشِرْ من قريبٍ أو من بعيدٍ إلى نسبهِ أو إلى أسرته »

ولعلّ السبب فى عدم ذكره لنسبه أو أسرته هو أنه من أسرة متواضعة بسيطة ، خاملة الذِّكر ، أو من أوساط الناس فى عصر الدولة البويهية التى سيطرت على دولة الخلافة العباسية منذ عام ٣٣٤ هـ فى بغداد وشيراز والرّى إلى أن زالت فى عام ٤٤٧هـ ، وأوساط الناس فى أى عصر من العصور لايُلتفت إليهم ، ولايُعنى بهم ، ولذا فقد وجدنا مصنِّفى الكتب يُعنون بوفيات الأعيان لأنهم لايستطيعون الاعتناء بتسجيل تواريخ ميلادهم لعدم وجود سجلات للمواليد فى تلك الآونة ، ومن باب أولى لايعنون بالسوقة من الناس وبخاصة حينما يرحلون عن هذه الحياة .

ومهما اخُتلف فى تعيين تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته، فالأرجح أنه ولد فى عام ٣١٢هـ وتوفى سنة ٤١٤ هـ « أى أنَّه عاش قرناً من الزمان، متنقِّلا بين [2] ربوع البلدان ، من

---

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى - جـ/١ ص ٥٢ .

(٢) خيرى شلبى - أبوحيان التوحيدى - ربيع الثقافة العربية ص ٧ .

بغداد الى الرّى الى شيراز ، إلى غيرها من المدن الإسلامية الحافلة ، لاسائحاً بل باحثا عن لقمة عيش طريّة ، وثوب دافئ وفرش ناعم ، وسقف آمن ولكن بدون جدوى ، فقد قلبت له الحياة ظهر المجن – كما يقول المثل العربى القديم – وأدار له الجميع رؤوسهم وظهورهم ، ولم يحفل به أحد » .

لماذ اعتنى المؤرخون بأعيان الناس ؟ : يقول الدكتور الحوفى « أما وفيات [1] هؤلاء العلماء والأدباء فقلّما تُجهل ، وإن حدث فيها اختلاف ، لأنهم كانوا قد اشتهروا وذاع علمهم وأدبهم فى الآفاق ، وهذا هو السر فى أنَّ كُتب التراجم تُعنى بزمن الوفاة أكثر من عنايتها بزمن الميلاد » .

هل كان هذا المبدأ منطبقاً على حالة أبى حيان[2]؟ . رأى بعض النقاد أن أباحيان قد ظُلم فى الاختلاف على تعيين تاريخ وفاته ، كما اختُلف على تعيين تاريخ ميلاده . وإن كان هذا أمراً شائعا وطبيعيا يحدث لكثير من الذين اشتُهروا من العلماء والأدباء فى تلك العصور ، إلاَّ أن بعض النقاد رأى أن أبا حيان قد اختلف بشأنه اختلافا بيّنا ، فهو لذلك قد ظُلم ظلما عظيما ، وإكمالا لقول الدكتور الحوفى نُورد هذه الفقرة « لكننا فى تاريخنا لأبى حيان نُلفى عسرين . عسرا فى تعرف مولده ، وعسرا فى تعرُّف وفاته ، كأنما اتفق الناس على إهماله ميْتًا ، كما أهملوه حيًّا ، وكأنما أبَى حظُّه المهضوم إلاَّ أن يلازمه فى الحياة والموت .

وقد حار دارسوه فى تحديد ميلاده ، فاستظهر السندوبى أنه ولد سنة ٣١٢ هـ معتمدا على أنه كتب رسالة الى القاضى أبى سهل على بن محمد يعتذر فيها من إحراق كتبه ، وأرخها سنة أربعمائة ، وقال فيها « وبعد فقد أصبحت هامةَ اليوم أوغد ، فإنى فى عُشر التسعين ، وهل بعد الكبَرة والعجز أمل في حياةٍ لذيذة . لكن هذا الاستنباط لايستند إلى قوة ، فمن الجائز أن يكون قد ولد قبل ذلك أو بعد ذلك .

ونُنهى حديث الدكتور الحوفى بالاختلاف فى تاريخ وفاة أبى حيان بقوله « ولعل المؤرخين لم يختلفوا فى وفاة عالم أو أديب كما اختلفوا فى وفاة أبى حيان ، وأنه لخلاف جسيم ، يرجع بوفاته الى سنة ٣٦٠ هـ أو يمتد بها الى ٤١٤ هـ فأىّ خلاف ذلك الذى يفصل بين زمنين أكثر من نصف قرن »، على أننا نغلّب الرأى الذى ارتأى ان تاريخ ميلاده كان سنة ٣١٢ هـ وتاريخ وفاته كان سنة ٤١٤ هـ ، واذا وضعنا في

---

(١) د أحمد محمد الحوفى – أبوحيان التوحيدى – مرجع سابق ص ٢٣.

(٢) يلاحظ أنه لم يكتب عن أبى حيان التوحيدى من كتاب التراجم أحد قبل ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٥)

اعتبارنا تواضع حياة أبى حيان التوحيدى وبساطة اسرته وظروف الحياة فى تلك العصور وعدم اهتمامهم بتسجيل المواليد فى تلك الآونة ، فاننا نرى أن الاختلاف فى تعيين تاريخ ميلاد أبى حيان وتاريخ وفاته أمر عادى وطبيعى ، وليس فيه ظلم له ، ولانقول . إن الناس ربّما اتفقوا على إهماله ميتا كما أهملوه حيا .

إلي أىّ البلاد ينتمى أبوحيان ؟ وكما اختلف المؤرخون فى تعيين سنة مولده وسنة وفاته ، اختلفوا أيضا اختلافا بيّنا فى مسقط رأسه ، فهو [1] عند ياقوت الحموى شيرازى الأصل وقال : إنه عمدة لبنى ساسان . وقال عنه آخرون : إنه واسطى قدم بغداد وأقام بها مدة ثم مضى إلي الرّى .

ونقل السيوطى عن ياقوت أنه شيرازى أو نيسابورى ، وسار فى هذا الدرب السندوبى وكذلك الدكتور زكى مبارك ، أمّا الأستاذ محمد كُرد على فقد ذهب الى أنه عربى الأصل ، وأيّدنا هذا الرأى ذاكرين الأسباب فى مقدمة هذا الكتاب ، وأهمها أمران : أولهما أنه اسمه عربى صرف وثانيهما عدم معرفته للفارسية .

ثم ماذا حدث لأبى حيان وهو يسلك درب الحياة ؟ : لم يتحدث أبوحيان عن حياته وأعماله إلاّ عرضا، كذلك لم يتعرض مؤرخوه لما كان يمارس من عمل يتكسب به.

غير أننا نستنبط من بعض كلامه أنه كان يمارس الوراقة والنسخ ببغداد ، قبل أن يرحل الى ابن عباد (بالرّى) ونستنبط أنه كان جميل الخط ، دقيق النقل بالتصحيف والتحريف ... ويذكر في كتابه مثالب الوزيرين أن الصاحب بن عبّاد كلّفه أن ينسخ له كتابا فقبل على مضض ، وقال لبعض الناس فى دار الصاحب · إنما توجّهتُ من العراق إلي هذا الباب ، وزاحمت منتجعى هذا الربيع لأتخلّص من حرفة الشؤم .

هل كان أبوحيان موفّقا فى رحلاته بين بغداد والرّى ؟ : لقد كانت أبواب الملوك والأمراء والوزراء فى ذلك الوقت تعج [2] بذوى الحاجات والمادحين ، الذين يرجعون محملين بالهدايا والخلع الثمينة بينما لم يجد أبوحيان له مكانا بينهم ، فقد ظلت الحياة تزرى بهذا الفيلسوف الكبير ، وتهزأ به يوما بعد يوم ، حتى بدأت نفسه تضج بالشكوى وهو يطلب العون والمساعدة ممن بيدهم الأموال والمصادر ، حتى أنه أهرق ماء وجهه ، وأذهب كبرياءه فى سبيل نيل عطاياهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥

(٢) خير شلبى – أبوحيان التوحيدى – ربيع الثقافة العربية ص ٧ .

هل أغنته حرفة التأليف عن قصد الأمراء والوزراء ؟ على أن حرفة التأليف لم تغنه عن التردّد على أولئك الأمراء والوزراء ، فهذه الحرفة جاءت تبعا لاشتغاله بالنسخ والتحبير ومجالسته للعلماء والفلاسفة والفقهاء ، وان كانت لم تردّه عن المسألة الا أنها بقيت تراثا عظيما فى أمور شتى ، فمن هذه الكتب النفيسة التى أحرق على صفحاتها دمه ونور عينيه : المقابسات وكتاب الهوامل والشوامل وكتاب الصداقة والصديق وكتاب الذخائر والبصائر وكتاب الإمتاع والمؤانسة وغير ذلك من كتب معروفة وأخرى مجهولة .



صلاته بوزراء عصره :

من هم الأعلام الذين قصدهم رغبةً فى رفدهم ؟

أولا : أبوالفتح ذو الكفايتين

لقد قصد بالرّى ذا الكفايتين أبا الفتح بن العميد الذى تولّى الوزارةَ لركن الدولة[1] ابن بويه عقب وفاة والده أبى الفضل بن العميد (من سنة ٣٦٠ إلى نسة ٣٦٦ هـ) قال عنه صاحب يتيمة الدهر « هو على بن محمد (والده أبوالفضل محمد بن الحسين) ثمرة تلك الشجرة ، وشبل ذلك القسورة ، (وحقٌّ على ابن الصقرِ أنْ يشبه الصَّقرا) وما أدق ماقال الشاعر :

إنَّ السَّـرِىَّ إذا سَـرى فـبنفـسـه   وابن السَّـرِىِّ إذا سـرى أسـراهمـا

وكان نجيبا ذكياً ، لطيفاً سخيًا ، رفيع الهمَّة ، كامل المروءة ، ظريف التفصيل والجملة ، قد تأنق أبوه فى تأديبه وتهذيبه ، وجالس به أدباء عصره ، وفضلاء وقته ، حتى تخرّج وخرج حسن الترسُّل ، متقدِّمَ القدم فى النظم ، آخذاً من محاسن الآداب بأوفر الحظِّ ، ولمَّا قام مقام أبيه قبل الاستكمال ، وعلى بعيد من الاكتهال ، وجمعَ تدبير السيف والقلم لركن الدولة ، لُقِّب بذى الكفايتين وعلا شأنه ، وارتفع قدره وبعُد صيته ، وطاب ذكره ، وجرى أمره أحسن مجرى ، إلى أن تُوفىَ ركنُ الدولة فاقتضَتْ حال أبى الفتح – كما حدَّثنى أبومنصور سعيد ابن أحمد البريدى – (إلى النحو التالى) قال : لما توفى ركن الدولة وقام مقامه (ابنه) مؤيِّد الدولة خليفةً لأخية عضد الدولة ، أقبل من أصبهان إلى الرّى ومعه الصاحب أبوالقاسم (ابن عباد) . وخلع على أبى الفتح خلعة الوزارة وألقى إليه مقاليد المملكة ، والصاحب على جملته فى الكتابة لمؤيد الدولة والاختصاص به ، وشدة الحُظوة لديه . فكرهَ أبوالفتح مكانه ، وأساء الظنَّ به ، فبعث الجند على أن يشغبوا عليه وهمُّوا بما لم ينالوا منه ، فأمره مؤيِّد الدولة بمعاودة أصبهان (أى أمر الصاحب) وأسرَّ فى نفسه الموجدة على أبى الفتح لهذا الشأن وغيره، وانضاف ذلك الى تغيُّر عضد الدولة واحتقاده عليه لأشياءَ كثيرة فى أيام أبيه وبعدَها منها مُمايلتُهُ بختيارَ (أى كان ممالئاً لعزِّ الدولة بختيار بن معزِّ الدولة ضدَّ ابن عمه عضد الدولة) ، ومنها ميل القوَّاد إليه ، بل غلوُّهم فى موالاته ومحبته ، ومنها ترفُّعه عن التواضع له فى مكاتباته ، واجتمعت آراء الأخوين (مؤيد الدولة وعضد الدولة) على

(١) أبومنصور الثعالبي – يتيمة الدهر – الجزء الثالث ص ١٨١ ، ١٨٦.

اعتقاله وأخذ أمواله ، ولما اعتقل فى بعض القلاع بدرت منه كلمات نُمّت إلى عضد الدولة ، فزادت فى استيحاشه منه ، وأنهض من حضرته من (قد) طالبه بالأموال ، وعذّبه ومثّل به ، ويقال : إنه سمل إحدى عينيه ، وقطع أنفه ، وجزّ لحيته . ففى تلك الحال يقول أبوالفتح وقد يئس من نفسه ، واستأذن فى صلاة ركعتين ، فصلاّهما ودعا بدواة وقرطاس وكتب :

بُدّل من صورتي المنظرُ[1]	لكنّه ما غُيِّر المخبَرُ
ولستُ ذا حزنٍ على فائتٍ	لكنْ على مَن ليس يستعبِرُ
ووالهِ القلبِ لِمَا مسّني	مُستخبرٍ عنّي ولا يخبَرُ
فقل لِمَنْ سُرَّ بما ساءَنا	لابدَّ أن يُسلك ذا المَعْبَرُ

وأخبرني أبوجعفر الذى قدَّمتُ ذكره ، وكان مختصاً به ، قال : كان أبوالفتح قُبيل النكبة التي أتت على نفسه ، قد أُغرم بإنشاء هذين البيتين ، لايجف لسانه من ترديدهما فى أكثر أوقاته وأحواله ، ولست أدرى أهُما له أم لغيره :

دخَلَ الدُّنيا أناسٌ قبلَنا	رحلُوا عنها[2] وخلُّوها لنا
فنزلناها كما قد نزلوا	ونخلّيها لقومٍ بعدَنا

فلما حصلَ في الاعتقال ، واستيقن أن القوم يريدون دمه لامحالة وأنه لاينجو منهم وإنْ بذلَ ماله . مَدَّ يدَه الى جيبِ جُبَّة عليه ففتقَه عن رقعة فيها ثَبَتُ مالا يُحصى من ودائعه وكنوز أبيه وذخائره ، فألقاها في كانون[3] نار بين يديه وقال للقائد الموكَّل به . المأمورَ بقتله بعد مطالبته : اصنع ما أنت صانع ، فو الله لايصل من أموالى المستورة الى صاحبك دينار واحد ، فمازال يعرضه على العذاب ويمثّل به ، حتى تلفَ رحمه الله تعالى ، وفيه يقول بعض أصحابه :

آلَ العميدِ وآلَ بُرمكَ مالكمُ	قلَّ المعينُ لكم وذلَّ الناصرُ
كانَ الزمانُ يحبُّكم فبدَا لنا	أن الزَّمانَ هو المحبُّ الغادرُ

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سبق ذكر هذين البيتين منسوبين لأبيه أبى الفضل بن العميد ، وقد انتقدنا ابن تغرى بردى الذى نسبهما لأبيه والأصح هذه الرواية للثعالبى لأن أبا الفضل لم يمت مقتولا كما ذكر ابن تغرى بردي .

(٣) ابومنصور الثعالبى - يتيمة الدهر ص ١٨٦ .

وأبوبكر الخوارزمي يقول في مرثيته له :

يادهرُ إنك بالرجـــال بصـــيـــرُ	فلذاكَ مـــاتحـــتـــاجـــهم وتُبـيـــر[1]
يادهرُ غـــيـــرى من خـــدَعْتَ بباطلٍ	وابنُ العـــمـــيـــد مـــغـــيّبُ مـــقـــبـــورْ
الآن نادتنا الــتـــجـــاربُ طلّقـــوا	دنيـــاكـــمـــو إن الســـرورَ غـــرورُ

وأما أبو حيان التوحيدى أديب الفلاسفة فإنه رغم ماكان يحمله في جوانحه من موجدة لأبى الفتح بن العميد ، فإنه قد ذكره فى نادرة له مع ابن الحجاج[2] الشاعر الخليع – ذكر الفتح بعد وفاته فى نادرة من النوادر التى خصَّ بها مجلس الوزير بن سعدان . وخلاصة ذلك أن ذا الكفايتين بن العميد لماهزم الأتراك الذين ثاروا على ركن الدولة فى عام ٣٦٤هـ ـ سأل عن ابن حجاج " وكان متشوقا له لما كان يقرأ عليه من قوافيه ، فأحبَّ أن يلقاه لأنه ليس الخبر كالمعاينة ، ولما ظهر به دعاه للطعام معه فلما فرغا ، قال له ابن العميد ؛ لقد والله تُهت (تحيرت) عجباً منك . فأمَّا عجبىَ بك فقد تقدَّم ، لقد كنت أتملَّى ديوانك ، فأتمنَّى لقاءك . وأقول من صاحب هذا الكلام . أطيشُ طائشٍ ، وأخفُّ خفيف ، وأغرم غارم ، وكيف يجالَس من يكون فى هذا الإهاب ، وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتَّاب وأصحاب الآداب . حتى شاهدتك الآن ، فتهالكت على وقارك ، وسكون أطرافك ... وفرط حيائك " فيجيبه ابن حجاج : " أيها الأستاذ ، وكان عجبى منك دون عجبك منى ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجب منك . لأنى قلت . إذا ورد الأستاذ فسألقى منه خلقا جافيا ، وفظاً غليظا ... وجبليا ديلميا متكائباً متعاظما ، حتى رأيتك الآن وأنت ألطفُ من الهواء ، وأرق من الماء ، وأغزل من جميل بن معمر ، وأعذب من الحياة ، وأرزن من الطود ... فتبسم أبو الفتح قائلا – هذا أيضا من ودائع فضلك وبواعث تفضلك ووصله وصرفه " .

فعقَّب ابن سعدان على أبى حيان قائلا : ؛ لم يكن هذا الحديث عندى " . ولعله دهش لإيراد أبى حيان هذه النادرة عن أبى الفتح وكان من قبل ساخطا عليه .



---

(١) تبير تهلك .

(٢) أبوحيان التوحيدى · الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق د. أحمد أمين وأحمد الزين ص ١٢٧ – ١٣٩ جـ١ .

صلته بذى الكفايتين بن العميد :

من العرض السابق تبين لنا أن على بن محمد بن الحسين بن العميد المكنّى بأبى الفتح ذى الكفايتين قد وَلِىَ الوزارة - لركن الدولة بن بويه بعد وفاة أبيه ابى الفضل سنة ٣٦٠ هـ وفى سنة ٣٦٦ هـ توفى السلطان ركن الدولة بن بويه فسارع الصاحب بن عباد كاتب ابنه مؤيِّد الدولة (منذ كان أميرا) بالمناداة بسلطنة مؤيِّد الدولة على ملك أبيه ركن الدولة ، وقد أدّى هذا بأبى الفتح الى تحريضه الجند ضد الصاحب ، فنصحه مؤيّد الدولة بالتوجه إلى أصبهان ، وأسرَّ فى نفسه الانتقام من ابن العميد خاصة أنَّه كان يمالئ ابن عمه عز الدولة ضد أخيه عضد الدولة ، ثم كان ماكان من نكبة أبى الفتح على يد عضد الدولة .

ويهمنا فى هذا الصدد الفترة التى وزَرَ فيها أبوالفتح لركن الدولة خلفاً لأبيه أبى الفضل ، والسؤال هو هل اتصل أبوحيان التوحيدى بالوزير أبى الفتح بن العميد بالرّى. وهل كان ابن العميد هذا أحد الوزيرين اللذين تحدَّث عنهما أبوحيان فى كتابه (مثالب الوزيرين) ؟ بعد هذا التقصّى والاستقراء يمكن القول بأن الرأى الراجح أن أباحيان قد قصد أباالفتح هذا وأنه هو أحد الوزيرين المعنيين في كتابه ، ويجئ هذا الرأى مناقضاً لما رآه ياقوت الحموى إذْ ذكر أنه أبوالفضل بن العميد ، ونقل عنه من جاءوا بعده كابن خلكان والسيوطى والسندوبى .

وقد قدمنا فى المقدمة الأسباب التى ترجِّح أنه أبوالفتح لا أبا الفضل ، ونتساءل لماذا وصفه أبوحيان بصفات قبيحة على غير الحقيقة ما الذى دعاه إلى هذا إذْ قال فيه «وكان مع هذا أشدَّ الناس [1] ادعاء لكل غريبة ، وأبعد الناس من كل قريبة ، وهو نَزْر المعانى شديد الكلف باللفظ ، وكان أحسد الناس لمن خط بالقلم ، أو بلغ باللسان ، أو فلجَ فى المناظرة ... ولقد لقِىَ الناس منه الدواهى لهذه الأخلاق الخبيثة ، ولقد ذكرتُ ذلك فى الرسالة » .

ويقول مرة أخرى « وهذا بالأمس على بن محمد ذو الكفايتين اغترَّ بشبابه ، ولها عن الحزم ، والأخذ بما كان أولى به ، وظنَّ أن كفايته تحفظه ، ونسبه يكنفه ... ومشَى فعثَر ، وراب فخثر ... » ونقول : لماذا يذمُّ الرجل ، ويؤلف فى ثَلْبه كتاباً وقد شهد له

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى - مرجع سابق جـ/١ ص ٤٧

رجال ثقات شهدوا بنبله وكرمه وحزمه وعزمه ؟ لا أظنُّ أنه قد ذمه كما ذم الصاحب ابن عباد إلا حسدا ومقتاً .. وصدق الشاعر إذْ يقول :

وعين الرضــا عن كلِّ عـــيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّــخطِ تُبـدى المسـاويا

ولايقدح فى مكانة أبى الفتح أيامُ لهوه ومراحه ، ولايقلِّل من شأنه ماقال عنه ابن مسكويه فى سِنيِّ شبابه ، والدكتور الحوفى ربَّما وافقه فى أن أبا الفتح كان مغروراً وبخيلا وماجنا ، وصاحب لهو وصيد وشراب أو أنه حسود ظالم ، لكن من المحتم على الناقد التريث قبل إصدار مثل هذا الحكم حتى يستقصى كل الجوانب وكل الآراء . ثم إنه ماكان ينبغى أن يأخذ بقول مسكويه الذي جاء فيه « كان أبوه أبوالفضل بن العميد يغضب من فعله ، ويلومه ، حتى لقد مات برماً به متشائماً على آل العميد من فَعْلاته» وإذا رجعنا إلى صاحب [1] يتيمة الدهر نجده يقول غير ذلك « ومن طُرف أخبارهِ (أى ابى الفتح) ، ما حدثنيه أبوجعفر الكاتب، وكان أبوبكر الخوارزمى يدعوه القُمْغَدى . لكونه قُمىَّ المولدَ بغدادى المنشأ ، وكان أبوجعفر هذا من حاشية أبوالفتح فترامت به الحوادث بعده الى نيسابور ، قال « كان الأستاذ الرئيس (أى والده أبوالفضل) قد قيَّض جماعة من ثقاته فى السرِّ يشرفون على الأستاذ أبى الفتح فى منزله ومكتبه ، ويشاهدون أحواله ، ويَعُدُّون أنفاسه ، ويُنهون إليه جميع ما يأتيه ويذره ، ويقوله ويفعله ... فرفَع إليه بعضُهم أن أبا الفتح اشتغل ليلة بما يشتغل به الأحداث المترفون ، من عقد مجلس الأنس واتخاذ الندماء ، وتعاطى مايجمع شمل اللهو فى خُفية شديدة واحتياط تام وأنه كتب فى تلك الحالة رقعة الى من سمَّاه لى أبوجعفر . ونَسِيتُ اسمه فى استهداء الشراب .... فدسَّ الأستاذ الرئيس [2] إلى ذلك الإنسان مَنْ أتاه برقعة أبى الفتح الصادرة إليه فإذا فيها بخطِّه

« بسم الله الرحمن الرحيم . قد اغتنمتُ الليلة – أطال الله بقاءك ياسيِّدى ومولاى – رقدةً من عين الدهر ، وانتهزْت فيها فرصةً من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فإن لم تحفظ علينا النظام ، بإهداء المُدام ، عُدْنا كبنات نعشٍ والسلام » .

فاستُطير الأستاذ فرحا وإعجابا بهذه الرقعة البديعية ، وقال : الآن ظهر لى أثر براعته ، ووثقت بجَريه في طريقى ، ونيابته منابى ، ووقَّع له بألفى دينار » .

(١) المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٢ .

ومهما يكن موضوع الحديث فإن الهدف من سوق هذه القصة هو التأكيد على أن أبا الفضل لم يَمُتْ ساخطاً على ابنه ، ولم يكن بينهما ما يُوجب نبذه ، ولعلك تدهش إذا سُقت إليك بعض الأشعار التى قالها أبوالفتح فى الإشادة بوالده منها تهنئة بعيد النيروز :

أبشِـرْ بنيروزٍ أتاك مبشِّراً ... بسعادةٍ وزيادةٍ ودَوام

واشرَبْ فقد حلَّ الربيعُ نقابَه ... عن منظرٍ متهلِّلٍ بسَّام

وهديتى شعرٌ عجيبٌ نظمه ... ومديحُه يبقى على الأيام

فاقبلْه واقبل عذر مَن لم يستطعْ ... إهداء غيرَ نتيجةِ الأفهام

وإلى والده أيضاً من قصيدة يقول فيها

أَفِضتْ عقودٌ أم أُفِيضَتْ مدامعُ ... وهذى دموعٌ أم نفوسٌ هوامعُ

على المُلك قوَّامٌ وللدين حافظٌ ... وللمال وهَّاب وللجار مانعُ

أسودٌ ولكنَّ الحرابَ عرينُها ... شُموسٌ ولكنَّ الصفوفَ مطالعُ

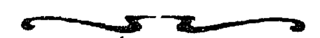
اشاحُوا وماتَنَحُّوا ونَابوا ومانبَوا ... وكان لهم تحتَ المنايا مناقعُ

الخلاصة أن أبا حيان كان ساخطاً على الدنيا وما فيها ومن فيها ، فلم يرضَ لا بالقليل ولا بالكثير ، لأن الشؤم والفقر قد ألبساه حلة آلى ألاَّ يخلعها أبداً ، ووضعا على عينيه منظاراً لايرى الأشياء إلاَّ من خلاله . ويلاحظ أن أبا حيان قد سار على ماسار عليه مسكويه في التنقيص من شأن أبى الفتح ومن ذلك ماذكره الدكتور الحوفى « ونقل ياقوت عن مسكويه أن ابا الفتح كان فيه [1] – مع رجاحته وفضله فى أدب الكتابة وتيقظه وفراسته -- نزَق الحداثة ، وسُكر الشباب ، وجُرأة القدرة ، فأجرى أمره على ماتقدم من إظهار الزينة الكثيرة ... حتى خرج عن حد القصد إلى الإسراف ، فجلب عليه ذلك ضروب الحسد من السلاطين وأصحاب السيوف والأقلام .... فأنكر عليه هذا الفعل عُضد الدولة ومؤيد الدولة ابنا ركن الدولة ، وكتَّابُهما ثم سائر مشايخ الدولة » . ولانريد أن نعقّب على ذكر ابنى ركن الدولة ومافعلاه به بعد وفاة أبيهما .

ثم إنَّ أبا حيان نفسه قد اعترف لأبى الفتح بالعلم وإعزاز الأدباء وإجزال العطاء لهم حينما رجع إلى بغداد فلم يهضم أبا الفتح حقه أو يتجاهل عن مآثره ، وحينما

(١) الدكتور / أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى – مرجع سابق الجزء الأول / ٤٩ .

سـأله الصـاحب عن ابن العـمـيـد - أبى الفـتح - مـدحـه بكرمـه وتقـديم أهل العلم واختـصـاصـه بأرباب الأدب ، وأنه أهدى أباسـعيد السيرافى كذا وكذا ، ووهب لأبى سليمان المنطقى كذا وكذا . وهذا الاعتراف بناقض كل مانسبه إليه من مساوئ مما يؤكد أن أباحيان كان ناقما على كل شئ حتى على نفسه التى بين جنبيه فمهما وصله ابن العميد بعطايا فإن ذلك لم يغيِّر منْ دخيلة نفسه .



ثانيا : الصاحب بن عباد

نشأته وثقافته :

هو الكاتب الوزير والأديب الذائع الصِّيت إسماعيل بن عباد بن عباس ، أحد أعلام الكتابة الديوانية فى بلاد المشرق [1] ، لقِّب بالصاحب لأنه صحب الملك مؤيِّد الدولة البويهى منذ حداثته ، وقيل لأنه صحب أبا الفضل بن العميد وتتلمذ على يديه ، ولد بطالقان إحدى بلاد الديلم المشهورة سنة ٣٢٥ هـ فى خلافة الراضى العباسى ، فى الوقت الذى ظهرت فيه دولة بنى بويه فى مشرق العراق .

نشأ فى أصبهان ، وفيها تلقن فى صباه مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، وحين صار يافعا رحل إلى مدينة الرى - عاصمة البويهيين - وأخذ العلم والمعرفة من نوابغ المشرق وأعلامه ، وفيها التقى بجهابذة الكتابة المشهورين فى القرن الرابع - والتحق بخدمة الأستاذ الرئيس أبى الفضل بن العميد وزير ركن الدولة ، ورئيس ديوان الكتابة فى الرى ، فاتخذه ابن العميد مؤدِّبا للأمير مؤيد الدولة بن الملك ركن الدولة البويهى . وقضى شطرا طويلا من حياته مع ابن العميد ، شهد فيه المجالس الأدبية التى كان يقيمها للعلماء والأدباء والفلاسفة فأفاد من مجالسه وأخذ عنه أصول صناعة الكتابة .

وفى أثناء هذه الفترة كان يتردد على بغداد ويلتقى بأعلام اللغة والنحو كأبى سعيد السيرافى وأبى بكر مقسم صاحب ثعلب ، واستطاع أن يحصِّل الكثير من علوم الأدب، وهى العلوم التى لابد منها لكل كاتب بارع يريد أن يتسم بزعامة الأدب ورئاسة الكتابة فى عصره ، فالتقى هناك بأبى سعيد السيرافى وقد هيأت له هذه البيئة الثقافية أن يكون كاتبا حصيفا ، وأن يقرض الشعر على عادة كتَّاب القرن الرابع .

ولم تكن ثقافته مقصورة على ما أخذه عن ابن العميد من صناعة الكتابة ، أو ما أفاده فى رحلاته إلى بغداد من علوم اللغة ، بل أضاف إلى ذلك ما اكتسبه من ثقافة دينية شيعية ، ذلك ان بلاد إيران قد اتخذت الشيعة مذهباً منذ سيطر عليها البويهيون، كذلك اكتسب من تلك البيئة ثقافة فى علم الكلام والمناظرات وطرق الجدال والحوار وهى طرق المعتزلة فى تثبيت مذهبهم ، فالصاحب بن عبَّاد إذنْ شيعى معتزلى وكاتب شاعر واضح الثقافة .

---

(١) الدكتور حامد حفنى داود - الآداب الاقليمية ص ٤٤ ، ٥٥ .

حياته السياسية :

وقد بدأحياته السياسية بالكتابة لمؤيِّد الدولة بن بويه منذ كان أميراً ، وحين قسَّم الملكُ ركن الدولة المملكة بين أولاده في عام ٣٦٤ هـ كانت الرّى وأصبهان من نصيب مؤيد الدولة ، فارتقى الصاحب بذلك من كاتب أمير إلى منصب وزير للملك مؤيد الدولة، وحين مات ركن الدولة عام ٣٦٦ هـ حدث بينه وبين أبى الفتح بن العميد وزير ركن الدولة عداء انسحب الصاحب على أثره إلى أصبهان ، ثم مالبث مؤيد الدولة أن قبض على ابن العميد وأودعه السجن إلى آن قُتل على يدى أخيه عضد الدولة ، وأعاد الصاحب بن عباد إلى دست الوزارة ، واستمر اخلاص الصاحب وولائه للملك المؤيِّد فظل وزيره ورئيس ديوانه إلى سنة ٣٧٣هـ . وفى خلال هذه المدة كان الصاحب يُسفِر بين الملك المؤيِّد وأخيه عضد الدولة فى همدان، وبلغ من التدبير ما صار موضع إعجاب عضد الدولة ، فكان هذا الملك كثيرا ما يقول « قد حبيتُ الأمانى ، وأوتيت أقاصىَ المعانى ، ولكنِّى لا أحسد ملكا من الملوك على شئ غير أخى (مؤيِّد الدولة) على أبى القاسم إسماعيل بن عبَّاد .....» .

وحين تُوفى الملك المؤيِّد عام ٣٧٣هـ[١] كان الصاحب موضع استشارة القواد ، ورؤساء الدولة فيمن يخلفه ، فأشار الصاحب بفخر الدولة بن ركن الدولة ملك همذان والدِّينَور ، فضمَّ مُلك أخيه إلى مُلكه وأقر الصاحب فى منصبه حيث الوزارة والصدارة ورئاسة الديوان ، واتخذ الرَّى عاصمة لمملكته ، وظل الصاحب يدير أمور فخر الدولة ويوجه سياسته ويقود جيوشه كما كان يفعل عظماء الوزراء والكتَّاب فى القرن الرابع إلى أن توفى سنة ٣٨٥ هـ بعد مرضٍ أصابه .. ويقول المؤرخون لم يبَّجل أحدٌ فى وفاته كما كان فى حياته غير الصاحب ، فإنه لما تُوفىَ أُغلقت له مدينة الرَّى[٢] واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر مخدومه الملك فخر الدولة وسائر القوّاد وقد غيَّروا لباسهم .

الإقرار بفضله :

يقول صاحب يتيمة الدهر فى الاقرار بفضل الصاحب وعلوٍّ محله فى العلم والأدب "ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علوِّ محله فى العلم والأدب ، وجلال

(١) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٢) الرى مدينة فارسية قديمة كانت قصبة بلاد الجبال ، وكان اسمها الفارسى راغة ومنه أخذ اسمها العربى ، وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلو مترات من طهران

شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر ، لأن همّة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ، ولكننى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وعزة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق .

وكانت أيامه للعَلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرتُهُ محطُّ رجالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ... " . وبعد أن يستطرد الثعالبى فى سرد فضائل الصاحب ، وثبوت قدمه فى الأدب ، وعظم مكانته بين الأدباء والشعراء ، راح يعقد مقارنة بينه وهو الوزير الذى طبّقت شهرته الآفاق وبين هارون الرشيد وهو أشهر خلفاء بنى العباس فضلا وأدباً وكرماً فيقول : "لم يجتمع بباب أحدٍ من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبى نواس ، وأبى العتاهية ، والعتّابى والنّمرى ومسلم بن الوليد ، و أبى الشيص ومروان بن أبى حفصة ومحمد بن مناذر ...

(ومثلما) جمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى وجُرجان (بأعلام) مثل أبى الحسين السلامى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى الحسن البديهى وأبى سعيد الرستمى ... " وبعد أن أورد أسماء كثير من الشعراء والأدباء والعلماء ، استشهد ببيت شعر للصاحب نفسه يطابق حاله مع هؤلاء المُدّاح (ولا أعتقد أن الصاحب كان يصف به نفسه) :

إنَّ خـيـر المدّاحِ من مَـدَحَـتْـهُ ... شـعـراءُ البـلاد فى كلِّ نادى

ما أمكننا الاستشهاد به :

وحيث أن المجال لا يتسع للحديث عن الصاحب بن عباد ، فيمكننا الاستشهاد على فضله بالواقعة التالية - كما رواها الثعالبى [(١)] - " حدثنى عون بن الحسين الهمدانى التميمى . قال كنت يوما فى خزانة الخلَعِ للصاحب (المكان الذى توضع فيه الهدايا المعدّة للتوزيع على المُهدَى إليهم) فرأيت فى ثبت حسباناتها كاتبها - وكان صديقى - يبلّغ عمائم الخزِّ التى صارت تلك الشتوة فى خِلَع الخدم والحاشية . ثمانمائة وعشرين.

---

(١) أبو منصور الثعالبى - يتيمة الدهر - مرجع سابق من ص ١٨١ - ص ١٨٦

قال : وكان يعجبه الخزُّ ويأمر بالاستكثار منه فى داره ، فنظر أبو القاسم الزعفرانى يوما إلى جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخُزوز الفاخرة الملَّونة . فاعتزل ناحية وأخذ يكتب شيئاً ، فسأل الصاحب عنه . فقيل · إنه فى مجلس كذا يكتب . فقال: علىَّ به ، ... فاستمهله الزعفرانى ريثما يكمل مكتوبه ، فأعجله الصاحب ، وأمر بأن يؤخذ ما فى يده من الدرج ، فقام الزعفرانى إليه وقال : أيَّد اللّهُ الصاحب :

اسمعه ممنْ قاله تزدَدْ به ... عَجباً فحُسْنُ الورد فى أغصانه

قال (أى الصاحب) . هات يا أبا القاسم فأنشده أبياتا منها ·

سواك يعُدُّ الغنى ما اقتَنَى ... ويأمره الحِرصُ أن يخزنا

وأنت ابن عبادٍ المُرتجَى ... تعُدُّ نوالَك نيلَ المنى

غَمْرتَ الوَرى بصنوفِ النَّدى ... فأصغُر ما ملكوه الغنَى

وغادرتَ أشعرَهم مفحَماً ... وأشكركم عاجزاً ألْكنا

كسوْتَ المقيمينَ والزائرين ... كُسىً لم يعُدْ مثلها ممكنا

وحاشية الدار يمشون فى ... ضُروبٍ من الخزِّ إلاَّ أنا

فقال الصاحب قرأتُ فى أخبار معنِ بن زائدة . أنَّ رجلاً قال له . "احملنى أيُّها الأمير ، فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية . ثم قال له لو علمتُ أنَّ الله تعالى خلق مركوباً غيرَ هذه لحملتُك عليه ، ونحن قد أمرنا لك من الخزَ بجُبَّة وقميصٍ ودراعة وسراويلَ وعمامةٍ ومنديل ومطْرفٍ ورداء وجوربٍ . ولو علمْنا لباساً آخر يُتَّخذ من الخزِّ لأعطيناكه ، ثم أمر بإدخاله الخزانة ، وصبَّ تلك الخِلَع عليه ، وتسليم ما فضَل عن لبسه فى الوقت إلى غلامه" .

ماذا قال أبو حيان عن الصاحب :

وَفد أبو حيان التوحيدى على الرّى عاصمة مملكة بنى بُويه ، حينما كان يتولى وزارتها الكاتب الشهير الصاحب بن عباد ، وذلك فى زمن الملك مؤيِّد الدولة بن بويه ، وكان أبو حيان آنذاك يطلب منحة الوزير له شأن غيره من الأدباء والشعراء والعلماء ، وقال إنه مكث ببابه[1] ثلاث سنوات (٣٦٧ - ٣٧٠ هـ) دون أن يحظى بشئ حتى ولو

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى جـ ١ - مرجع سابق ص ٥٤

بدرهم واحد « فارقْتُ بابه سنة سبعين (وثلاثمائة) ، راجعاً إلى مدينة السلام (بغداد) بغير زادٍ ولا راحلة ، ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهما واحدا ، ولا ما قيمته درهم واحد » .

وقد جاء على لسان أبى حيان فى مقدمته لكتابه " الإمتاع والمؤانسة " مخاطباً صديقه أبا الوفا المهندس « قلتَ لى [١] - أدام الله توفيقك فى كل قول وفعل وفى كل رأى ونظر - إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرَّى إلى بغداد فى آخر سنة سبعين (ثلاثمائة وسبعين) بعد فوت مأمولك من ذى الكفايتين - نضَّر الله وجهه - عابساً على ابن عباد مغيظاً منه ، مقروح الكبد ، لما نالك به من الحرمان المر ، والصدِّ القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقدع (أى الزجر) المؤلم ، والمعاملة السيئة والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظه ولفظة " .

ويفهم من العشرة السابقة أنه ورد على الرى فى أيام الوزير ذى الكفايتين ثم بعد مقتله أمضى ثلاث سنوات فى بلاط الوزير الشهير الصاحب بن عباد ، وانه طيلة هذه المدة لم يحظَ بما كان يأمله من مدح ورزق حسن ، وقد أجرى هذا الكلام على لسان صديقه أبى الوفاء ، وعدَّد المساوئ التى لحقت به من ابن عباد ، والتى إنْ دلَّت على شئ فإنما تدلُّ على أنه ورد على وزير جافى القلب ، سيئ المعاملة ، متجهِّم الوجه ، ظالم النفس ... ولكنا لا نقرُّ أبا حيان على هذه الصفات التى ألحقها بالصاحب بن عباد - والذى شهد له كل معاصريه بالنزاهة والإنصاف حتى ولو جرى هذا الكلام على لسان صديقه أبى الوفاء ، لأن الصديق لم يكن معه فى تلك الرِّحلة ، ولم يُرسلْ من يتقصى أخبار أبى حيان فى بلاط هذين الوزيرين ، والحقيقة أن هذا الكلام كلامه هو وليس كلام صديقه .

فالصاحب بن عباد الذى حار الثعالبى [٢] بأىِّ عبارة يصف كرمه ونداه، هذا الرجل قد شأى أستاذه أبا الفضل بن العميد فى الحفاوة براغبى رفده وطالبى معونته، وقد ذكر الثعالبى أنه فى صباه حينما كان يتردد على بلاط ابن العميد، هاله أن يرى أستاذه يودِّع أصحابه قبل مجيئ وقت الإفطار فى شهر رمضان ، ولايدعوهم للإفطار معه، ومنعه الحياء أن ينقد أستاذه، فلما أصبح ذا شأن فى بلاط الدولة البويهية لم يترك إنساناً يأتيه فى ذلك الشهر إلا وأوجب عليه الانتظار لمشاركته الإفطار .

(١) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان - ص ٤ ، ٤

(٢) الثعالبى - يتيمة الدهر - مرجع سابق ص ١٨٦

فإذا تأكد لنا بعض خلال ذلك الرجل وسماته فيكون من الصعب التسليم بما يقوله أبو حيان عنه ، وإذا علمنا أن من سمات أبى حيان الإلحاح فى الطلب فلا نستغرب إذا حدَث نفور منه إزاء تكالبه وتزاحمه على العطاء ، فهو على عظمة تفكيره ، وقوة تعبيره، وقدرته الفائقة على تحليل دخائل النفس البشرية ، قد أعجزته نفسه فى تحليلها، ومحاولة علاجها ، فها هوذا فى نهاية كتاب " الإمتاع والمؤانسة " راح يستجدى صديقه أبا الوفاء المهندس بطريقة تتنافى مع مكانته الأدبية ، وعلو كعبه فى الفكر والفلسفة ، يقول « خلِّصنى أيها الرجل من التكفف ، أنقذنى من لبس الفقر [1] ، أطلقنى من قيدِ الضُّر ، اشترنى بالإحسان ، اعتبدْنى بالشُّكر ، استعمل لسانى بفنون المَدْح ، اكفنى مؤونة الغدَاء والعشاء ، إلى متى الكُسَيْرةُ اليابسة ، والبُقَيْلة الذاوية ، والقميص المرقعِ ؟ ... إلى متى التأدُّم بالخبز والزيتون ، قدْ والله بَحَّ الحلْقُ ، وتغيَّر الخلق ، الله الله فى أمرى ، اجبرنى فإننى مكسور ، اسقنى فإننى صدٍ ، اغثنى فإننى ملهوف ، شهِّرْنى فإننى غُفْل ، حلِّنى فإننى عاطِل » نقول أين هذا المستجدى وهذا الاستجداء من قول الحق جل وعلا « للفقراء الذين أُحصِرُوا فى سَبِيلِ الله لا يستطيعونَ ضرْباً فى الأرض[2] يحسَبُهم الجاهلُ أغنياء من التعفف ، تعرفُهم بسيماهم لا يسألُون الناسَ إلحافا » أمَّا صاحبُنا أبو حيَّان فقد ألحفَ أيما إلحاف واستجدى أيَّما استجداء ، مما أزل مكانته العلمية وأساء إلى عزته الأدبية .

فقرات من كتابه مثالب الوزيرين :

على أن نقْدَنا لأبى حيان التوحيدى لايمنعُنا من إيراد بعض الفقرات من كتابه (مثالبُ الوزيرين) وهما أبو الفتح على بن أبى الفضل محمد بن العميد وأبو القاسم اسماعيل بن عباد بن عباس الملقب بالصاحب بن عباد – أولهما كان وزيراً لركن الدولة بن بُوَيْه من سنة ٣٦٠هـ إلى ٣٦٦هـ وثانيهما كان وزيراً لمؤيد الدولة حتى وفاة المؤيِّد من سنة ٣٦٧ إلى سنة ٣٧٣هـ ثم وزيراً لأخيه فخر الدولة إلى أن توفى هذا الوزير فى سنة ٣٨٥هـ.

وقد اتصل أبوحيان بهذين الوزيرين فيما بين سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٧٠ هـ ، وألف عنهما كتابه المذكور ، وفيما يخصُّ الصاحب بن عباد :

---

(١) الإمتاع والمؤانسة – الجزء الثالث ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٢) الآية رقم ٢٧٣ من سورة البقرة .

١ - قال بعد أن رجع إلى بغداد حانقا عليه .

ما ذنبى أن ذكرتُ عنه ما جرَّعنيه منْ مرارة الخيبة[١] بعد الأمل ، وحملَنى عليه من الإخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة ، والوعد المتصل ، والظنِّ الحسن ، حتى كأنَّنى خُصصْتُ بخصاصته وحدى ، أو وجب أن أعامل به دون غيرى .

٢ - وهو فى تناوله للصاحب يعتدل حيناً ، ويتوسط حيناً ، ويسفُّ حيناً .

(أ) فمن اعتداله قوله :

" كان ابن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول [٢]، وأجاد اللفظ ، وكان الصواب غالباً عليه ، وله رفق فى سرد حديث ، ونيقةٍ (تحسين وتوضيح) فى رواية ، وله شمائل مخلوطة بالدماثة بين الإشارة والعبارة ، وهذا شئ عامٌّ فى البغداديين [٣]، وكالخاصٍّ فى غيرهم " .

ومنه قوله :

" حضرتُ مائدة الصاحب بن عباد فقُدِّمت مضيرة (مرقة باللبن الحامض) ، فأمعنْتُ فيها ، فقال لى : يا أبا حيان . إنها تضرُّ بالمشايخ ، فقلت . إنْ رأى الصاحبُ أنْ يدعَ التطبُّبَ على طعامه فَعَل ، فكأنِّى ألقمته حجراً ، وخجِل واستحيا ، ولم ينطق إلى أنْ فرغنا " .

وكذلك قوله .

« طلع ابن عباد علىَّ يوماً فى داره ، وأنا قاعد فى كسر ديوان آكتب شيئا قد كان كادنى به (أى كلفنى به) ، فلما أبصرته (نهضتُ) قائماً ، فصاحَ بحلقٍ مشقوق · أقعدْ ، فالورَّاقون أخسُّ منْ أنْ يقُوموا لنا . فهممتُ بكلام ، فقال لى الزعفرانى الشاعر (تقدَّم الحديثُ عن كرم الصاحب معه) · اسكُتْ فالرجلُ رقيع ، فغلَب علىَّ الضحك ، واستحالَ الغيظ تعجُّباً من خفتهِ وسُخفه ، لأنه قد قال هذا وقد لوى شدْقَه ، وشنَّج أنفه، وأمال عُنقه ، واعترض فى انتصابه . وانتصبَ فى اعتراضه ، وخرج فى تفكك مجنون ، قد أفلت من دير جنون والوصف لا يأتى على كُنه هذه الحال ، لأن حقائقها لاتُدرك إلا باللحظ ، ولا يؤتى عليها باللفظ ، فهذا كله من شمائل الرؤساء ، وكلام الكبراء ، وسيرة أهل العقل والرزانة ، لا والله وَتَرباً (خُسراناً) لمن يقول غير هذا » .

---

(١) أبوحيان التوحيدى للحوفى جـ٢ ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ ، ٧١ .

(٣) لاندرى لماذا خصَّ البغداديين بهذه الصفة مع أن الصاحب لم يكن بغدادى الأصل

(ب) ومن توسطه قوله :

« كان الصاحب كثير المحفوظ[1] ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، وقد نتف من كل أدب شيئاً ، وأخذ من كل فن طَرْفاً ، والغالب عليه كلام المتكلمين والمعتزلة ، وكتابته مهجَّنة بطرائقهم ومناظرتهم ، مشوبة بعبارة الكتاب .

وهو شديد التعصب على أهل الحكمة ، والناظرين فى أجزائها · كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس له من الجزء الإلهى خبر ، وليس له فيه عين ولا أثر .

وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ، ويقول الشعر ليس بزالٍّ (أى ليس بمنحرف) وبديهته غزَّارة ، أمَّا رويته فخوَّارة ، ولا يرجع إلى التاله والرقة ، والرأفة والرحمة ، والناس كلهم يحجمون عنه ، لجرأته وسلاطة لسانه ، واقتداره وبطشه ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بدئ اللسان ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة (الرجوع عن الغضب) قريب الطيرة ، حسود حقود ... وقد قَتَل خلقا ، وأهلك ناساً ... ومع هذا يخدعه الصبيُّ ، ويخلبه الغبىُّ لأن المدخل عليه واسع ، والمأتى إليه سهل » .

(حـ) ومن إسفافه قوله :

« ثم نظر إلى غلام قد بقَل وجهه (أى نبت شعر لحيته) كان يُتَّهم به على الوجه الأقبح ، فالتوى وتفلقل ، وقال : أدْنُ منى يا بنىّ ، كيف أنت ؟ ولم حملت نفسك على هذا العناء وجهك هذا الحسن لا يتبذَّل للشحوب ، ولا يعرض للفحات الشمس بين الطلوع إلى الغروب ، أنت تحب أن تكون بدَلة ، بين حَجَلة ركلة ، تزاح بك العلَّة ، وتُغلَى بك القلَّة ، وتُشفى بك الغُلَّة » .

ويعقب الدكتور الحوفى على كلام أبى حيان هذا بقوله : " ولكنا نستبعد هذا كله لأن أبا حيان ادعاه فى الأحاديث التى استقبل بها ابن عباد الناس الذين خفُّوا للقائه لما رجع مع همذان سنة ٣٦٩ هـ وفيهم القاضى أبو الحسن الهمذانى والزعفرانى رئيس أصحاب الرأى ، وابن القطان القزوينى ، والحنفى العالم الظريف ، وأبوطالب العلوى الشريف [2] ، وأبو خراسان الفقيه الشافعى ، وهؤلاء ذكرهم أبو حيان نفسه فى المستقبلين ، فكيف يجهر أمامهم ابن عباد بما زعمه أبو حيان ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٧١ ، ٧٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

ودفعاً لتجنّي أبى حيان على ابن عباد [1] فيما ذكرنا وفيما لم نذكر ، ننهى الكلام عن ابن عباد ببعض مما ذكره ابن تغرى بردى عنه « وفيها (أى سنة ٣٨٥هـ) توفى الوزير الصاحب اسماعيل بن عباد بن العباس أبو القاسم ، وزير مؤيد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه ، ثم وزَر لأخيه فخر الدولة ، كان أصله من الطالقان ، وكان نادرة زمانه ، وأعجوبة عصره فى الفضائل والمكارم ، آخذ الأدب عن الوزير أبى الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه ، وسمع الحديث عن أبيه ، ومن غير واحد، وحدَّث باليسير ... ولما ولِىَ الوزارة قال فيه أبو سعيد الرستمى .

ورِثَ الوزارة كابراً عن كابرٍ ... موصولةَ الإسناد بالإسنادِ
يَروى عن العبّاسِ عبّادُ وزا ... رتَه وإسماعيلُ عن عبّادِ

ولما مات مؤيد الدولة وتولى السلطنة أخوه فخر الدولة ، أقرَّ الصاحبَ على وزارته ، فعظم أمره أكثر مما كان ، وبقى فى الوزارة ثمانية عشر عاما ، وفتح خمسين قلعة وسلمها إلى فخر الدولة . وكان عالما بفنون كثيرة ، وأما الشعر فإليه المنتهى فيه» .

ثم قال ابن تغرى بردى «وأخبار ابن عباد كثيرة ، وقد استوعبنا أمره فى كتاب (الوزراء) وليس هذا محلِ الإطناب فى التراجم ، سوى تراجم ملوك مصر التى بسببها: صُنِّف هذا الكتاب . ثم بعد ذلك ذكر وفاة أبى الصاحب ، فقال : " وفيها (أى سنة ٣٨٥هـ) توفى أبو الحسن عباد بن عباس والد الصاحب بن عباد المقدم ذكره ، مات بعد ابنه بمدة يسيرة ، وكان فاضلا جليلا ، سمع الحديث ، وصنَّف كتاب (أحكام القرآن) . وقد تقدَّم أن أصلهم من الطالقان ، وهى قرية كبيرة بين قزوين وأبهر ، وحولها عدة قرى ، وقيل : هو أقليم يقع عليه هذا الإسم ، وبخراسان مدينة يقال لها : طالقان غير هذه .



(١) ابن تعرى بروي- النجوم الزاهرة – الجزء الثالث من ص ١٦٩ إلى ص ١٧٢ .

ثالثا : أبو عبدالله العارض
(أو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان)

اتصل ابو حيان التوحيدى عن طريق صديقه أبى الوفاء المهندس ، بوزير صمصام الدولة ابن بويه (فى بغداد) ، وقد أسماه أبو حيان بأبى عبدالله العارض الوزير ، وبالرجوع إلى كتب الأدب وإلى ما حققه الأستاذان: أحمد أمين وأحمد الزين فى مقدمة « الإمتاع والمؤانسة » [1] لأبى حيان يتضح لنا أبا عبدالله العارض هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان .

ولنا أن نتساءل عن هؤلاء الأعلام الذين كانوا سببا فى تأليف أبى حيان لكتاب : «الامتاع والمؤانسة » .

(أ) أبو الوفاء المهندس :

هو الرجل الذى صادق أبا حيان وكان سببا فى اتصاله بالوزير أبى عبدالله العارض أو أبى عبدالله بن سعدان ، والذى دار بينه وبين أبى حيان حوار طويل على مدى سبع وثلاثين ليلة فى شتى الموضوعات ، وقد سجَّله أبو حيان بدقة وأمانة فى كتابه المذكور .

فأبو الوفاء المهندس الذى أوصل أبا حيَّان إلى الوزير العارض والذى طلب منه تدوين كل مادار بينه وبين الوزير فى ذلك الكتاب : هو محمد بن محمد بن يحيى البوزجانى ترجم له ابن النديم (فى الفهرست) وابن خلّكان فى وفيات الأعيان ، وقال عنه الأخير : " إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يُسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس - وهو القيم بهذا الفن يبالغ فى وصف كتبه ، ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ، ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تأليفه عدة كتب ..... وكانت ولادته سنة ٣٢٨ هـ بمدينة بوزجان، وقدم العراق سنة ٣٤٨ وتوفى سنة ٣٧٦ " .

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان ، وقد وصفه ابن سعدان فى جملة مَن وصف من أصحابه . فقال : " وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد عن المؤانسة الطيبة ،

---

(١) الامتاع والمؤانسة للتوحيدى - مرجع سابق ص (هـ) .

والمساعدة المطربة ، والمفاكهة اللذيذة ، والمؤاتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراساني ، واشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بُمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادي إذا تخرسَنَ كان أعلى وأظرفَ من الخراساني إذا تبغدد " .

ويحكي لنا أبو حيان كيف قاده صديقُه أبو الوفاء المهندس إلى مجلس الوزير أبي عبدالله بن سعدان بقوله : " قلت لى - أدام الله [1] تعالى توفيقك فى كل قول وفعل ، وفى كل رأى ونظر - إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرّى إلى بغداد فى آخر سنة سبعين (٣٧٠هـ) بعد فوت مأمولك من ذى الكفايتين - نضر الله وجهه - عابساً على ابن عباد ، مغيظا منه ، مقروح الكبد ، لما نالك من الحرمان المُرِّ ، والصدِّ القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقدع (أى الزجر) المؤلم ، والمعاملة السَّيئة .... فأرعيتك بصرى ، وأعرتك سمعى ، وساهمتك فى جميع ما وقرته فى أذنى بالجزع والتَّوجُّع والاستفظاع والتفجّع ، وضمنت لك تلافى ذلك كله بحاقِّ الشفقة (بصادقها) وخالص الضمير ، ووعدتك صلاح الحال عن ثبات النية ، وصحة العقيدة ، وقلت . أنا أرعى حقك القديم حين التقينا (بأرَّجان) وأنا على باب (ابن شاهويه) الفقيه ، وعهْدَك الحديث حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين (٣٥٨هـ) وأوصلك إلى الأستاذ أبى عبدالله العارض - أدام الله فضله وتأييده [2] - وأخطب لكم قبولا منه ، وتخفيف الإذن عليه ، وامتلاء الطرف بك ، ونيل الحظوة بخدمتك وملازمتك ، وفعلت ذلك كله حتى استكتبك (كتاب الحيوان) لأبى عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفُّرك على تصحيحه ، ثمَّ حضنتُ لك هذه (أى كفلتها لك) إلى يومنا هذا (أى عام ٣٧٣هـ) وهو الوزير العظيم الذى لفتقرت الدولة إلى نظره وأمره ونهيه ، وإلى أن يكون هو المبرم والناقض .... نعم ورتَّبت ذلك ، ولم أقطع عنك عادتى معك فى الاسترسال والانبساط والبرِّ والمواساة ، والمساعدة والمؤاتاة ، والتعصب والمحاماة .

أفكان من حقى عليك فى هذه الأسباب التى ذكرتها ، وفى أخواتها[3] التى تركتها ، كراهة الإطالة بها : أنك تخلو بالوزير - أدام الله أيامه - ليالى متتابعة ومختلفة فتحدثه بما تحب وما تريد ، وتلقى الله ما تشاء وتختار ، وتكتب إليه الرقعة بعد الرقعة ولعلك فى عُرض ذلك تعدو طورك بالتشدُّق وتجوز حدَّك بالاستحقار ، وتتطاول إلى ما ليس لك ، وتغلط فى نفسك ، وتنسى زلَّة العالم ، وسقطة المتحرِّى ، وخجلة الواثق ، هذا

(١) المرجع السابق ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٣) هذا كلام أبى الوفاء لأبى حيان .

وأنت غرٌّ لاهيئة لك فى لقاء الكبراء ، ومحاورة الوزراء ، وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك ، وإلى مرانٍ سوى مرانك ، و لبسة لاتشبه لبستك ..... والعجب أنَّك مع هذه الخِلَّة (أى هذه العيوب) تظن أنها مطويَّة عنى ، وخافية دونى ..... وجهلت آن من قدَر على وصولك ، يقدر على فصولك (أى خروجك) وأن من صعد بك حين أراد ، ينزل بك إذا شاء ، وأن من يحسن فلا يُشكَر ، يجتهد فى الاقتصاد حتى يعذر .

وبعد فما أطيل (عليك) ، ولعل لهب الموجدة يزداد [1]، ولسان الغيظ يغلو ، وطباع الإنسان تحتد ، والنَّدم على ما أسلفتُ من الجميل يتضاعف ، ولستَ أنتَ أوَّلَ من بَرَّ فعقَّ ، ولا أنا أولُّ من جُفِىَ فنَقَّ (تحدَّثَ بما آسداد له من نعم) وهذا فراق بينى وبينك، وآخر كلامى معك ، وفاتحة يأسى منك ، قد غسلتُ يدى من عهدك بالأشنانِ البارقىِّ (مادة تستخدم لغسل الأيدى والثياب) وسلوتُ عن قربك بقلب معرضٍ وعزم حىّ ، إلا أن تُطلعنى طلَعَ جميع ما تحاورتما فى هزله وجدِّه ، وخيره وشرِّه ، وطيبه وخبيثه ، وباديه ومكتوبه ، حتَّى كأنِّى كنتُ شاهداً معكما ، ورقيباً عليكما .... " .

خلاصة حديث أبى الوفاء المهندس لأبى حيان :

١ - بعد آن تمَّ تعريف أبى حيان التوحيدى بالوزير أبى عبدالله العارض عن طريق أبى الوفاء المهندس . راح الأخير يعدِّد فضائله على أبى حيان ، بعد أن رجع من الرِّى إلى بعداد ، عابسَ الوجه مقروحَ الفؤاد ، ناقماً على الصاحب بنْ عباد ، الذى لبث فى بلاطه طالبا عطاياه ثلاث سنوات حتى آخر سنة ٣٧٠ ، فلم يحظ منه بطائل ، كمالم يحظ قبله من سلفه أبى الفتح بن العميد ، فقيَّض الله له هذا الصديق ليُنسيه بؤسه وفاقته ، بتعريفه بوزير صمصام الدولة فى بغداد ، وهو أبو عبدالله العارض .

٢ - دكر له أبو الوفاء أنه كان صادق الوعد حيما قابله فى مجلس ابن شاهويه الفقيه الشافعى الذى تولى القضاء ببلاد فارس - وعده فى ذلك المجلس وكذلك حينما التقيا ببغداد سنة ٣٥٨ بأنه سيعمل على تحسين حاله بدافع الشفقة واخلاص الضمير .

٣ - ثم ذكر بعد ذلك أنه عمل بهمَّة ونشاط حتى جعله ينال الحُظوة بمجالسة أبى عبدالله العارض الذى طلب منه نسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وهو أول عمل كلفه به ذلك الوزير العظيم الذى افتقرت الدولة إلى نظره وأمره ونهيه (كما قال) ولم يقطع أبو الوفاء عونه عنه فى كل أمر يحتاج فيه إليه .

---

(١) المرجع السابق ص ٦ ، ٧ .

٤ – ثم قال له · بعد توضيح هذه الأسباب ، وتلك الأفضال التى ذكرتها والتى لم أذكرها كان من حقى عليك – وأنت الإنسان الذى لا يحسن مجالسة الأمراء والوزراء إلا بعونى ومساعدتى – كان من حقى عليك أن تطلعنى على كل صغيرة وكبيرة ، مما يدور بينك وبين الوزير أبى عبدالله العارض ، وإلا فإنى أستطيع أن أرجعك إلى الحال التى كنت فيها ، والفاقة التى لازمتك .

٥ – ازاء هذا الأمر من تعديد النعم والأفضال لم يكن أمام أبى حيان إلا أن يقول : «أنا سامع مطيع ، وخادم [1] شكور ، لا أشترى سخطك بكل صفراء وبيضاء فى الدنيا (يريد بالصفراء الذهب وبالبيضاء الفضة) . ولا أنفر من التزام الذنب ، والاعتراف بالتقصير ومثلى يهفو ويجمح ، ومثلك يعفو ويصفح ، وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت آمر وأنا مؤتَمر . . هذا وأنا أفعل ما طالبتنى به من سرد جميع ذلك من التفاوض ، فإن أذنْتَ جمعتُه كلَّه فى رسالة تشتمل على الدقيق والجليل ، والحلْوِ والمرِّ .... » .

(ب) الملكُ صمصام الدولة بن بُوَيْه

هو صمصام الدولة المرزبان ، وكنيته أبو كاليجار بن عضد الدولة [2] بن بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمى . وَلِىَ المملكة بعد موت أبيه عضد الدولة سنة ٣٧٢ (ومات عمه مؤيد الدولة بعد أبيه بمدة يسيرة فى ذات العام) . ومات صمصام الدولة هذا وعمه فخر الدولة فى عام واحد هو عام ٣٨٧هـ ، وبعد أن تقلَّد الملك بموت أبيه لم ينجح أمره وغلب عليه أخوه شرف الدولة ، وقهره وحبسه ، وأخذ بغداد منه ، وأكحله (أى سمل عينيه) فدام فى الحبس إلى أن مات شرف الدولة ، ونزل من الحبس وهو أعمى ، وأنضم إليه أناسٌ ، وسار إلى فارس وملك شيراز ، ووقع له أمور وحروب مع أولاد أخيه أبى نصر بهاء الدولة الذى تولى الحكم بعد أخيه شرف الدولة . وسار فى عام ٣٨٤ من شيراز يريد الأهواز ، فخرج عليه أخوه بهاء الدولة من بغداد ونزل واسطا ، وأرسل جيشا لقتال صمصام الدولة فالتقوا معه وانتصروا عليه فانهزم إلى شيراز وأقام بها إلى أن قتل .

ونحن إذ نذكر صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه فإنما نذكره لأنه استوزر منذ توليه المُلك أبا عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان ، ذلك الوزير الذى استدنى

---

(١) المرجع السابق ص ٧ ، ٨ .

(٢) جمال الدين بن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – الجزء الرابع ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ .

أبا حيان التوحيدى ودار بينهما حوار طويل أصبح تراثا يقرأ ويدرس فى كتاب «الامتاع والمؤانسة» .

(جـ) الوزير أبو عبدالله العارض (أو أبو عبدالله بن سعدان)

هو الرجل الذى استوزره ، صمصام الدولة البويهى سنة ٣٧٣ لما تقلّد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وأبو عبدالله بن سعدان هو الوزير الذى كان سببا فى الصلح بين صمصام الدولة وعمه فخر الدولة بمكاتبته الصاحب بن عباد وزير فخر الدولة سنة ٣٧٤ " وكان ابن سعدان يخاطب الصاحب بن عباد بالصاحب الجليل ، والصاحب بن عباد يخاطب ابن سعدان بالاستاذ مولاى ورئيسى " . وقد جاء فى كتاب ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع " وفيها - أى سنة ٣٧٣هـ[1] - خُلع على أبى عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان خِلَع الوزارة . وكان رجلا باذلا لعطائه مانعا للقائه ، فلا يراه أكثرُ من يقصده إلا بين نزوله من درجة داره إلى زبزبه (نوع من السفن) ومع ذلك فلا يخيِّب طالب إحسان منه فى أكثر مطلبه ... فبسط يده فى الإطلاقات والصلات .. وأحدث من الرسوم استيفاء العُشر من جميع ما تسبب به الآولياء والكتَّاب والحواشى من أموالهم وأرزاقهم " ثم حدث أن تغيرت به الحال ، بسعى الوشاة وطالبى الجاه ، إلى أن أوردوه شر المآل . فيقول أبو شجاع ، وانضاف إلى ضيق خِلقه ما اتفق فى وقت نظره (وقت وزارته) من غلاء سعر ، فتطيرَّت العامة ، ورجموا زبزبه ، وشغّبوا الديلم عليه ، وهجموا على نهب داره ، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردهم " .

وظل ابن سعدان فى الوزارة إلى سنة ٣٧٥ هـ حتى ظهر له خصم عنيد هو أبو القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، فظل يكيد له ، وينصب له الشباك للإيقاع به ، وحدث أن أراد ابن سعدان أن يعيِّن أباه كاتباً لوالدة صمصام الدولة ، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة « إن ابن سعدان قد استولى على أمورك ، وملك عليك خزائنك وأموالك ، فإذا تمَّ له حصول والده مع السيدة جعلنا تحت الحَجْر معك » . وتمت المكيدة، ولم يُعيَّن أبوه ثم قُبِض عليه وأصحابه وأُودعوا السجن ، واستوزر صمصام الدولة هذا الواشى أبا القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، ولم يكتفِ أبو القاسم بمحبس ابن سعدان ، فانتهز فرصة خروج ثائر على صمصام الدولة ، اسمه (أسفار بن

(١) مقدمة كتاب الامتاع والمؤاسنة لأبى حيان ص ح ، ط .

كردويه) يريد خلعه ، فدس أبو القاسم إلي صمصام الدولة ان ابن سعدان متصل بهذا الثائر ، وأن الذى جرى كان من فعله وتدبيره ، وأنه لا يُؤمَن ما يتجدد منه فى محبسه ، فأمر صمصام الدولة بقتله فقتل سنة ٣٧٥هـ " .

اتصال أبى حيان التوحيدى بالوزير ابن سعدان :

لقد أوصل أبو الوفاء المهندس صديقه أبا حيان إلى مجلس الوزير أبى عبدالله الحسين ابن سعدان ، والذى أسماه أبو حيان أبا عبدالله العارض ، وكان بداية معرفته فى أول الأمر نديةً مطمئنة ، فقد كلفه [١] بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ وألف له رسالة الصداقة ، ثم سامره فى مدى أربعين ليلة (المسامرة طبقا لمسميات لياليها أربعون ليلة. إلا أن أحداثها دارت فى سبعٍ وثلاثين ليلة) .

أما كتاب الصداقة والصديق فقد بدأ أبو حيان فيه بطلب من أبى عبدالله بن سعدان قبل أن يتولى الوزارة لصمصام الدولة بن بويه (سنة ٣٧١ كما يقول الدكتور الحوفى.) وبقى فى مسودّته إلى ما بعد عام أربعمائة حيث تنبّه إليه فبيّضه ورتبه .

وأما كتاب " الامتاع والمؤانسة " فكان ثمرة الحوار الذى استمر بين الوزير العارض وبين أبى حيان على مدى سبع وثلاثين ليلة ، حيث تناولا فى كل ليلة موضوعا شائقا يستدعى الغوص فيه وتحليله ، فكان الوزير يطرح السؤال ، وكان أبو حيان يجيبه بالدليل الساطع والبرهان القاطع فى ذات الليلة . وتنتهى بملحة اللقاء وهى نادرة أو حكمة يقولها أبو حيان مما استوعبته حافظته ، من التاريخ والأدب بناءً على الطلب .

هل اتصل أبو حيان بأحد من وزراء عصره بعد أبى عبدالله العارض :

إذا رجعنا إلى كتاب الصداقة والصديق وإلى ما قرره ياقوت الحموى [٢] فى هذا الصدد سنجد أن سبب تأليفه هو رسالة فى الصداقة والصديق بين أبى حيان وزيد بن رفاعة أبى الجبر ، فنقل زيد ذلك إلى أبى عبدالله سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ، قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة ، فقال له ابن سعدان (ويحتمل أن يكون حدوث هذا الحوار بعد تحمله أعباء الوزارة) : «لقد قال لى عنك [٣] زيد كذا وكذا ، قلت : قد كان ذاك ، فقال لى : دوّن هذا الكلام وصِلْه بصلاته . مما يصحُّ عندك لمن تقدَّم ، فإن

---

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى - الجزء الأول مرجع سابق ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) ياقوت الحموى - معجم الادباء جـ/١٥ من ص ٥ إلى ١٦
(٣) المرجع السابق ص ٥ .

حديث الصديق حلو ، ووصف الصاحب مطرب ، فجمعت ما فى هذه الرسالة ، وشُغل عن ردِّ القول فيها ، وبطؤتُ أنا عن تحريرها ، إلى أن كان من أمره ما كان (هنا إشارة إلى المصير الذى آل إليه الوزير)، فلما كان هذا الوقت ، وهو رجب سنة أربعمائة . عثرت على المسودَّة وبيضتُها .

ونستنتج مما سبق أن أبا حيان التوحيدى قد عاش إلى ما بعد عام أربعمائة هجرى، ودليل آخر يؤكد أنه عاش إلى ما بعد هذه السنة ، هو الرسالة التى بعث بها إلى القاضى أبى سهل على بن محمد في رمضان سنة ٤٠٠ هـ ردًا على رسالته التى يلومه فيها على إقدامه على حرق كتبه ، وذكر له أبو حيان الأسباب التى دفعته لحرق تلك الكتب . فهذان الدليلان يؤكدان أن أبا حيان قد عاش إلى ما بعد سنة أربعمائة هجرية . (وإشارته إلى ما آل إليه أمر الوزير يؤكد أنه ابن سعدان) .

ولنا أن نتساءل . هل اتصل أبو حيان بأحدٍ من وزراء عصره بعد اتصاله بابن العميد ثم بالصاحب بن عباد ثم بأبى عبدالله العارض (ابن سعدان)، ونعلم أن هذه الاتصالات قد انتهت بانتهاء وزارة ابن سعدان فى عام ثلاثمائة وخمسة وسبعين ، فكيف كان حال أبى حيان بعد هذا التاريخ . هل تردَّد على بلاط وزراء آخرين عُرفوا بحبٍّ الأدب والأدباء والعلم والعلماء ؟.

بالرجوع إلى كتب الأدب والتاريخ لم نجد ذكراً لأبى حيان بينْ جموع العلماء والأدباء الذين حفَل بهم بلاط الوزراء الذين تلوا ابن سعدان سواء فى بغداد أو فى الرَّى ، وإذا علمنا أن الصاحب بن عباد ظلَّ وزيرا لفخر الدولة بن بويه حتى عام ٣٨٥هـ[1] إلا أن صلة أبى حيان قد انقطعت معه منذ عام ٣٧٠ هـ حيث رجع إلى بغداد ساخطاً عليه ، وألفَّ فى ثلبه وفى ثلب ابن العميد كتاب (مثالب الوزيرين) فلم يكن يجرؤ على العودة إلى بلاطه بعد ذلك . كذلك لانجد لأبى حيان ذكرا من بين المترددين على بلاط الوزير الشهير ، والأديب النحرير ، سابور بن أردشير ، وزير بهاء الدولة ابن بويه ، وذلك فى التاريخ اللاحق لتاريخ اتصاله بأولئك الوزراء .

وهذا يجعلنا نؤكد أن أبا حيان قد انقطع للتأليف ، ونسخ الكتب طيلة هذه الفترة التى تلت عام ٣٧٥هـ إلى حين وفاته فى عام ٤١٤ هـ ، ونؤكد أيضا أنه لزم بغداد ولم يبرحها إلى أن وافاه أجله ، ولعل بؤسه وشقاءه قد حرَماهُ من التأهل لمجالسة أولئك الأمراء والوزراء ، ويقول ياقوت الحموى فى تصوير وضعه هذا .

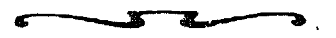
---

(١) الدكتور / حامد حفنى داود – الآداب الاقليمية ص ٤٤ .

" ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولادمجه فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب " .

غير أن ياقوت الحموى قد ذكر فى معجم الآدباء – كما أشار الدكتور الحوفى [1] – أن أبا حيان قال . انه اتصل بالدَّلَجِي بشيراز ، وجمع له كتاب المحاضرات أى بعد اتصاله بابن سعدان الذى انتهى فى سنة ٣٧٥ هـ – ثم تحدث عن إكرام الدلجى له ووفائه بما وعد من مكافأة .

وأغلب الظن أن الدَّلَجِي هو أبو القاسم المعمَّر بن الحسين المُدلجى الذى كان وزيرا لصمصام الدولة بشيراز – مدة سجن وزيره أبى القاسم العلاء بن الحسن من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٣٨٣ هـ – كما تحقق من ذلك الدكتور عبدالرازق محيى الدين نقلا عن الكامل لابن الاثير .



(١) الدكتور / أحمد محمد الحوفى – أبو حيان التوحيدى جـ ٢ ص ٨٨ .

فيلسوف الأدباء
وأديب الفلاسفة

قال الأديب الأريب المؤرخ المحقِّق المدقق ياقوت الحموى عن أبى حيان التوحيدى «وكان (أى التوحيدى) متفننا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظيا يسلك فى سبيله مسلكه ، ويشتهى أن ينظم فى سلكه ، فهو شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البُلغاء ... »

هذا الكلام الذى أبان فيه الحموى مكانة ابى حيان التوحيدى فى دنيا الأدب العربى، ومكانته فى فلسفة المتأدبين يحتاج إلى تفصيل ، ولتحليل هذا الرأى نقول بعون الله تعالى

أولا : المرحلة الثقافية التي وصل إليها القرن الرابع الهجرى :

لقد وصلت الثقافة العربية [1] فى القرن الرابع الهجرى إلى ذروة عالية من النضج والازدهار ، متجاوبة مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية آنئذ ، واستيعابها لثقافات أمم شتى – ناهيك عن ضعف دولة الخلافة في بغداد – فتحمّلت الثقافة العربية لهذا مسئولية كبرى تجاه التقدم البشرى ، ونقل الإنسانية من عصور الجهالات والظلمات إلى عصر النور الإلهى وعظمة التوحيد .

وهذه القمة التى وصل إليها الأدب العربى بصفة خاصة فى القرن الرابع ، والثقافة العربية بصفة عامة جعلت مؤرخى الأدب العربى [2] يقسمونه فى العصر العباسى إلى عصرين كبيرين فى أربع مراحل [3]:

العصر العباسى الأول من عام ١٣٢ إلى عام ٣٣٤ هـ :

وفيه المرحلة الأولى : وتبدأ بعام ١٣٢ هـ وهو العام الذى سقطت فيه الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية . وتنتهى هذه المرحلة فى سنة ٢٤٧ هـ وهى السنة التى قُتل فيها الخليفة المتوكل على الله العباسى عاشر خلفاء بنى العباس : وتتميز هذه المرحلة بغلبة العنصر الفارسى فى سياسة الدولة .

(١) خيرى شلبى – أبو حيان التوحيدى – ربيع الثقافة العربية ص ٥ .
(٢) الدكتور حامد حفنى داود – تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول والثانى
(٣) المرجع السابق .

أما المرحلة الثانية : فتبدأ من عام ٢٤٧ وتنتهى فى عام ٣٣٤ هـ وهو العام الذى تمكن فيه بنو بويه من دخول العراق ، والاستيلاء على بغداد ، والسيطرة على الخلافة العباسية .

العصر العباسى الثانى من عام ٣٣٤ إلى عام ٦٥٦ هـ :

وفيه المرحلة الثالثة : وتبدأ من عام ٣٣٤ وتنتهى فى عام ٤٤٧ هـ وهو العام الذى قويت فيه شوكة دولة السلاجقة الأتراك ، فاستعان الخليفة القائم العباسى بجيوشهم التى يقودها طغرلبك ،وراسله القائم ليكون له عونا على أعدائه البويهيين وغيرهم .

ودخل طغرلبك مدينة بغداد فى عام ٤٤٧ هـ ووقع العراق فى قبضته وزال حكم آل بويه عنها ، بعد هروب أبى الحارث البساميرى البويهى .

أما المرحلة الرابعة . فتبدأ بعام ٤٤٧ وتنتهى فى عام م٦٥٦ هـ وهو العام الذى سقطت فيه الخلافة العباسية تحت حكم أفظع القوى الغاشمة فى عالم الاستيلاء والتدمير ، تلكم هى جحافل التتار الهمجية بقيادة هولاكو خان الزاحفة من شرقى ووسط آسيا والتى اكتسحت فى طريقها كل دول العالم المتمدين آنذاك فى هذه القارة ، إلى أن بلغت بغداد فى عام ٦٥٦ هـ ، وسقطت فى يدها فأعملت السيوف فى رقاب أهلها بلا رأفة ولا رحمة بعد اغتيالها للمستعصم آخر خلفاء بنى العباس .

ما يهمنا من هذا التمهيد :

ويهمنا من هذا التوضيح المرحلة التى يقع فيها القرن الرابع الهجرى ، ومدى ما وصل إليه هذا القرن من تقدم وازدهار ثقافى وهذا القرن فى الحقيقة يقع بين مرحلتين من المراحل السابقة وهما متتاليتين : المرحلة الثانية وهى التى تنتهى فى عام ٣٣٤ ، وأخذ منها الأربعة والثلاثين عاما الأخيرة، والثالثة وهى التى تبدأ بعام ٣٣٤ وتنتهى فى عام ٤٤٧ هـ، ويأخذ منها الستة والستين عاما التالية لعام ٣٣٤ هـ ، وهذا التحديد يجعلنا نتساءل. ماذا كان حال الثقافة بصفة عامة فى ذلك القرن. (من ٣٠١ إلى ٤٠٠هـ) .

ففى بداية هذا القرن نلاحظ **من الناحية السياسية** [١] **غلبة العنصر التركى** ، منذ اغتيال الخليفة المتوكل على الله بأيدى هؤلاء الأتراك ، ثم تنتقل الغلبة منذ سنة ٣٣٤هـ إلى العنصر الفارسى الساسانى وهم بنو بويه ، حينما دخل قائدهم معز الدولة أحمد بن بويه عاصمة دولة الخلافة منتصرا ، وفرض حكمه عليها .

---

(١) المرجع السابق .

كما نلاحظ **من الناحية الثقافية** أن هذا القرن قد اتسم باستيعابه لثقافات أمم شتى، وظهر فى كل اقليم ، أو كل دولة مستقلة عن دولة الخلافة آدابها ذات السمات المميزة ، وظهرالنوابغ فى كل إقليم ، وفى شتى أنواع العلم والمعرفة .وفى هذا الصدد يحدثنا الدكتور حامد حفنى داود فيقول .

« صحيح أن هناك دراسات قديمة [1] فى الأدب ظهرت منذ القرن الرابع ، اقتصر فيها المؤلفون على اقليم معين لم يتعدوه إلى غيره، كالذى عنى به صاحب يتيمة الدهر حين تناول فى كتابه شعراءَ وكتاب الدولة البويهية فى فارس وخراسان ، وبلاد الجبل وما وراء النهر ، ثم الشام ومصر وغيرها إقليما إقليما . وشبيه بذلك ما صنعه صاحب خريدة القصر حين تناول بالترجمة شعراء مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، لكن نظرة هؤلاء المؤرخين من رجال التراجم والطبقات لم تكن تعنى الإقليمية بمعناها العلمى الدقيق وإنما كانوا يقصدون من ذلك - دون تكلف - الترجمة للشعراء والكتاب الذين يعيشون فى بيئة معينة ، وكأن مقصدهم كان من محض التبويب والتقسيم لا النظرة العلمية » .

إلا أن الدكتور حامد حفنى له رأى فى تغلب البويهيين على دولة الخلافة العباسية فيقول « ولاشك أن ظهور هذه الدول الشرقية - ويعنى بها السامانية والبويهية والغزنوية والزيارية - وفى مقدمتها الدولة البويهية التى سيطرت على دار الخلافة وأخضعت الخليفة لسلطانها فى أواسط القرن الرابع - حَوَّل السلطان السياسى والفكرى والأدبى من بغداد إلى الشرق ، حيث مدينة الرَّىّ وأصفهان وعواصم البويهيين، وحيث بُخارى عاصمة السامانيين ... كما تنافسوا فى نشر العلوم والآداب، وكان باعثهم على ذلك - وقد صارت القوة والسلطان فى أيديهم - محاكاة بغداد فى عصرها الزاهر ... وهذا الأمر حملهم على استوزار الكتاب والشعراء المشهورين ، وأن من يقرأ تاريخ الكتَّاب والشعراء فى هذه الأقاليم يلمس بنفسه مدى صحة هذه الحقيقة، فركن الدولة البويهى يستوزر ابن العميد ، وهو عميد كتاب القرن الرابع ، ومؤيد الدولة ثم فخر الدولة من بعده يستوزران الصاحب بن عباد ، أحد اعلام القرن الرابع ، وصاحب المجالس الأدبية المشهورة ، وبهاء الدولة يستوزر سابور بن أردشير الوزير والأديب المشهور ، وحاكم مدينة بُست يستوزر أبا الفتح البستى ... » .

---

(١) د. حامد حفنى داود - الآداب الاقليمية فى العصر العباسى ص ٢٠ .

ويؤكد مؤلف الآداب الأقليمية تسنم بلاد فارس قمة الكتابة فى أكثر من موضع فى القرن الرابع ، فيقول عند الحديث عن النثر وتطوره [١] فى الشام " سار النثر الفنى فى الشام فى نفس الخط الذى سار فيه وسلكه النثر فى فارس والعراق وخراسان ، ولم يكن هناك بد من أن ينسج كتاب النثر الفنى فى الشام على منوال الرئيس أبى الفضل بن العميد مبتكر أسلوب الشعر المنثور والسجع الملتزم ، وهو الأسلوب الذى استنه ابن العميد لنفسه فى أواسط القرن الرابع ، وقلّده الكتّاب فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وكانت الرّى فيه - وهى عاصمة الدولة البويهية - مركز إشعاع لأساليب الكتّاب فى بغداد ودمشق ومصر وقرطبة ، وجميع عواصم العالم الإسلامى فى القرن الرابع .. " .

وكانت هذه الثقافة العربية قد استرعبت الثقافات القديمة والحديثة استيعابا تاما فى ذلك القرن ، فقد استوعبت الثقافة اليونانية والفارسية والهندية والمصرية ، واستطاعت اللغة الغربية أن تكون لغة الثقافة الرفيعة ، وكان من يريد الارتقاء من أبناء عالم ذلك القرن أن يتعلم اللغة العربية أولا ، ليقرأ الثقافة فى مصادرها الأصلية المنقّاة والتى أكسبتها البوتقة العربية الازدهار والمتانة ، ومن هذه المصادر يمكنه تحصيل المعرفة الصحيحة المفيدة .

مكانة أبى حيان التوحيدى بين مثقفى القرن الرابع :

وأبو حيان التوحيدى واحد من عَمَد الثقافة العربية [٢] فى ذلك العهد الزاهر ، حتى ليعتبره بعض المؤرخين الناطق بلسان الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجرى ، « وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لانظير [٣] له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان مع ذلك محدودا محارَفا (محروما) يتشكى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه » .

وقال عنه بعضهم : إنه تلميذ الجاحظ ، وقال : بل إنه الجاحظ الثانى ، لكن الاستاذ الكبير العلامة المصرى الدكتور : أحمد أمين يرى أنه أجزل لفظا ، وأوسع علما ، لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثانى - على ما فيه من ثقافة محدودة - وفى القرن الثانى كانت نشأة العلوم ، وأبو حيان مسجل القرن الرابع ، وقد نضجت العلوم . وشتان بين علم ناشئ وعلم ناضج .

(١) المرجع السابق ص ٨٦ .

(٢) خيرى شلبى - ابو حيان التوحيدى - ربيع الثقافة العربية ص ٥ .

(٣) ياقوت الحموى - معجم الأدباء جـ/٥ ص ٥

وقد اتفق المؤرخون والدارسون [١] على أنه ليس مجرد مسجل لثقافة القرن الرابع الهجرى ، إنما هو صاحب دور جوهرى وخلاق وحضارى ، قام به فى تلك الفترة ، ويرى الدكتور زكريا ابراهيم (كما يقول الأستاذ خيرى شلبى) بأنه بوصفه مفكرا موسوعيا حاول أن يمزج الفلسفة بالأدب ، قدم للجمهور حكمة شخصية تكون فى متناوله ، والتوحيدى – فى رأيه – جمع بين التراث اليونانى من جهة ، والثقافة العربية من جهة أخرى مما أهله للقيام بهذا الدور الحضارى المهم فى عصر كثرت فيه المجالس الأدبية والندوات الفكرية .

وخلاصة القول – بعد أن أوضحنا المدى الذى وصلت إليه الثقافة العربية فى القرن الرابع – أن أبا حيان التوحيدى قد استوعب ثقافته العربية التى تبلورت معها ثقافات أمم شتى وأضاف إلى هذا الاستيعاب تتلمذه على المناطقة الذين نقلوا الفلسفة اليونانية إلى الثقافة العربية ، وبذلك يمكننا أن نردد قول ياقوت : ان ابا حيان هو فيلسوف الأدباء .

ثانيا : نقل الفلسفة اليونانية وتأثر أبى حيان بها :

لقد سبق القول بأنه قد تم نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية فى ذاك القرن ، واشتهر أناس بالترجمة من اليونانية إلى العربية ، كما اشتهروا بتدريسهم المنطق اليونانى ، ومن هؤلاء أبو بشر متى بن يونس القُنائى ، وأبو زكريا يحيى بن عدى المنطقى ، وأبو على اسحاق بن زُرعة ، وأبو الخير بن الحسن بن الخَمَّار ، وقد تتلمذ أبو حيان على هؤلاء جميعا وتأثر بفكرهم بجانب استيعابه للأدب العربى ، وما حفل به من ثروة عظيمة فى علوم اللغة والعلوم الشرعية ، وما أحكمه الكتاب الديوانيون من ألوان البديع والإتقان ، كما تتلمذ فى الفلسفة على أبى سليمان [٢] المنطقى (محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى) وقرأ عليه كتاب النفس لأرسطو ، وسمع منه أراء فى الأدب ، وفيما وراء الطبيعة ، وكان أبو سليمان أكبر علماء بغداد فى الفلسفة والمنطق ، وكان مجلسه حافلا بالعلماء والحكماء ، وكان واسع الاطلاع على فلسفة اليونان .

وكما تأثر أبو حيان بالمنطق اليونانى تأثر أيضا بعلم النحو العربى ، ونقل محاورة طريفة بين فلسفة المناطقة وفلسفة النحويين العرب – اعتماداً على ذاكرته – فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة » وتمثلت هذه المحاورة فى المناظرة التى كان بطل النحويين فيها أستاذه أبو سعيد السيرافى وممثل المناطقة فيها أبو بشر متى بن يونس القنائى

---

(١) خيرى شلبى – مرجع سابق ص ٦

(٢) د. أحمد محمد الحوفى – أبو حيان التوحيدى جـ/١ ص ٣٠

المنطقى ، في مجلس الوزير [1] أبى الفتح ابن الفُرات سنة ٣٢٦هـ . وقد سجَّلها لنا أبو حيان بإتقان وحكمة فى كتابه الذى ألفه بعد عام ٣٧٣هـ . وهذا إن دل علي شئ فإنما يدل على أنه موسوعة جامعة تدعمها حافظة عظيمة الاستيعاب .

مناظرة بين النحو العربى والفلسفة اليونانية

وهذه المناظرة الفلسفية رائعة وعميقة ومتسعة ولا يتسع المجال لا ستيعابها ، ولكن يمكننا أن نلتقط منها نقاطا عابرة، وذلك بتحديد النقاط الأساسية للمناظرة وتبسيط الحوار:

١ – أشعل الوزير ابن الفُرات فتيل الصراع الكلامى [2] بني الرجلين : النحوى أبى سعيد السيرافى والمنطقى أبى بشر متى بن يونس القنائى ، وسط حشد يضم نخبة من أعاظم علماء ذلك العصر .

٢ – أراد الوزير أن يناطح بين علم النحو العربى وهو عريق ، وبين علم المنطق اليونانى وهو وافد على العرب بحكم بداية احتكاك الثقافة العربية بالثقافة اليونانية عن طريق الترجمة ، وكان لعلم المنطق فى ذلك الوقت أنصار ورجال وقصد الوزير من إثارة هذه المناظرة أن يعرف ما هى حدود هذا المنطق اليونانى الوافد قياسا إلى علم النحو العربى الواسع الحدود ، وهو بذلك يريد أن تعكس هذه المناظرة ما لديه من معرفة بأسس النحو العربى التى لاتقل بل ترقى عن الأسس التى يقوم عليها المنطق اليونانى .

٣ – هذه المناظرة تثبت سعة أفق العلماء العرب ، وبعد نظرهم وتعمقهم وإدراكهم للأسس المنطقية للفلسفة قبل أن يدرسوها مستعينين بأساتذتها وأدواتها .

٤ – وردت هذه المناظرة فى الليلة الثامنة من ليالى كتاب " الإمتاع والمؤانسة " ، وقد افتتحها أبو حيان موجِّهاً خطابه إلى صديقه أبى الوفاء قائلا : ثم إنِّى أيُّها الشيخ – أحياك الله لأهل العلم وأحيا بك طالبيه – ذكرت للوزير (أبى عبدالله العارض) مناظرة جرت فى مجلس الوزير ابى الفتح الفضل بن جعفر ابن الفرات بين

(١) الوزير أبو الفتح بن الفرات . استوزره الخليفة المقتدر العباسى فى ذات العام الذى قتل فيه ذلك الخليفة على يد اتباع مؤنس الخادم أحد خواصه الذى تمرد عليه فى عام ٣٢٠ هـ – ولم يظهر ذلك الوزير على الساحة السياسية بعد ذلك إلا أنه أو أخاه أبا القاسم ظهر منذ عام ٣٥٠ ليستوزره ملك مصر أبوحور بن الأخشيد ، ثم استوزر ابنه أبا الفضل كافور الأخشيدى ثم أحمد بن على بن الأخشيد ، وكان أبو الفضل جعفر هذا سبباً لثورة الجند عليه وحدوث الفوضى التي أدت إلي سقوط مصر فى قبضة الفاطميين (انظر أحداث ٣٥٨.٣٥٧ من النجوم الزاهرة) .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى – الليلة الثامنة من ص ١٠٤ إلى ص ١٣٤ .

أبى سعيد السيرافى وأبى بشر متى . واختصرتها . فقال (أى الوزير) أكتب هذه المناظرة على التمام . فإن شيئا يجرى فى ذلك المجلس النبيه بين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام ينبغى أن يُغتنم سماعه ، وتُوعَى فوائده ، فأجاب أبو حيان طلب الوزير . فروى هذه المناظرة عن أبى سعيد السيرافى .

٥ - لما انعقد المجلس [١] . مجلس الوزير الفضل بن الفرات فى عام ٣٢٦ هـ ، وكان فيه الخالدى وابن الاخشاد والكتبى ، وابن أبى بشر وابن رباح وابن كعب ، وأبو عمرو قدامة بن جعفر ، والزهرى وعلى بن عيسى الجراح ، وابن فراس وابن رشيد وابن عبدالعزيز الهاشمى ، وابن يحيى العلوى ، ورسول ابن طغج من مصر، والمرزبانى صاحب آل سامان . قال الوزير الفضل . ألا يُنتَدب منكم إنسان لمناظرة متى (ابن يونس) فى حديث المنطق فإنه يقول لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين إلا بما حويناه من المنطق ، وملكناه من القيام به ، واستفدناه من وضعه على مراتبه وحدوده فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه .

٦ - أحجم القوم وأطرقوا ، ولم ينبِسْ أحد منهم ببنت شفة ، فقال ابن الفُرات : والله . إن فيكم لمن يفى بكلامه ومناظرته ، وكسر ما يذهب إليه ، وإنى لأعدُّكم فى العلم بِحارًا ، وللدين وأهله أنصارًا ، وللحق طُلابا ومنارا ، فما هذا الترامز والتغامز اللذان تجلُّون عنهما ؟ (أى هما أمران لاينبغى أن يكونا من صفاتكم) .

٧ - هنا رفع أبو سعيد السيرافى رأسه فقال : أعْذِر أيها الوزير ، فإن العلم المصون فى الصدر غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الأسماع المصيخة (المنصتة) والعيون المحدقة ، والعقول الجادة ، والألباب الناقدة ، لأن هذا يستصحب الهيبة ، والهيبة مكْسِرَة ، ويجتلب الحياء ، والحياء مغلبة ، وليس البِرازَ فى معركة خاصة كالمصاع فى بقعة عامة (أى ليس المبارزة فى معركة خاصة كالقتال فى حرب عامة) .

٨ - فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد[٢] ، فاعتذارك عن غيرك ، يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار فى نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك .

(١) المرجع السابق من ص ١٠٤ إلي ص ١٣٤ .
(٢) ابو سعيد السيرافى هو الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافى النحوى المعروف ، سكن بغداد وتولى القضاء بها ، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين ، مات فى سنة ٣٦٨هـ.

٩ – فقال أبو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسمه هُجنة ، والاحتجاز عن رأيه إخلاد إلى التقصير ، ونعوذ بالله من زلة القدم ، وإيَّاه نسأل حسن المعونة فى الحرب والسلم ، ثم واجه أبو سعيد أبا بشر متَّى فكان هذا الحوار بل كانت هذه المبارزة الأدبية الفلسفية .

الحـــوار

أبوسعيد : حدثنى عن المنطق[1] ما تعنى به ؟ فإنا إذا فهمنا مرادك فيه ، كان كلامنا معك فى قبول صوابه ، ورد خطئه على سنَنٍ مرضىّ ، وطريقة معروفة .

متى : أعنى به آلة من آلات الكلام يُعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان فإنى أعرف به الرُّجحان من النقصان ، والشائل من الجانح .

أبو سعيد : أخطأت : لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف ، والإعراب المعروف ، إذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل، إذا كنا نبحث بالعقل ، وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن ، فمن لك بمعرفة الموزون أيُّها هو حديد أو ذهب أو شَبَه (نحاس) أو رصاص ، فأراك بعد معرفة الوزن فقيرا إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته ، وسائر صفاته التى يطول عدُّها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادك وفى تحقيقه كان اجتهادك ، إلا نفعا يسيرا من وجه واحد ، وبقيتْ عليك وجوهٌ فأنت كما قال الأوّل :

حفظْـتَ شيئـا وغـابت عنـك أشيـاء

وبـعد : فقد ذهب عليك شئ ها هنا ، ليس كل ما فى الدنيا يُوزن بل فيها ما يوزن، وفيها ما يُكال ، وفيها ما يذرع (يقاس بالذراع) وفيها ما يمسح ، وفيها ما يحرز وهذا وإن كان هكذا فى الأجسام المرئية ، فإنه على ذلك أيضا فى المعقولات المقررة ، والإحساسات ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبه المحفوظ ، والمماثلة الظاهرة ، ودع هذا ، إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها ، واصطلاحهم عليها ،

---

(١) المرجع السابق من ص ١٠٩ إلى ص ١٢٤ .

ومايتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ، فمن أين يلزم التُّرك والهند والفرس والعرب – أن ينظروا فيه ، ويتخذوه قاضيا وحكماً لهم وعليهم ماشهد لهم به قَبِلوه ، وما أنكره رفضوه .

متَّى : إنما لزم ذلك لأن المنطق [1] بحْثٌ عن الأغراض المعقولة ، والمعانى المدركة، وتصفُّح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة ، والناس فى المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة سواء عند جميع الأمم وكذلك ما أشبَهه .

أبو سعيد لو كانت المطلوبات بالعقل ، والمذكورات باللفظ ترجع مع شُعَبها المختلفة ، وطرائقها المتباينة ، إلى هذه المرتبة المبَّينة فى أربعة وأربعة وأنهما ثمانية : زال الاختلاف وحضَر الاتفاق ، ولكنْ ليس الأمر هكذا ، ولقد موَّهْتَ بهذا المثال ، ولكمُ عادة بمثل هذا التمويه ، ولكنْ مع هذا أيضا إذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، أفليس قد لزِمَتْ الحاجة إلى معرفة اللغة ؟

متَّى : نعم .

أبو سعيد . أخطأت : قُلْ بلَى فى هذا الموضع .

متَّى : بلى أنا أقلدك فى متل هذا .

أبو سعيد : أنت إذَنْ تدعونا إلى علم المنطق .. إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية ، وأنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفى بها ؟ وقد عفَتْ منذ زمان طويل وباد أهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها ، على أنك تنقل من السريانية فما تقول فى معانٍ متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه إلى أخرى عربية ؟

متَّى : يونان وان بادت مع لغتها ، فإن الترجمة حفظت الأغراض ، وادت المعانى ، وأخلصت الحقائق .

أبو سعيد : إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت ، وقوَّمت ، ووزنَت وما جزفت (الجزاف : البيع بلا كيل ولا وزن) وأنها ما التاثت وما حافت ، ولا

---

(١) المرجع السابق من ص ١٠٩ إلي ص ١٣٤ .

نقصت ولازادت ، ولا قدّمت ولا أخّرت ، ولا أخلّت بمعنى الخاصّ والعام ، ولا بأخصّ الخاص ولا بأعمّ العام - وان كان هذا لا يكون ، وليس هو فى طبائع اللغات ولا فى مقادير المعانى ٠- فكأنك تقول : لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه [1] ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه .

متّى : لا ، ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة ، والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كل ما يتصل به ، وينفصل عنه ، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ، وفشا ما فشا (ونشا ما نشا) من أنواع العلم وأصناف الصنائع ، ولم نجد هذا لغيرهم .

أبو سعيد : أخطأتَ وتعصّبتَ ، وملت مع الهوى ، فإن علْم العَالَم مبثوث فى العالم ، بين جميع أمم العالم . ولهذا قال القائل

العِلمُ فى العـالم مـبـثـوثُ ونحـوَهُ العـاقلُ مـحـثـوثُ

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من علا جَدَدَ الأرض (آستواءها) ولهذا غلب عِلْمُ في مكان دون علم ، وكثرت صناعة فى بقعة دون صناعة ،وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة ، ومع هذا فإنما كان يصح قولك ونسلم دعواك ، لو كانت يونان معروفة من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفطنة الظاهرة ، والبنية المخالفة ، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدَروا ، ولو قصدوا أن يكذبوا لما استطاعوا .... بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون فى أشياء ويخطئون فى أشياء ... وليس واضع المنطق يونان بأسرها ، إنما هو رجل منهم ، وقد أخذ عمّن قبله كما أخذ عنه من بعده ، وليس هو حجة على هذا الخلق الكثير والجم الغفير ، وله مخالفون منهم ومن غيرهم ، ومع هذا الاختلاف فى النظر ، والبحث والمسألة ، والجواب (صُنع) وطبيعة ، فكيف يجوز أن يأتى رجل بشئ يرفع به هذا الخلاف .. وأنت لو فرّغت بالك ، وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللغة التى تحاورْنا بها ، وتجارينا فيها ، وتدارس أصحابك بمفهوم أهلها ، وتشرح كتب يونان بعادة أصحابها ، لعلمت أنك عنِّى عن (معانى يونان كما أنك غنى عن لغة) يونان .

---

(١) المرجع السابق من ص ١٠٩ إلى ص ١٣٤ .

وها هنا مسألة تقول : إن الناس عقولهم مختلفة ، وانصباؤهم منها متفاوتة :

متّى : نعم .

أبو سعيد . وهذا الاختلاف والتفاوت بالطبيعة أو بالاكتساب ؟

متّى : بالطبيعة .

أبو سعيد : فكيف يجوز أن يكون [(١)] ها هنا شيئ يرتفع به هذا الخلاف (يزول به) الطبيعى والتفاوت الأصلى .

متّى : هذا قد مرَّ فى جملة كلامك آنفا .

أبو سعيد . فهل وصلته بجواب قاطع وبيان ناصع ؟ ودع عك هذا . أسألك عن حرف واحد ، وهو دائر فى كلام العرب ، ومعانيه متميِّزة عند أهل العقل ، فاستخرِجْ أنت معانيه من ناحية (منطقك) منطق ارسطاطاليس الذى تدِلُّ به ، وتباهى بتفخيمه ، وهو (الواو) ما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجهٍ أو وجوه ؟

متى (مبهوتا) · هذا نحو والنحو لم أنظرْ فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقى إليه ، والنحوى بحاجة شديدة إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى(والنحو يبحث عن اللفظ) فإن مرَّ المنطقى باللفظ فبالعَرَض ، وان عثُر النحوى بالمعنى فبالعَرَض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضح من المعنى .

أبو سعيد . أخطأت : لأن الكلام (النحو والمنطق) والنطق واللغة ، واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار ، والعَرْض (والتمنى) والنهى والحض والدعاء والنداء والطلب : كلها من وادٍ واحد بالمشاكلة والمماثلة . ألا ترى أن رجلا لو قال نطق زيد بالحق ولكنْ ما تكلَّمَ بالحق ، وتكلم بالفحش ولكنْ ما قال الفحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح ، وأبان المراد ولكنْ ما أوضح ، أوفاه بحاجته ولكنْ مالفظ ، أو أخبر ولكنْ ما أنبأ : لكان فى جميع هذا محرِّفًا ومناقضاً ، وواضعا للكلام فى غير موضعه ، ومستعملا اللفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره والنحو

(١) المرجع السابق من ص ١٠٩ إلى ص ١٣٤

منطق ، ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة ، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلى ، ولهذا كان اللفظ بائدا على الزمان ، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة ، ولهذا كان المعنى ثابتا على الزمان لأن مستملى المعنى عقل ، والعقل إلهى ، ومادة اللفظ طينية وكل طينى متهافت .

متَّى · يكفينى من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف ، فإنى أتبلَّغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها لى يونان .

أبو سعيد . أخطأت . لأنك فى هذا الاسم والفعل والحرف[1] فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع فى غرائز أهلها . وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والافعال والحروف ، فإن الخطأ والتحريف فى الحركات كالخطأ والفساد فى المتحركات ، وهذا باب (أنت وأصحابك ورهطك عنه فى غفلة ، على أن ها هنا سراً ما علَق) بك ، ولا أسفرَ لعقلك ، وهو أن تعْلَمَ أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها ، فى أسمائها وأفعالها وحروفها ، وتأليفها وتقديمها وتأخيرها ، واستعارتها وتحقيقها ، وتشديدها وتخفيفها ... فمن أين يجب أن نثق بشئ تُرجم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى تعرُّف اللغة العربية أحوجُ منك إلى تعرُّف المعانى اليونانية : على أن المعانى لاتكون يونانية ولا هندية كما أن اللغات تكون فارسية وعربية وتركية ، ومع هذا فإنك تزعم أن المعانى حاصلة بالعقل والفحص والفكر ، فلم يبق إلا إحكام اللغة ، فلِمَ تُزرِى على العربية وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها ، مع جهلك بحقيقتها . . ومع هذا فحدثنى عن الواو ما حكمه ؟ فإنى أريد أن أبيِّن أن تفخيمك للمنطق لا يُغنى عنك شيئا ، وأنت تجهل حرفا واحدا فى اللغة التى تدعو بها إلى حكمة يونان ، ومَنْ جَهِل حرفا · أمكن أن يجهل حروفا ، ومن جهل حروفا جاز أن يجهل اللغة بكاملها .... ويتوهم أنه من الخاصة وخاصة الخاصة وأنه يعرف سر الكلام ، وغامض الحكمة، وخفيِّ القياس ، وصحيح البرهان .

---

(١) المرجع السابق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخلاصة :

ويعد أنْ عجز أبو بشر متّى عن إجابة أبى سعيد السيرافى ، قال ابن الفرات : مخاطباً أبا سعيد : أيها الشيخ الموفّق : أجبْه بالبيان عن مواقع الواو حتى تكون أشدّ فى إفحامه ، وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ، ومع هذا فهو مشنّع به (مشهر به) .

أبو سعيد . للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف ، فى قولك : أكرمت زيدا وعمْرا ، ومنها القسم فى قولك : والله لقد كان كدا وكذا ، ومنها الاستئناف فى قولك خرجت وزيد قائم لأن الكلام بعده ابتداء وخبر ، ومنها معنى رُبَّ التى هى للتقليل نحو قولهم . وقاتم الأعماق خاوى المخترق ، ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله عز وجل (فلمّا أسلما وتلّه للجبين ، وناديناه) أى ناديناه ومنها أن تكون أصلية فى الأسم كقولك [1] : واصل واقد وافد، وفى الفعل كذلك كقولك : وَجِلَ يوْجَل . ومنها الحال فى قوله عز وجل (ويكلم الناس فى المهد وكهلا) أى يكلم الناس فى حال كهولته ، ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر كقولك · استوى الماء والخشبة : أى مع الخشبة .

فقال ابن الفرات (لمتى) : يا أبا بشر أكان هذا فى منطقك ؟

واستمر هجوم أبى سعيد السيرافى النحوى على أبى بشر متى المنطقى بهذا الأسلوب المفحم ، وبطرحه أسئلة فى النحو طالبا من أبى بشر أن يحلها كما يحل المسألة المنطقية ، وبنفس الأسلوب ، فيعجز عجزا تاما ، مما يؤكد لمهاجمه ولمستمعيه أن المنطقى الذى لايتقن نحو لغته الذى هو الأساس فى الوصول للمعانى لا يستطيع أن ينقل المعانى كما هى من لغة أخرى إلى لغته ، وفى هذا الصدد يقول الوزير ابن الفرات موجِّها حديثه لأبى سعيد الذى كان يطرح السؤال ويجيب عنه : ما بعد هذا البيان مزيد، ولقد جلَّ علم النحو عندى بهذا الاعتبار وهذا الإسفار .

والحوار فى جملته طويل وشائق وممتع ، وكان من بين الحاضرين على بن عيسى الرمانى[2] ، سمع الحوار وشهد الصراع ، وشارك فى

---

(١) المرجع السابق .

(٢) هو أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى كان إماما فى العربية وعلاّمة فى الأدب وأستاذا فى النحو بصيراً بالمقالات – معتزليا مات سنة ٣٨٤هـ .

النقاش ، ونقل المناظرة إلى أبى حيان التوحيدى ، الذى نقلها بدوره إلى مجلس أبى عبدالله بن سعدان ، وذكر فى نهاية الحوار أن الوزير ابن الفرات الذى جرى فى مجلسه هذا الحوار قال لأبى سعيد : عين الله عليك أيها الشيخ فقد نديّت أكباداً ، وأقررت عيونا ، وبيّضْتَ وجوها ، وحكْتَ طرازا لا يبليه الزمان ، ولا يتطرق إليه الحدثان .

سؤال   ولى أن أسأل هذا السؤال : ماذا يقال عن (الشخص) فى زمننا هذا إذا تجرأ أو أراد أن يقوِّم جملة نطق بها أحد المسئولين ، فأخطأ فى النحو ... ماذا يكون مصيره ؟

ثم أورد أبو حيان سؤاله لعلى بن عيسى عن سنّ أبى سعيد السيرافى حينذاك ثم سأله عن أبى على الفسوى النحوى . هل كان حاضرا بمجلس ابن الفرات فأجابه : لا كان غائبا ، وحُدِّث بما كان فكان يكتم الحسد لأبى سعيد ، على ما فاز به من هذا الخبر المشهور والثناء المذكور .

ثم قال الوزير أبو عبدالله العارض (ابن سعدان) [1] لأبى حيان عند منقطع هذا الحديث : ذكَّرتنى شيئا قد دار فى نفسى مرارا ، وأحببت أن أقف على واضحه ، أين أبو سعيد (السيرافى) من أبى على (الفسوى) وأين على بن عيسى منهما ، وأين ابن المراغى أيضا من الجماعة ؟ وكذلك المرزبانى وابن شاذان وابن الوراق وابن خَيْويه ؟

ونسوق هذا الرأى . قبل أن نورد ردّ أبى حيان على سؤال الوزير العارض نقول هذا الرأى : إن قدرة أبى حيان فى إجابته على هذا السؤال الذى طرحه الوزير - قدرته تدل على أنه ذو مقدرة فائقة فى وزن أقدار الرجال ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن أبا حيان كما وعى الحوار ونقله بأسلوبه الأدبى الفلسفى فإنه بإجابته عن السؤال السابق بذات الاسلوب يؤكد أنه هو أديب الفلاسفة كما قال عنه ياقوت .

أبو حيان يوضح أقدار الرجال :

فكان من الجواب : أبو سعيد أجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدْخَل فى كل باب ، وأخرج من كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق ، واروى فى الحديث ، واقضى فى الأحكام ، وافقه فى الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفة (أى

---

(١) المرجع السابق .

أوفق رأيا بين الآراء المختلفة) وأظهر أثرا فى المقتبسة ولقد كتب إليه نوح بن نصر - وكان من أدباء ملوك آل سامان - سنة أربعين (٣٤٠هـ) كتابا خاطبه فيه بالإمام ، وسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة ، الغالب عليها الحروف ، وباقى ذلك أمثال مصنوعة على العرب ، شك فيها فسأل عنها (أى نوح السائل) . وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب الوزير البلعمىّ خاطبه فيه (أى خاطب أبا سعيد) بإمام المسلمين ، ضمَّنه مسائل فى القرآن وأمثالا للعرب مشكلة .

وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام ، سأله عن مائة وعشرين مسألة ، أكثرها فى القرآن ، وباقى ذلك فى الروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضوان الله عليهم .

وكتب إليه ابن حِنزابة[1] من مصر كتابا خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، وسأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن السلف . وقال لى الدَّارُقطنى (قال لأبى حيان) سنة سبعين (أى سنة ٣٧٠هـ) . أنا جمعْتُ ذلك لابن حنزابة على طريق المعونة .

وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان على يد شيخنا أبى سليمان (المنطقى) كتابا يخاطبه فيه بالشيخ الفرد ، سأله عن سبعين مسألة فى القرآن ، ومائة كلمة فى العربية، وثلاثمائة بيت من الشعر ، هكذا حدثنى به أبو سليمان ، وأربعين مسألة فى الأحكام ، وثلاثين مسألة فى الأصول على طريق المتكلمين .

قال لى الوزير (أبو عبد الله العارض) : وهذه المسائل والجواب عنها عندك ؟ قلتُ: نعم . قال : فى كم تقع ؟ قلت : لعلها تقع فى ألف وخمسمائة ورقة ، لأن أكثرها فى الظهور . قال : ما أحوجنا إلى النظر فيها ، والاستمتاع بها ، والاستفادة منها ، وأين الفراغ وأين السكون ؟ ونحن كل يوم نُدفع إلى طامّة تنسى ما سلف ، وتُوعد بالداهية ، اللهم هذه ناصيتى بيدك فتولَّنى بالعصمة ، واخْصُص بالسلامة ، واجعل عقباىَ إلى الحُسنى ثم قال (أى الوزير) صِلْ حديثك .

قلت : وأما أبو على (الفسَوِىُّ) فأشدُّ تفردا بالكتاب (أى كتاب سيبويه) وأشد إكبابا عليه ، وأبعد من كل ما عداه مما هو علم الكوفيين ، وما تُجاوز فى اللغة كُتب

---

(١) هو أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات (وحِنزابة هى أم أبيه الفضل) .

أبى زيد ، وأطرافا مما لغيره وهو متقد بالغيظ على أبى سعيد ، وبالحسد له ، كيف تمَّ له (أى لأبى سعيد) تفسير كتاب سيبويه ، من أوله إلى آخره بغريبه وأمثاله ، وشواهده وأبياته (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) لأن هذا شئ ما تمَّ للمبرد ولا للزجَّاج ولا لابن السرّاج ، ولا لابن دُرستُويه مع سعة علمهم وفيض كلامهم . ولأبى علىّ أطراف من الكلام فى مسائل أجاد فيها ولم يأتلِ ، ولكنه قعد على الكتاب على النظم المعروف .

وحدثنى أصحابنا أن أبا على اشترى شَرْح أبى سعيد فى الأهواز فى توجُّهه إلى بغداد سنة ثمان وستين (٣٦٨هـ) - لاحقا بالخدمة المرسومة به ، والنُّدامة (المنادمة) الموقوفة عليه - بألفى درهم ، وهذا حديث مشهور ، وإنْ كان أصحابه يأبون الإقرار به إلا مَنْ زعم أنه أراد النقض عليه وإظهار الخطأ فيه .

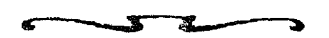
وقد كان الملك السعيد - رضى الله عنه (يقصد به عضد الدولة) - همَّ بالجمع بينهما (بين أبى سعيد السيرافى وأبى على الفسوى) فلم يُقْضَ له ذلك ، لأن أبا سعيد مات فى رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة . وأبو على يشرب ويتخالع ويفارق هَدْىَ أهل العلم ، وطريقة الربانيين وعادة المتنسكين .

وأبو سعيد يصوم الدهر ، ولا يصلى إلاَّ فى الجماعة ، ويقيم على مذهب أبى حنيفة، ويلى القضاء سنين ، ويتألَّه (أى يتعبَّد) ويتحرج ، وغيره بمعزل عن هذا ، ولولا الإبقاء على حُرمة العلم لكان القلم يجرى بما هو خافٍ ، ويخبرنا بما هو مجمجم (مستور) ولكن الأخذ بحكم المروءة أولى ، والإعراض عما يجلب اللائمة أحرى ... (ثم يذكر أبو حيان أن أبا سعيد مع هذا العلم الفياض لا يحسن النَّسخ وإنْ كان حَسَن الخط وكان أبو حيان يتولى النسخ وأبو سعيد يُملى عليه) وكان أبو سعيد بعيد القرين، لأنه يُقرأعليه القرآن والفقه والشروط والفرائض ، والنحو واللغة والكلام والعروض والقوافى والحساب والهندسة والاخبار ، وهو فى كل هذا إما فى الغاية وإما فى الوسط.

وأمَّا على بن عيسى فعالِى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق وعيبَ به ، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق ، بل أفرد صناعة ، وأظهر براعة ،وقد عمل فى القرآن كتابا نفيسا . هذا مع الدِّين الثخين ، والعقل الرزين .

وأما ابن المراغى فلا يلحق بهؤلاء مع براعة اللفظ ، وسعة الحفظ ، وعزة النفس ، وبلل الريق (الاتساع فى الحديث) وغزارة النفس ، وكثرة الرواية ، ومن نظر فى كتاب البهجة له عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف ، ونحل (أضاف) أكثر مما أبذل .

وأما المرزبانى وابن شاذان وابن القرمسينى وابن حَيّْوِيه فهم رواة وحَمَلَة ليس لهم فى ذلك نقط ولا إعجام ، ولا إسراح ولا إلجام .



فيلسوف التوحيد ...
ورائد علم النفس التحليلي

فيلسوف التوحيد :

أبو حيان التوحيدى هو أعظم مفكر إسلامى استطاع فى القرن الرابع الهجرى أن يحيل التراث الفلسفى الى ثقافة حية نامية متطورة ، واستطاع أن ينشر الوعى الفلسفى بين الخاصة وجمهرة العامة على السواء ، مما أثار الدهشة فى أذهان الناس لطريقته المبتكرة الفلسفية الطريفة ، بعرضه جميع القضايا الفكرية ، لاسيما التفكير في وحدانية الله تعالى، وقصة الوجود ، وذلك فى عملية تساؤلية تقوم على طرح المشكلات وإثارة الشبهات والرد عليها بتفكير عقلانى ومتزن ، وقد قدم لنا هذه القضايا في كتبه العديدة مثل . الامتاع والمؤانسة ، والاشارات الإلهية ،والهوامل والشوامل ، والمقابسات وغيرها .

ففى الإمتاع والمؤانسة التى أورد فيها قضايا التوحيد ، فى صورة أسئلة يوجهها إليه فى هذا الصدد الوزير ابو عبدالله العارض ، ويتولى هو الرد عليها بطريقته الفلسفية الأدبية المتأنية فى بعض لياليه التى ضمها ذلك المؤلف العجيب ، فهو من حيث الحوار والمسامرة الليلية حتى الهزيع الأخير ، يشبه ألف ليلة وليلة التى عرفها الأدب العربى قبل أن تعرفها الآداب الأخرى ، وهو من حيث موضوعات الحوار يجمع بين القضايا التفكيرية العميقة والمعالجة الأدبية الممتعة ، وبذلك يختلف هذا المؤلف عن سواه من الكتب الأدبية التى وضعت لدفع الملل ، والانتقال من الواقع المؤلم إلى الخيال الممتع، كالمقامات وألف ليلة وليلة وقصص الرحلات الخيالية .

وقد شهد لأبى حيان بهذه القدرة الفائقة ، بل هذه الموسوعية النادرة ، بل هذه الأفكار الرائدة ، كثير من النقاد ومؤرخى الأدب وفلاسفة الشرق والغرب ومتذوقى الأدب والفلسفة على السواء ، قال خيرى شلبى «الدكتور زكريا ابراهيم ممن فتن[1] بهذا الرجل وقال عنه : إنه رجل فذ شهد له جميع الدارسين - شرقا وغربا - بأنه مفكر موسوعى له إسهامات بارزة فى كل فروع المعرفة والعلوم السائدة فى عصره » .

(١) خيرى شلبى - أبو حيان التوحيدى - ربيع الثقافة العربية - مرجع سابق ص ٣١

كانت مشكلة الذات الإلهية وصفاتها [١] مشكلة المشاكل لدى الخاصة والعامة على السواء . ولقد روى التوحيدى عن أستاذه أبى سليمان (المنطقى) أنَّ رجلين اجتمعا : أحدهما يقول بقول هشام والآخر بقول الجواليقى ، فقال صاحب الجواليقى لصاحب هشام : صفْ لى ربك الذى تعبده ، فوصفه بأنه لابديل له ولا جارحة ولا آلة ولا لسان ، فقال الجواليقى · أيسرُّك أن يكون لك ولد بهذا الوصف ؟ قال صاحب هشام : لا ، قال أما تستحى أن تصف ربك بصفة لاترضاها لولدك ؟ فقال صاحب هشام : إنى قد سمعت ما أقول . صف لى أنت ربك .

فقال الجواليقى : إنه جعد قطط فى أتم القامات وأحسن الصور والقوام .

فقال صاحب هشام : أيسرك أن تكون لك جارية بهذه الصفة تطؤها ؟

قال : نعم . قال . أما تستحى من عبادة من تحب مباضعة مثله ؟ وذلك لأن من أحبّ مباضعته أوقع الشهوة عليه .

ويعلق التوحيدى على مثل هذه المناقشة بقوله : إنه لو كان (لدَى كلٍّ منهما) دين لما خطر مثل هذا الكلام على الأذهان ، ولما نطق به لسان ، وكان التوحيدى مقتنعا باستحالة وصف الذات الإلهية ، وذلك لأن الله الذى لاسبيل للعقل أن يدركه أو يحيط به أو يحسه وجدانا : أولى وأحرى أن يُمسَك عنه عجزا واستخذاءً وتضاؤلا واستعفاءا .. فعلى هذا قد وضح أن الصَّمت فى هذا المكان أعَودُ على صاحبه من النطق ، لأنَّ الصمت عن المجهول أنفع من الجهل بالمعلوم ، والتظاهر بالعجز فى موضعه كالاستطالة بالقدرة فى موضعها . وليس للخلق من هذا الواحد الأحد إلا الأنيَّة والْهويَّة (الشعور بوحدانيته) فأما كيف ولِمَ وما هُو فإنها طائرة فى الرياح .

وفى كتاب الهوامل والشوامل[٢] " يقول واحد من المتصوفة . إن أعجب الأشياء بعيد لا يجحد ، وقريب لايشهد ، وهو الحق الأوحد " ويعلق التوحيدى على هذه العبارة بقوله : وعلى ذكر الله تعالى ، بِمَ يحيط العلم من المشار إليه لاختلاف الإشارات والعبارات ؟ أهو شئ يلصق بالاعتقاد ، أم هو مطلق لفظ بالاصلاح ؟ أم هو إيماء منسوب إلى صفة من الصفات مع الجهل بالموصوف ، أم هو غير منسوب إلى شئ بعرفان ؟ فإن كان منعوتا بنعت فقد حصره الناعت بالنعت ، وان كان غير منعوت ، فقد

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ ، ٣٤ .

استباحه الجهل ، وأزحمه المعدوم ، ولابد من الإثبات والنفى على المثبت والنافى ، فقد ثبت إذنْ كل إثبات ونفى ، فإن كان سابقا على هذه الألفاظ ، وجميع هذه الأغراض فما نصيب العارف ؟

وينسب التوحيدى إلى أستاذه أبى سليمان المنطقى ، أنه ذهب إلى القول بأنه لا ينبغى أن يطلق على البارى أنه موجود ، وحجة أبى سليمان فى ذلك أنه لما كان الموجود يقتضى المُوجد بالضرورة ، والموجد يقتضى الموجود لامحالة ... فإن الرباط قائم والتعلق بيِّن . والله تعالى يجلُّ عن هذه الرتبة ، لأنه لاموجِدَ له ، ولو كان له موجد لكانت مرتبة الموجد فوق مرتبة الموجود بدلالة سائر الأسماء والصفات .

ثم يضيف أمَّا من أشار إلى الذَّات فقط بعقله البرئ السليم من غير تورية باسم ، ولا تحلية برسم ، مخلصا مقدسا ، فقد وفى حق التوحيد بقدر طاقته البشرية ، لأنه أثبت الأنية (الوحدانية) ، ونفى الآبنية ، والكيفية وعلا بهِ عن كل فكر وروية .

صفات السمع والعلم والبصر والحياة والقدرة :

يروى التوحيدى أنه سمع يوما سائلا يسأل : مابال أصحاب التوحيد لا يخبرون عن البارى ولا بنفى الصفات ؟ فقيل له : بيِّن قولك وابسط فيه إرادتك . قال إن الناس في ذكر صفات الله تعالى على طريقتين : فطائفة تقول : لاصفات كالسمع والعلم والبصر والحياة والقدرة والحياة ، لكنه مع هذه الصفات موصوف بأنه سميع بصير حى قادر عالم . وطائفة قالت : هذه أسماء [1] لموصوف بصفات هى العلم والقدرة والحياة ولابد من إطلاقها وتحقيقها . ثم إن هاتين الطائفتين تطابقتا على أنه عالم لا كالعالمين وقادر لا كالقادرين ، وسميع لا كالسامعين ، ومتكلِّم لا كالمتكلمين ، ثم عادت القائلة بالصفات تقول على أن له علما لا كالعلوم ، واتكأت على النفى فى جميع ذلك – وكانت الطائفتان فى ظاهر الرأى مثبتة نافية معطية آخذه إلا أن يبين ما يزيد على هذا .

وأبو حيان التوحيدى يميل إلى القول : بأن نفى الصفات عند الطائفة الأولى يفضى فى خاتمة المطاف إلى إثباتها ، فى حين أن إثبات الصفات عند الطائفة الثانية يكادُ يُفضى فى النهاية إلى نفيها ، ويعقب الدكتور زكريا إبراهيم بقوله : فنحنُ إذنْ بين شقىِّ الرحىَ لأننا إما أنْ نقول بنفىٍ مُثبت وأما أنْ نقول بإثبات نافٍ ، وفى كلتا الحالتين نحن نقول عن الله ما لانعلم .

(١) المرجع السابق ص ٣٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعقيب :

لما كان الأمر يتعلق بصفات الله تعالى . فإن الباحث يرى أنه من التشتيت للعقل والذهن أن يطلب المرء المسلم حقيقة هذا الأمر عند العقل الإنسانى ، فالعقل الإنسانى قاصر وعاجز عن الاحاطة بالصفات الإلهية شأن عجزه عن البحث فى الذات الإلهية . وإلا لما أرسل الله تعالى الرُسل وأنزل عليهم وحيه وكتبه · ليدلوا الناس على خالقهم بقدر ما ترشدهم الى ذلك عقولهم مع محدوديتها وضيق إحاطتها – فالمنطلق العقل والوسيلة للمعرفة الحقة هى العقيدة .

فالله سبحانه وتعالى دَلَّ علي صفاته بذاته قال تعالى : " قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما " فالله تعالى سميع كل شئ سمعاً مطلقا يتسامى عن سمع الخلائق جميعا . فكيف ننفى صفة السمع عنه إذا قلنا إنه سميع لكل شئ لكن سمعه سمع مطلق يسمو عن سمع الخلائق جميعا .

كذلك فإن الله مجيب لدعوة الداعى دون أن ينبس ببنت شفة فى دعائه يقول الله تعالى : " وإذا سألك عبادى عنِّى فإنِّى قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرشُدون " . وهكذا فى غير ذلك من الصفات .

والخلاصة أن المرء المسلم إذا كان يريد بحث مثل هذه الأمور واستمع إلى فلسفة المتفلسفين فيها فلا ينبغى أن يكون بين شقِّى الرحى [1] عند اختلافهم – بل عليه تحكيم الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وذلك عملا بقوله تعالى " وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله " .

عود على بدء :

يؤكد أبو حيان أنه من العبث محاولة وصف الذات الإلهية ، أو التعرُّف على حقيقة الجوهر الإلهى : وحسبنا أن نقول عن الله تعالى . إنّ الكُلَّ بادٍ عنهُ وقائمٌ به ، وموجود له ، وصائر إليه ، وكيف لنا أن نعرف الخالق وأن نصفه سبحانه ونحن نعجز عن معرفة بعض المخلوقات أووصف بعض الموجودات .

وفي كتابه (الإشارات الإلهية) يقول التوحيدى [2] :

«طُلبتَ فلم توجد ، ووجِدْتَ فلم تُعرف ، وعُرِفْتَ فلم تُوصف ، ووُصفتَ فلم تُلْحَقْ ، وشُوهِدْتَ فلم تُدرَك ، وكيف لا تكون كذا وفوق كذا ونحنُ لا نحيط ببعض خلقِك ، على

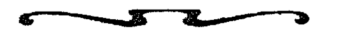
(١) سنؤكد هذا الرأى – بإذن الله تعالى – برأى أبى سليمان المنطقى ذاته فى مناظرة له بين الفلسفة والدين.
(٢) المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

خوافي ما نظن فيه من حكمتك ، وبوادى ما ظهر علينا من قدرتك ؟ وإذا كان عجزُنا عن ذلك يفضحنا عندَنا ، ويردنا علينا ، ويوارينا فينا ، ويُخجلنا منا ، ويعكسنا إلينا – فما قولُنا فيما خلا ذلك مما لا نمَسُّه بمشاعرنا ، ولا نلحقه ببصائرنا ؟ علي أن مشاعرنا بك تُحسُّ ، وبصائرنا بك تلحق ، وكُنا لك ، وإنْ كنْتَ أعرْتنا ذلك ، وكلنا بك وإن كنا مُغترِّين بذلك . ويقول :

اللهمَّ إنَّ إلهيتك بحرٌ لا ساحلَ له ، وطودٌ لاقُلَّةَ له ، وأُفق لاغاية له ، وهممُنا قاصرةٌ عن نعتها إلا إذا وصلْتَنا بالإلهام ، وعجزُنا أظهرُ علينا منْ أن نطمع إلا بالإلمام أو شبيه الإلمام ».

محاولة تفسير بعض الصفات الالهية :

فى إحدى ليالى كتاب " الإمتاع والمؤانسة " [1] سأل الوزير العارض أبا حيان عن معنى قول الله عز وجل " هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم " فقال التوحيدى : إن الإشارة فى الأول إلى ما بدأ الله به من الإبداع والتصوير والإبراز والتكوين ، والإشارة فى الآخر إلى المصير إليه فى العاقبة على ما يجب فى الحكمة من الإنشاء والتصريف ، والإنعام والتعريف ، والهداية والتوقيف ، وقد بان الاعتبار الصحيح أنه عز وجل لمَّا كان محجَّبا عن الأبصار ظهرت آثاره فى صفحات العالم وأجزائه وحواشيه وأثنائه ، حتى يكون لسان الآثار واعيا إلى معرفته ، ومعرفتُه طريقا إلي قصده ، وقصدُه سبباً للمكانة عنده ، والحظوة لديه ، على أنه فى احتجابه بارز ، كما انه فى بروزه محجَّب ، وبيان هذا الحجاب من ناحية الحسّ ، والبروز من ناحية العقل . فإذا طلب من جهة الحسُ وجد محجوبا ، وإذا لحَظ منهجَه العقل وُجد بارزا . وهاتان الجهتان ليستا له تعالى ، ولكنهما للإنسان الذى له الحس والعقل ، فصار بهما كالناظر من مكانين ، ومن نظر إلى شئ واحد بعينه من مكانين كانت نسبته إلى المنظور إليه مفترقة .



(١) المرجع السابق ص ٣٨ ، ٣٩ .

تحليله للسلوك البشري والنزوع النفسي :

السلوك البشرى أمر حيَّر الفلاسفة منذ عهد سقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان ، كما حيَّر الفلاسفة العرب منذ بدء نقل الفلسفة اليونانية إلى البيئة العربية فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، واستكمالها فى أوائل القرن الرابع ، وقد صدق الله جل وعلا فى إبراز هذا السلوك البشرى فى قوله " ونفسٍ وما سوَّاها . فألهمها فجورَها وتقواها " . فهذا الاستعداد الغريزى للعنف أو لجلب الخير ، كيف يمكن إدراكه فى النفس البشرية ، لقد درس أبو حيان قضايا النفس البشرية على أساتذة رواد منهم أبوسليمان المنطقى ، ويحيى بن عدى النصرانى ، وأبو على بن مسكويه ، وأبو سعيد السيرافى ، وفى كتابه الهوامل والشوامل " كثير من الشواهد على معالجته لهذه القضايا .

أهم الموضوعات الفلسفية عند أبي حيان :

قبل أن يتنبه الغرب المسيحى إلى العلوم التى وعاها العرب بقرون عديدة ، كان فلاسفة الإسلام يضعون أيديهم على دخائل النفس البشرية ، ففى هذه البيئة العربية نشأ علم النفس وعلم الاجتماع قبل ان تظهر النظريات الحديثة التى استهدفت الكشف عن عالم النفس البشرية وأبعادها .

وقد كان أبو حيان التوحيدى فى الرعيل الأول من فلاسفة الإسلام ، [١] وكان الإشكال البشرى من أهم الموضوعات الفلسفية التى شغلت فكره زمنا طويلا ، وكانت مشكلة الإنسان مقدمة عنده على غيرها من المشكلات الأزلية .

وفى سبيل الكشف عن مجاهل النفس البشرية كان يخترق الطرق الوعرة للوصول إلى نفس الإنسان ، ليفتح فيها أرضا خصبة ، صالحة للبحث والتأمل الفلسفى ، ويحاول الوقوف على أدق أسرار النفس البشرية ، ويسعى جاهدا بكل علمه ومعرفته لتشخيص ذلك الكائن البسيط المركب فى آن واحد والمسمى بالإنسان .

النفس والطبيعة والزمان :

فى كتابه (الهوامل والشوامل) [٢] يضع النفس فوق الطبيعة بقوله : " ولما كانت النفس فوق الطبيعة ، وكانت أفعالها فوق الحركة ، أعنى فى غير زمان ، فإذن ملاحظتها الأمور ليست بسبب الماضى والحاضر ولا المستقبل ، بل الأمر عندها فى

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

السواء ، فمتى لم تعقها عوائق الهيولى والهيوليات ، وحجب الحس والمحسوسات أدركت الأمور ، وتجلت لها بلا زمان ... فالنفس علاَّمة بالذات ، درَّاكة للأمور بلا زمان، وذلك أنها فوق الطبيعة ، والزمان إنما هو تابع للحركة الطبيعية ، وكأنه إشارة إلى امتدادها، ولذلك اشتق اسم المدة منه ، لأن المدة فُعلة ، والامتداد افتعال ، واصلها واحد من المدِّ .

مراتب الانسان فى العلم :

وأبو حيان له نظرته الثاقبة فى إيضاح العمل المبدع [1] حيث يقول فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة » مراتب الانسان فى العلم ثلاث ، تظهر فى ثلاث أنفس ، فأحدهم ملهم فيتعلم ويعمل ، ويصير مبدأً للمقتبسين منه ، وواحد يتعلم ولا يُلهم فهو يماثل الأول فى الدرجة الثانية أعنى التعلم ، وواحد يتعلم ويُلهم ، فتجتمع له هاتان الخلتان فيصير بقليل ما يتعلم مُكثرا للعمل والعلم بقوة ما يلهم ، ويعود بكثرة ما يلهم مصغيا لكل ما يتعلم ويعمل .

النفس والفن والتذوق الفنى :

من وجهة نظر أبى حيان هناك شروط لصحة التذوق الجمالى [2] ، تنبنى على علاقة الطبيعة بالنفس ، وان الفن هو اقتفاء صور الطبيعة التى تشكلت بفعل النفس ، وان تذوق الفن هو اتحاد النفس بأثر النفس ، مما يتبين معه أن الإدراك الجمالى ما هو إلا انفعال نفسى إزاء فعل النفس فى الطبيعة التى تنظم صور الهيولى ، وهنا نرى النفس فى دورين . دور فاعل يجعل الطبيعة موافقة لرغبة النفس ، ومطابقة لها ، مقتفية لجميع آثارها ، ودور منفعل تقوم به عملية الادراك الجمالى .

*الحقائق السيكولوجية الكبرى :

إذا كان علم النفس الحديث قد كشف حقيقة اللاشعور [3] ، وعن طبيعة العُقد النفسية ، فإن التوحيدى – فى رأى الدكتور زكريا ابراهيم – كما ذكر الاستاذ خيرى شلبى – قد فطن إلى الكثير من الحقائق السيكلوجية الكبرى . وفى كتابه " الهوامل والشوامل " يوجِّه إلى صديقه مسكويه أسئلة كثيرة حول ملاحظات نفسية جديرة بالبحث والتحليل ، كأن يذم الناسُ البخلَ معَ غلبةِ البُخلِ عليهم ، أو يمتدحون الجُود ،

(١) المرجع السابق ص ٢٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٦ .

ـ'ت فيـهم . وكـان يقـرِّر : أن الانسـان حـريص على مـا مُنع ، وأن الرخـيص ـوب فيه ، وإذا ركب الأمير لا يحرص على رؤيته كما يحرص على رؤية الخليفة إذا ـهر .

ويتساءل عن محبة الناس للرياسة ، وما يستتبع ذلك من صراعات خفية وظاهرة مع النفس ومع المجتمع ، ومن تدابير واحتياطات يتخذها الانسان للوصول إلى مركز الرياسة بأى سبب عن جدارة أو بدون وجه حق . ويقول : ما علَّة الانسان فى سلوكه إذا كانت محنته عامة له ولغيره ، وما علة جزعه واستكثاره وتحسره إذا خصته المساءة، ولم تعْدُه المصيبة ؟ ويقول . لم يضيق الإنسان فى الراحة إذا توالت عليه ، وفى النعمة إذا خالفته ؟ وينتبه إلى ما فى سلوك الناس من مفارقات غريبة وراء ظاهرة النفاق الاجتماعى ، وإلى ما ينتاب الناس من اعوجاج مفاجئ فى السلوك .

تحليله للمرض النفسى عند الانسان :

ولربما كان التوحيدى من أوائل الذين انتبهوا [1] إلى ما نسميه اليوم بالمرض ـنفسى ، والمختلف عن المرض الجسدى ، وانه لمن المدهش حقا أن ينتبه التوحيدى فى ـك الوقت المبكر إلى تمييز الصحة النفسية من المرض النفسى ، وأن يشخص ذلك ـضعه على بساط البحث ، وها نحن نراه يحدد ذلك بألفاظ قد تكون معاصرة إلى حد ـبير إذ يقول " إن للنفس أمراضاً كأمراض البدن ، إلا أن فضل أمراض النفس على ـراض البدن فى الشر والضرر ، كفضل النفس على البدن فى الخير " فهو بنظرته ـلعميقة قد ربط المرض النفسى بالشر كما ربط الصحة النفسية بالخير .

ثم يقول " وإذا كان الانسان [2] قد علم أنه مركَّب من شيئين : أحدهما شريف وهو النفس ، والآخر دنئ وهو الجسم ، فاتخذ للدنئ منه أطباء يعالجونه من أمراضه التى تعروه ، ويواظبون عليه بأقواته التى تغذوه ، ويتعاهدونه بأدويته التى تنقيه . وترك أن يفعل بالشئ الشريف مثل ذلك ، فقد أساء الاختيار عن بينة ، وأتى الغلط على بصيرة وأطباء هذه النفوس هم أهل الفضل ، وأقواتها الغازية هى الآداب المأخوذة عنهم ، وأدويتهم المنقية هى النواهى والمواعظ المسموعة عنهم " .

فالتوحيدى يضع طبيب النفس فى مرتبة أعلى من مرتبة طبيب البدن ويصف أطباء النفوس بأنهم أهل الفضل ، ذلك أن مهمَّتهم أكثر تعقيدا من أطباء البدن ، فالذى يعالج

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

القسم الشريف من الانسان – وهو النفس – يكون بالضرورة شريفا . ولكن هل من السهل أن يكتشف الناس أمراضهم ويتعرفوا عليها ؟ .

يرد التوحيدى على هذا السؤال بلسان أستاذه أبى سليمان المنطقى قائلا :

إن كثيرا من أخلاق الإنسان تخفى عليه ، وتطوى عنه ، وذلك جلىٌّ لصاحبه وجاره وعشيرته ، وهو يدرك أخفى من ذلك على صاحبه وجاره ومعامله وقريبه وبعيده ، وكأنه فى عُرض هذه الأحوال عالم جاهل ، ومتيقظ غافل ، وشجاع جبان ، وحليم طائش ، يرضى عن نفسه شيئا هو المغتاظ على غيره من أجله .

ومن الواضح أن أبا سليمان المنطقى هذا كان داهية من الدواهى الكبيرة ، فبهذه الكلمات القليلة شخص مرضاً نفسياً يشكل ظاهرة اجتماعية جديرة بالبحث والنظر العميق . ويزيد التوحيدى هذه النقطة شرحا وبياناً فى كتابه (الإشارات الإلهية) علي هذا النحو :

" يا هذا إذا وجْدت طبيبا يجمع لك بين الحِذْق والنُّصح [1] ، فارفع إليه داءك ، واعرض عليه حالتك ، واصدُقه عما تقدم من غيبك ، فى مطعمك ومشربك ، حتى يصدقك عنك ، ويخبرك منك ، ويتلافاك لك ، ويسقيك ما ينفعك ، ويحميك ما يضرك هذا ان كنْتَ تحسُّ بذاتك ، وتحنُّ إلى شفائك ، وتعلم أنك مطبوب ، ومحتاج إلى قيِّم بك ، ومرفق لك ".

ولنا أن نتصوَّر أن عصر التوحيدى قد عرف الطبَّ النفسى ، بنفس المعنى الذى نعرفه الآن ، فها هو ذا أبو حيان يحضُّ المريض على الذهاب إلى الطبيب ، ويوصيه بأن يكشف لطبيبه عن ذات نفسه ، وعن كل شئ خاص بعاداته ، حتى الأكل والشرب وما إلى ذلك .

ويبدو أن شخصية الحكيم التى كانت قديما تعنى الطبيب ، كانت تقوم بمثل هذا الدور ، فضلا عن معالجتها للبدن ، ولا يتحفظ التوحيدى فى نصيحته للمريض ، فيطلب منه ألا يتحفظ فى كشف دخيلة نفسه للطبيب ، فليس هناك سرٌّ يجب الحفاظ عليه في هذه الحال ، إذ ربما يكون هذا الذى يعتبره المريض سرا ، ويحرص على إخفائه هو السبب فى تفاقم مرضه النفسى .

---

(١) المرجع الاسبق ص ٥٠ .

والواقع كما يرى ابو حيان - أن السر منظور على الظهور من تلقاء نفسه مهما جاهد الانسان فى إخفائه بعدم التكلم عنه ، إن السر يشكل ضغطا علي النفس ، والنفس عادة تضعف تحت وطاته ، ولابد حينئذ أن تنفّس عن نفسها بشكل أو بآخر . وفى كل الحالات سينكشف السر فى النهاية .

نماذج للسلوكيات فى الهوامل والشوامل :

كتاب (الهوامل والشوامل) [1] أثر فريد فى التراث العربى لعلمين جليلين أولهما: أبو حيان التوحيدى ، الذى وجّه إلى الفيلسوف العربى مسكويه (اسمه : أبو على أحمد بن يعقوب بن مسكويه . ويسميه أبو حيان مسكويه) وجّه إليه أبوحيان مجموعة من الأسئلة شملت كافة مظاهر الحياة وهموم الانسان . أطلق عليها الهوامل : أى الابل السائمة المتفرقة ، التى يهملها صاحبها ويتركها ترعى . وأجابه مسكويه بمجموعة أجوبة سماها الشوامل [2] . التى تضبط الإبل الهوامل فجَمَعْتها . أى شوامل مسكويه جمعت وضبطت هوامل التوحيدى (ولعل أبا حيان هو صاحب تسمية هذه الاسئلة وهذه الاجوبة بالهوامل والشوامل) . وقد طبع هذا الكتاب عام ١٩٥١ بتحقيق الأستاذين : أحمد أمين والسيد أحمد صقر رحمهما الله رحمة واسعة .

والكتاب قد يبدو منسوبا فى أسئلته لأبى حيان وفى أجوبته لمسكويه والحقيقة أن مسكويه كان قد أجاب مشافهة على أسئلة أبى حيان ، إلا أنَّ ذاكرة أبى حيان الحافظة اللاقطة ، وقدرته الفائقة على تدوين الهوامل والشوامل جعلته ينقل إلينا هذا الأثر الفريد والفكر السديد ، فى أدق العبارات وأعمق المعانى ، وهذا هو شأن أبي حيان دائما فى بعض مؤلفاته مثل المقابسات والإمتاع والمؤانسة وسيجد القارئ فى نثر أبى حيان الجميل وخصائصه الفريدة ما يثبت أنه عمل من أعماله الخالدة .

وسنقتطف بعض النماذج السلوكية للانسان فى هذه الحياة :

* **غرور العالِم بعلمه** : لم اقترن العُجب بالعالم ، والعلم يُوجب خلاف ذلك من التواضع والرقة ، وتحقير النفس ، والزراية عليها بالعجز ؟

قال أبو على مسكويه رحمه الله . أما العالم المستحق لهذه السِّمة فليس يلحقه العُجب ، ولا يُبلَى بهذه الآفة ، وكيف يُبلَى بها وهو يعرفها وذلك ان حقيقة العُجب هى

(١) الهوامل والشوامل - لأبى حيان . (أخبار الأدب وأبو حيان التوحيدى للدكتور أحمد محمد الحوفى)
(٢) المرجع السابق .

ظن الانسان بنفسه من الفضل ما ليس فيه ، وظنه هذا كذب ، ثم بستشعره حتى يصدِّق به ، فتكون صورتُه صورةَ من يرى رجلاً فى الحرب شجاعا يحمل على الأبطال، ويظهر فضيلة لشجاعته فيكفى العدو ، ويُفنى القِرن وهذا الرائى عنه بمعزل ، ناكصٍ على عقبيه ، ناءٍ بجانبه ، وهو فى ذلك يدَّعى الشجاعة لنفسه ، فهو يكذبها فى الدعوى ، ثم يصير مصدِّقا بها ، وهذا من أعجب آفات النفس وأكاذيبها ، لأجل [1] أن الكذب فيه مركَّب ، فقد يكذب الإنسان على غيره ليصدِّقه الغير فيموِّه نفسه عليه ، فأمَّا أن يموِّه نفسه بالكذب ، ثم يصدِّق فيه نفسَه فهو موضعُ العُجب والعَجب .

ولأجل هذا التركيب الذى عرض فى الكذب ، صار أشنع وأقبح من الكذب نفسه البسيط المعروف ، وإذا كان العالم الفاضل لاتقترن به آفة الكذب – البسيط لمعرفته بقُبحه ، لاسيما إذا استغنى عنه – فهو منَ الآفة المركبة أبعد .

فلذلك قلت : إن العالِم لا يُعجَب . فقد صارت هذه المسألة مردودةً غير مقبولة ، فأمَّا ما يعرض من العَجب لمن يظنُّ أنه عالِمٌ فليس من المسألة فى شئ (أى يخرج عن هذا الحكم ، من تحدثه نفسه بالعُجب عرضا) .

* **الحياء من القبيح** ما سبب الحياء من القبيح ؟ مرة . وما سبب التبجُّح به مرة ؟ وما الحياء أولا ، فإنَّ فى تحديده ما يقرِّب من البُغية ، ويسهِّل دَرَك الحقِّ . وما ضميرُ قول النبىِّ صلى الله عليه وسلم " الحياء شعبة من الإيمان " ؟ . فقد قال بعض العلماء. كيف يكون الحياء– وهو من آثار الطبيعة – شعبةً من الإيمان ؟ يدلُّك : آمَن يُؤمنُ إيمانا . وهناك حَيِىَ الرجُل ، و استحيا فيـ ـيرُ من باب الانفعال أى المطاوعة . وهل يُحمد الحياءُ فى كل موضعٍ أمْ هو موقوف على شأنٍ دون شأن ؟ ومقبولٌ فى حالٍ دون حال ؟

قال أبو على مسكويه – رحمه الله

أما الحياء الذى أحببتَ أن نبدأ به فحقيقتهُ انحصار نفْسٍ مخافة فعل قبيح يصدر عنها . وهو خُلق مُرْضٍ فى الأحداث ، فإنه يدل على أن نفسه قد شعرت بالشئ القبيح، وأشفقت من مواقعته ، وكرهت ظهوره منه ، فعرض لنفسه هذا العارض ، وإحساس النفس بالأفعال القبيحة ، ونفورُها عنها دليل على كرَم جوهرها ومطمع فى استصلاحها جدا .

(١) المرجع السابق

قال صاحب الكتاب فى تدبير المنزل " ليس يوجد فى الصبى فراسة أصح ولا دليل أصدقُ لمن آثر أن يعرِف نجابته [1] ، وفلاحه وقبوله الأدب من الحياء . وذلك لما ذكرناه من علة الحياء وبيَّناه من أمره .

فأمَّا المشايخ فلا يجب أن يعرض لهم هذا العارض ، لأنه لا ينبغى أن يحذَروا وقوعَ فعل قبيح منه ، لما سبق من علمهم ودُربتهم ، ومعرفتهم بمواضع القبيح والحَسَن ، ولأن نفوسهم يجب أن تكون قد تهذَّبت وأمنت وقوع شيئ قبيح منهم . فلذلك لا ينبغى أن يعرض لهم الحياء . وقد بيَّن الحكيم هذا فى كتاب " الأخلاق " . فقد ذكرنا الحياء ما هو وأنه يحسُن للأحداث خاصة ، وذكرنا سبب حسنه فيهم .

فأما المسألة عن سبب التبجح بالقبيح فمسألة غير لازِمة ، لأن هذا العارض سببه الجهل بالقبيح ، وليس يعرض إلا للجُهَّال من الناس ، والدليل على ذلك أنَّهم إذا عَرفوا القبيح أنه قبيح اعتذروا منه ، وتركوا التبجح به . وإنَّما يتبجح حين لا يعلم وجهَ قُبحه ، وهو فى تلك الحال إذا تبجَّح به خرَّج له وجهاً مموَّها فى الحُسن ، فيصير تبجُّحه بالحُسن الذى خرَّجه أو موَّه به . فإذا تيقَّن أنه قبيح ، أو ليس يتموَّه وجه الحُسن فيه – عَدل عنه . واستحيا منه – وتَرَك التبُّجحَ به .. .

فأما قوله عليه السلام " الحياء شعبة من الإيمان " فكلامٌ فى غاية الحُسن والصِّحة والصِّدق ،وكيف لا يكون شعبةً منه ، وإنما الإيمان التصديق بالله عز وجل . والمصدِّق به مصدق بصفاته وأفعاله التى هى من الحُسن فى غاية لا يجوز أنْ يكون فيها وفي درجتها شيئ من المستحسنات . لأنها هى سبب حُسْن كل حَسَن وهى التى تفيض بالحُسن علي غيرها . إذ كانت معدنه ومبدأه ، وإنما نالت الأشياء كلها الحُسن والجمال والبهاء منها وبها .

وكذلك جميع أوامر الله – تعالى – وشرائعه وموجبات العقل الذى هو رسوله الأول ووكيله الأقدم عند جميع خلقه . ومن عَرف الحَسن عرف ضده لا محالة ومن عَرف ضده حذِره وأشفق منه ، فعَرض له الحياء الذى حررناه ولخصناه .

وصديقُك أبو عثمان [2] يقول . الحياء لباسٌ سابغ ، وحجاب واقٍ ، وستر من المساوى ، أخو العفاف ، وحليف الدين ، ومصاحب بالتصنُّع ، ورقيب من العصمة وعين كالئة ، يذود عن الفساد ، وينهى عن الفحشاء والأدناس . وإنما حكيْتُ لك ألفاظه لشغفك به . وحسن قبولك كل ما يشير إليه ويدل عليه .

---

(١) المرجع السابق . (٢) يعنى الجاحظ .

* **الادعاء بالعلم** : ما سبب من يدَّعى العِلمَ وهو يعلم أنه لا علم عنده ؟ وما الذى يحمله على الدعوى ويدنيه من المكابرة ، ويُحوجه إلى السفه والمهاترة ؟

قال أبو على مسكويه – رحمه الله

سبب ذلك محبة الإنسانِ نفسَه ، وشعوره بموضع الفضيلة ، فهو لأجل المحبة يدعى لها ما ليس لها . لأن صورة النفس التى تحسن ، وعليها تحمد ، ومن أجلها تسعد – هى العلوم والمعارف . وإذا عريَتْ منها أو من جُلِّها حصلت له من المقابح ووجوه الشقاء بحسب ما يفوتها من ذلك .

ومن شأن المحبة أن تغطى المساوئ ، وتظهر المحاسن إن كانت موجودة . وتدَّعيها إن كانت معدومة ، فإن كان هذا من فعل المحبة معلوما ، وكانت النفس محبوبة لا محالة ، عرض لصاحبها عارض المحبَّة ، فلم ينكر ادعاء الإنسان لهذه المعارف التى هى فضائلها ومحاسنها ، وان لم يكن عنده شئ من ذلك .

* **الفرح بالجميل** : ما سبب فرح الانسان بخير ينسب إليه وهو فيه ؟ وما سبب سروره بجميل يُذكَّر به وليس فيه ؟

قال أبو على مسكويه – رحمه الله · الجواب عن هذه المسألة هو الجواب عن المسألة قبلها لأن الخير المختص بالنفس هو العلوم الصحيحة ، والأفعال الصادرة بحسبها عنها . فإذا اعترف الانسان بأن نفسه فاضلة خيِّرة . وجب أن يُسرَّ لمحبة وقد شهد له بالجمال والحُسن . وكذلك يُسَّر إن ذُكِّرَ بجميل ليس فيه للعلة التى ذكرنا فى المسألة الأولى .

* **قبح الثناء فى الوجه** :

لِمَ قَبُح الثناء فى الوجه[1] حتى تواطأوا على تزييفه ؟ ولِمَ حَسُن فى المغيب حتى تُمنِّى ذلك بكل معنى ؟ ألأن الثناءَ فى الوجه أشبه الملقَ والخديعة وفى المغيب أشبه الإخلاص والتكرمة . أم لغير ذلك ؟

قال أبو على مسكويه – رحمه الله

لما كان الثناء فى الوجه على الأكثر إعارة شهادة بفضائل النفس . وخديعة الانسان بهذه الشهادة ، حتى صار ذلك – لاغتراره وتركِه كثيرا من الاجتهاد فى تحصيل

(١) المرجع السابق

الفضـائل ، وغرضُ فاعل ذلك احتراز مودة صاحبه إلى نفسه ، بإظهار مودته له ، ومحبته إياه – صار كالمكر والحيلة فذمٌ وعيب .

فأمّا فى المغيب فإنما حَسُن لأنّ قصدَ المُثنى فى الأكثر ، الاعتراف بفضائل غيره ، والصدق عنه فيها . وفى ذلك تنبيه علي مكان الفضل ، وبعثٌ للموصوف والمستمع على الازدياد والإتمام ، وحضٌ على أسبابه وعلله ، وربما كان القصدُ خلافَ ذلك ، أعنى أن يكون غرض المُثنى فى المغيب (التعقُّل) ولفظة العقل شبيهة بذلك لأنه من العقال ، وكذلك الحِجْر .

*** حِلْم البخيل وحدّة الكريم :**

لم خُصَّ البخيل بالحلم ؟ وخص الجوادُ بالحدَّة ؟ وهل يجتمع الحِلْمُ والجُود ؟ وهل تقترن الحدة واللوم ؟ وما حكمهما فى الأغلب فإن الثابت على وجه غيرُ المتقلب إلى وجه آخر.

قال أبو على مسكويه – رحمه الله :

أظنُّك أردْتَ بالبخيل اللئيمَ ؟ وبينهما فروق ، وقد تكلمت على مرادك لأن باقى الكلام يدلُّ عليه . فلعمرى إنَّ ذلك فى الأكثر كذلك ، وإن كان قد ينعكس الأمر فيوجد حليم جواد ، وبخيل حديد ، إلا أنَّ الأولى أن يكون الجواد حديدا ، وذلك أن البخيل هو الذى يمنع الحق من مستحقيه على ما ينبغى فإذا منع البخيل الحقَّ على الوجوه التى ذكرت صار ظالما ، وإذا أحس بهذه الرذيلة من نفسه ، وجب أن يصبر على المتظلمين وهم الذَّامون . لأنه من البيِّن أن البخيل ، إذا ذمَّه الذَّام فإنما يذكره مواقِع ظُلمه[1] ، وإخراج الحق الذى عليه على غير الوجوه التى تنبغى .

وإذا كان الذامُ صادقا والبخيل يعرف صدقه بما يجده فى نفسه فيجب أن يحلم لا محالةَ . لموافقته الصدق ، ولأن النفس بالطبع تسكن عند الصدق ، وتستخذى له ، فالأشبه بالنظام الطبيعى أن يكون البخيل حليما لما ذكرناه .

وربما عرَض ضدَّ ذلك ، وهو إذا كان البخيل جاهلا بالحقوق التى تجب عليه ، على الشرائط التي ذكرناها ، فإذا جهل ذلك لم يعرف صدق من يصدُقه عنه ، ولا ظلمه وانصافه ، فيعرف قبح أفعاله فتعرض له رذيلتان . إحداهما منعُ الحقِّ ، والأخرى جهل بموضع الحقِّ . فربما عرض للجاهل الحدة والنزق ، والعدول عن الحلم ، لما ذكرناه وأخبرنا السبب فيه .

---

(١) المرجع السابق .

فأما قولك لم خُصَّ الجواد بالحدَّة ، فمسألة غير مقبولة ، لأن الجواد ليس يختص بالحدة ، وذلك أن حقيقة الجود هو بذل ما ينبغى فى الوقت الذى ينبغى على ما ينبغى . ومن كانت له هذه الفضيلة لم يُنسب إلي الحدة . لأن الحديد لا يميِّز هذه المواضع ، فهو يتجاوز حد الجود وإذا تجاوز (الحد) سُمِّي مسرفا ومبذرا . ولم يستحق اسم المدح بالجواد .

ولكن لما كانت لغة العرب وعادتها مشهورة فى وضع الجواد موضع السرف والتبذير حتى إذا كان الإنسان فى غاية منهما كان عندهم أشد استحقاقا لاسم الجود – خفى عليهم موضع الفضيلة ومكان المدح . وصارت الحدة المقترنة بالمبذر والمسرف على حسب موضوعهم محمودة . لأنها لا تمكن من الرويَّة ، فيبادر صاحبها إلى وضع الشئ في غير موضعه فيسمى مسرفا عند الحكماء .

وقد تبيَّن فى كتب الأخلاق [1] أن الجُود الذى هو فضيلة وسط بين طرفين مذمومين: أحدهما تقصير والآخر غلوٌ . فأما جانب التقصير من الجود فهو الذى يسمى البخل ، وهو مذموم ، وأما الجانب الذى يلى الغلو فهو الذى يسمى السرف .

والواجب على من أحب استقصاء ذلك أن يقرأه من كتب الأخلاق فإنها تستغرق شرحه .

* **الأسرار وإفشاؤها** : لِمَ تحادث الناسُ على كتمان الأسرار ، وبالَغوا فى أخذ العهد به وحَرِجوا من الإفشاء ، وأكثروا فى التواصى بالطى ، ولم تنكتم هذه المقدمات؟ وكيف فشَت وبرزت من الحُجُبِ المضروبة حتى نثرت في المجالس ، وخُلدت فى بطون الصحف ، وأوعبت الآذان ورويت على الزمان ؟

قال أبو على مسكويه – رحمه الله

قد تبين فى المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين · إحداهما معطية ، والآخرة آخذة ، فهى بالقوة الآخذة تستثيب المعارف ، وتشتاق إلى تعرف الأخبار وبها يُوجد الصبيان أول نشوئهم محبين لسماع الخُرافات ، فإذا تكهلوا أحبوا معرفة الحقائق وهذه القوة هى انفعال وشوق إلى الكمال الذى يخص النفس .

وهى بالقوة المعطية تفيض على غيرها ماعندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالا ، بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس

(١) المرجع السابق

بالذات لا بالعرض . فكل انسان يحرص بإحدى قوتيه على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . ولما كان ذلك كذلك ، لم يكن لينفعل المنفعل ، ولا ينفعل الفاعل لأنهما جميعا للنفس بالذات [1] .

فقد ظهر السبب الداعى إلى اخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاقت بإحدى قوتيها إلى الاستعلام ، واشتاقت بالأخرى إلى الإعلام - لم ينكتم سريته .

وهذا هو تدبير إلهى عجيب ، ومن أجله نقلت الأخبار القديمة ، وحفظت (القصص) قصص الأمم ، وعُنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته .

ولذلك ضرب الحكماء فيه المثل ، وحزموا عليه القول ، وقطعوا به الحكم ، وقالوا : لا ينكتم سر . وإنَّما يتقدم ظهوره أو يتأخر ، وتقول العامة : أى شئ ينكتم ؟ ثم تقول فى الجواب " مالا يكون " .

فحقيق على صاحب السر أن لايستودعه إلا القادر على نفسه ، والقاهر لنزواتها ، عند حركاتها وسكناتها ، بل المجاهد لها ، المعتاد عند الجهاد غلبها وقهرَها . وإما يتم للإنسان ذلك بخاصة قوة العقل الذى هو أفضل موهبة الله تعالى ، وأكبر نعمة له على العبد ، وبه فُضِّل الإنسانُ على سائر الحيوان .

ولولا هذا الجوهر الكريم الذى هو مسيطر على النفس ومشرف عليها ، لكان الإنسان كسائر الحيوانات غير الناطقة فى ظهور قوى النفس منه مرسلة من غير رِقبة، ومهملة بغير رعية ، ولكنه بهذا الجوهر النفيس فى جهاد للنفس عظيم .

ومعنى قولى هذا إن الإنسان دائما فى جهاد النفس بقوة عقله لأنه محتاج إلى ردعها به . وإلى ضبطها ومنعها من شهواتها الرديَّة حتى لا يصيب منها إلا بمقدار ما يطلقه العقل ويحدُّه لها ، وما يرسمه ويبيحه إياها .

ومن لم يقم بهذا الجهاد دائما مدة عمره فليس ممن له حظ فى الإنسانية ، بل هو خليع كالبهيمة المهملة التى لا رقيب عليها من العقل . وإذا انحط الإنسان عن مرتبته العالية إلى رتبة ما هو أدنى منه ، فقد خسر نفسه ورضى لها بأخسر المنازل ، هذا مع كفره بنعمة الله . ورده الموهبة التى لا أجلَّ منها . وكراهيته جوار بارئه ، ونفوره من قربه .

---

(١) المرجع السابق .

وقد شرح الحكماء هذا المعنى واستقصوه ، وعلموا الناس جهاد النفس فى كتب الأخلاق ، فمن اشتاق إلى معرفة ذلك فليأخذه من هناك ...

وقد تنبه مسكويه إلى أن أبا حيان كثير الشكوى [1] ، فنصحه بالاقلاع عن شكاياته من الزمان والخلان فى قوله : " قرأت مسائلك التى سألتنى أجوبتها ، فى رسالتك التى بدأت بها فشكوت فيها الزمان ، واستبطأت بها الإخوان ، فوجدتك تشكو الداء القديم ، والمرض العقيم ، فانظر – حفظك الله – إلى كثرة الباكين حولك وتأسَّ ، أوالصابرين معك وتسلَّ ، فلعمرُ أبيك إنما تشكو إلي شاكٍ ، وتبكى على باكٍ . وبعد : فإنى أرى لك إذا أحببت معايشة الناس ومخالطتهم أن تسامح أخاك – ولا تعوِّد عشيرتك وجليسك استماع شكواك . استعذ بالله من الشيطان ووساوسه ، ومن دنس الجهل وملابسه واستعن بالله يُعنْك ، أو استكفِه يكفِك .

الشهرة بعد الموت :

ما سبب الصِّيت الذى يتفق لبعضهم بعد موته ، وأنه يعيش خاملاً ويشتهر ميتا كمعروف الكرخى ؟

قال أبو علي مسكويه – رحمه الله :

معظم السبب فى ذلك هو الحسد الذي يعترى أكثر الناس ، لاسيما إذا كان المحسود قريب المنزلة من الحاسد ، أو كان فى درجته من النسب أو الولاية والبلدية أو ما أشبهها ، فإن هذه النسب إذا تقاربت بين الناس فاشتركوا فيها تم انفرد واحد بفضيلة نافسه الباقون فيها ، وحسدوه إياها ، حتى يحملهم الأمر أن يجحدوه (فضله) ولذلك قيل أزهد الناس فى عالم جيرانه ، لأن الجوار وكثرة الاختلاط سبب جامع لهم يتساوون فيه ، فإذا انفرد أحدهم بفضيلته لحق الباقين (من ذلك) ماذكرته .

وربما كان سبب زهدهم فيه غير هذا ، ولكن الأغلب ماذكرته فأمَّا البعيد الأجنبى لما لم يجمعه وإياه سبب حَقَّ عليه تسليم الفضل له ، وقلَّ عارض الحسد فيه ، ولأتجد ذلك (من الحسَّاد) إذا مات المحسود ، وانقطع السبب الذى بينه وبينهم (فتراهم) أنشأوا يفضلونه ، ويسلمون له ما منعوه إياه فى حياته .

---

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى – أبو حيان التوحيدى – مرجع سابق ص ٨٦ .
(٢) المرجع السابق حـ/٢ ص ٣٨ ، ٣٩ .

تعقيب على المسألة السابقة :

حينما اصطفى الله رسوله الكريم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وأكرمه بالرسالة ، عزَّ على سادة قريش هذا التكريم وودُّوا أن يكون لهم هذا الفضل . فهاكم ما قاله أبو جهل (الحكم بن هشام) للأخنس بين شريق . حينما كان يراقبه وهو يستمع لما نزل على الرسول (ص) قال «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا على الرُّكَب ، وكنا كفرسى رهان . قالوا : منَّا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه والله لانؤمن به ، ولا نصدقه فقام عنه الأخنس وتركه » وتأكيداً لهذه الواقعة نزل قول الله تعالى ﴿ **كَبُر على المشركين ماتدعوهم إليه اللّهُ يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾(١). وتحليل الفيلسوف المؤمن ابن مسكويه للنفوس الحاقدة الحاسدة تحليل صائب ويفسر حسد أبى جهل وغيره من زعماء قريش لصاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه . وهذا الحسد موجود فى كل عصر ومصر ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى مشيراً لدعوة يوسف عليه السلام ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شكٍّ مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾ (٢).

وبالنسبة لطرح أبى حيان التوحيدى هذا السؤال فهو كان يستشعر الإنكار لدى معاصريه وغمطه حقه ، كما كان يستشعر أنه سيكون ذا شأن بعد وفاته ، وقد حدث ما توقعه فها هى ذى المحافل والمهرجانات تقام لدارسة أفكاره ومراجعة أعماله .



(١) الآية رقم (١٣) من سورة الشورى .
(٢) الآية رقم ٣٤ من سورة غافر .



- ٣ -

أبو حيـــان التوحيـــدى
ما له وما عليه

* الطعن فى عقيدته على رغم تصوفه
* اتهامه بالوضع على رغم أمانته فى النقل
* دفاع عن أبى حيان التوحيدى
* إحراقُه كتبَه تبرّماً من حياته البائِسة



أبو حيان التوحيدى
ما له وما عليه

• الطعن فى عقيدته على رغم تصوفه :

قال ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧هـ) " زنادقة [1] الإسلام ثلاثة ابن الراوندى والتوحيدى وأبو العلاء المعرى، وشرهم على الإسلام أبو حيان التوحيدى " .

وقد سبق ابن الجوزى من اتَّهم أبا حيان فى عقيدته مثل ابن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٨٠هـ) فقد اتهمه بالزندقة فى كتابه الفريدة والخريدة ، ونقل ابن الجوزى عنه وقوله «كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان ، وتعرض لأمور جسام من القدح فى الشريعة ، والقول بالتعطيل » ثم قال ابن فارس :

«ولقد وقف سيدنا الصاحب بن عباد وكافى الكفاة على بعض ما كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه لقتله ، فهرب والتجأ إلى أعدائه ، ونفق عليه بزخرفه وإفكه ، ثم عثروا على جميع دخلته ، وسوء عقيدته ، وما يبطنه من الإلحاد ، وما يرومه فى الإسلام من الفساد ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ، ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلَّبى ، فاستتر منه ، ومات فى الاستتار ، وأراح الله منه ، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية » .

وجاء بعد ابن فارس وابن الجوزى منْ سار على نهجهما بإلصاق تهمة الإلحاد بأبى حيان ، بل قال عنه : «إنه عدو الله الخبيث اللسان السيئ الاعتقاد» ونعنى بهذا القائل الذهبى (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) ، هذا هو الفريق الذى شكك فى عقيدة أبى حيان التوحيدى ، وليس من العقل أن تُسمع هذه التهم ، ونحكم على الرجل بما حكموا عليه ، دون أن نستمع إلى من قالوا فى صالحه ، وشهدوا بحسن عقيدته وصحة تدينه ، وفهو فى رأى ياقوت «صوفىُّ السمت والهيئة ، متعبِّد ، والناس على ثقة من دينه ، وابن النجار يصفه بأنه كان فقيراً متديِّنا ، صحيح العقيدة» .

ويقول السبكى رضى الله عنه « لم يثبت عندى إلى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه ، ووقفت على كثير من كلامه ، فلم أجد فيه إلاَّ ما يدل على أنه كان قوى النفس ، مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل ، وسئل

---

(١) أبوحيان التوحيدى جـ/١ تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى ص ٩ ، ٩١ ، ٩٢ .

الوالد – رضى الله عنه فأجاب بقريبٍ مما أقول » وأرجع السبكى سبب حملة الذهبى عليه إلى محاكاته لما قاله ابن فارس ، وإلى ما قاله ابن الجوزى ، وإلى البغض الذى يكنهُ الذهبى للمتصوفة .

وقد كان أبو حيان صوفيا ، بل إنه عند الفرس علَم من أعلام المتصوفة ، قال عنه أبو العباس أحمد زركوب " إنه الإمام الموِّحد ، والعالم الواسع العلم ، ليس له شبيه فى المكاشفات الإلهية ، والدراية بالتوحيد .

تعقيب :

إذا كنا لا نحمد لأبى حيان ذمه لابن العميد وللصاحب بن عباد ، حتى الذين أسدوا يد الإحسان إليه مثل مسكويه ، والمدلجي الذى اتصل به وألَّف له كتاب المحاضرات ، فأجزل له العطاء ؛ إذا كنا لا نحمد له هذا الخُلق ، ولا نحمد له هذا الطمع فإننا لا نقرُّ مَن طعن فى عقيدته ، واتهمه بالزندقة ، واعتبره عدواً للإسلام .

ولنا أن نتساءل كيف يتهم أبو حيان بالزندقة والإلحاد ، ويصمه بعضهم بأنه شرٌ على الإسلام من ابن الراوندى ، فى الوقت الذى عُرِف بتصوفه ، بشهادة رجال ثقات مثل ياقوت الحموى وأبى العباس زركوب والسبكى ، فهذا أبو العباس زركوب يقول . إنه إمام فى المتصوفة لا نظير له ، وذكر أن أبا الحسن بن أحمد بن سالبة شيخ مشايخ الصوفية ، فى عصره ، رآه فى المنام ، وسمع منه أن الله غفر له ، فزار قبره فى جمع من مريديه ، وصلى عليه ، وأشار بوضع لوح على قبره يكتب عليه اسمه ، وقد حدثنا أبو حيان نفسه بأنه حجَّ فى رفقة إخوانه المتصوفة سنة ٣٥٤هـ ، ووصف ما احتملوا فى عودتهم إلى بغداد من مشقات جسام ، كادت تُودى بهم ، وله – كما ورد فى كتاب الإشارات الإلهية – أدعية كثيرة تشعُّ بالتصوف العالى منها :

« اللهم خذ بأيدينا فقد عثَرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الأُلفة التى تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب ، حتى نتعيَّش فى هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوي عاملين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف المروءة ، آنفين من ملامسة ما يقدح فى ذات الدين ، متزودين للعاقبة التي لابد من الشخوص إليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، إنك تُؤثر من تشاء ما تشاء » ونحن إذا حكَّمنا قول الشاعر ·

عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينه   فكل قرين بالمقارَن يُقرنُ

(١) المرجع السابق ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .

فسنبحث عن قرين أبى حيان ، وبخاصة مثله الأعلى ، أو الشخصية التى عاش مُعجبا بها ، وسنجد الإنسان الأمثل لديه هو أبا سعيد السيرافى فماذا يقول عنه حينما سأله عنه ابن سعدان : « أبو سعيد أجمع لشمل العلم [1] ، وأنظم لمذهب العرب، وأدخل فى كل باب ، وأخرج من كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق ، وأروى فى الحديث ، وأقضى فى الأحكام ، وأفقه فى الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفة .... وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام ، سأله عن مائة وعشرين مسألة أكثرها فى القرآن ، وباقى ذلك فى الروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رضوان الله عليهم » وذكر كتابات كثيرة وردت لأبى سعيد السيرافى ، تثني على تدينه وفقهه وتستفتيه فى مسائل مختلفة . ثم يقول مقارنا به غيره فى تقواه « وأبو سعيد يصوم الدهر ولا يصلى إلا فى الجماعة ، ويقيم على مذهب أبى حنيفة ، ويلى القضاء سنين ، ويتألّه (يتعبد) ويتحرج، وغيره بمعزل عن هذا ، ولولا الإبقاء على حرمة العلم لكان القلم يجري بما هو خافٍ...»

رد الدكتور الحوفى على اتهام أبى حيان بالزندقة :

قال فى كتابه (أبو حيان التوحيدى) " ولنا على اتهامه بالزندقة [2] وزعمهم انه نفى بسببها عدة ردود

١- المفهوم من كلام ابن فارس أن الصاحب بن عباد طلبه ليقتله ، ففرَّ منه ، ثم تعقبه الوزير المهلبى فاستتر منه ، حتى مات فى الاستتار ، وهذا كلام تعوزه الصحة ، لأن أبا حيان - كما بيّنا فى صلته بابن عبّاد - تركه سنة ٣٧٠هـ والوزير المهلّبى توفى سنة ٣٥٢هـ فكيف يتفق هذا [3] - لقد اتصل أبو حيان بالصاحب ثم تركه بعد ثمانية عشر عاما من وفاة الوزير المهلبى ، الذى قيل إنه تعقبه ليقتله .

٢- لم يُشر أبو حيان - على دقته فى وصف الأشخاص والأحوال ولاسيما حالته - إلى أن ابن عباد فكر فى قتله أو أوعز بحبسه ، ولو أن شيئا من هذا حدث ، لذكره على عادته فى تفصيل الأحداث ، والتشنيع على ابن عباد ، ووصف ما لقِىَ من حرمان وخيبة فى صلته به .

---

(١) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى - مرجع سابق ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ .
(٢) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى جـ١ مرجع سابق ص ٩٢، ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) المرجع السابق .

٣- يحملنا على الشك فيما زعمه ابن فارس عن نسبة الزندقة إلى أبى حيان ، ومن نسبة التفكير فى قتل ابن عباد له ، أن ابن فارس كان أستاذا لأبى الفتح بن العميد ، وقد هجا أبو حيان ابن عباد وابن العميد ، فمن المرجّح أن ابن فارس أراد أن يشوّه سمعته ، ويثأر منه فألصق به تهمة الزندقة ، وأراد أن ينسب إلى ابن عباد الغيرة على الدين ، فزعم أنّه همّ بقتله لكنه هرب منه .

٤- كان ابن فارس معاصراً لأبى حيان ، وقد ذمه أبو حيان ذما شنيعاً ، وتنقّصه فى مجلس ابن سعدان بقوله « إنه شيخ فيه محاسن ومساوئ إلاّ أنّ الرجحان لما يُذمّ به ، لا لما يحمد عليه ، فمن ذلك أن له خبرة بالتصوف ، وهناك أيضا قسط من العلم بأوائل الهندسة ، وتشبُّه بأصحاب البلاغة ، إلاّ أن هذا كله مردود بالرعونة والمكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة ... »

٥- ابن فارس الذى يسند إليه اتهام أبى حيان بالزندقة ، والموت فى الاستتار ، قد مات قبل أبى حيان ، وسواء أكانت وفاة ابن فارس سنة ٣٦٠هـ أو سنة ٣٦٩ ، أو ٣٧٥ ، أو ٣٩٠ ، أو ٣٨٥ هـ فإنها كانت قبل وفاة أبى حيان .

فكيف يقرر وفاة شخص لم يمت بعد ؟ وإذا أخذنا بشقٍّ رأيه ، وهو الإتهام بالزندقة ، وذهبنا إلى أن الشّق الثانى مدخول عليه ، فإن اتهامه بالتحيُّز لابن عباد وابن العميد ما زال قائما (أى أن المتهم بالتحيز ابن فارس) يُقدح فى طعنه أبا حيان ، على أننا لا نستبعد أن يكون [1] خصوم أبى حيان هم الذين فعلوا ذلك، ولكنهم اسندوه إلى ابن فارس ليزيدوه قبولا وتثبيتا فى نفوس سامعيه .

٦- ابن الجوزى – كما ذكر السبكى – متعصِّب على الصوفية ، يبغضهم، لهذا زاد من عنده قول " وأشدهم على الإسلام أبو حيان لأنه مجمجم ولم يصرِّح " وياقوت وصفه فى معجم الأدباء بأنه كثير التخليط ولهذا لا يعتمد على ما انفرد به (أى أن ابن فارس كثير التخليط) .

٧- إذا ما وازنّا بين أبى حيان وابن الراوندى وأبى العلاء المعرى لم نجد تشابها يبيح لابن الجوزى أن يجعله أشد الثلاثة ضررا بالإسلام .

أما ابن الراوندى فلا جدال فى زندقته وكفره ، لأنه زعم أن فى كلام أكثم ابن صيفى ما هو – والعياذ بالله – أحسن من بعض القرآن، وادّعى ان القرآن غير معجز،

(١) المرجع السابق .

وبأن المسلمين احتجوا لنبوّة نبيهم بالقرآن الذى تحدث به النبى ، فلم يقدر العرب على معارضته ، فيقال لهم : لو ادّعى مدّعٍ لمن تقدّم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن فقال . الدليل على صدق بطليموس أن أقليدس ادّعى أن الخلق يعجزون أن يأتوا بمثل كتابه ، لكانت نبوته تثبت . ويعقب الدكتور الحوفى على كلام ابن الراوندى وتعليله الفج بقوله : «وهذه حجة تافهة ساقطة ، لأنه قد أتى بعد أقليدس من برع أكثر منه وزاد عليه، ولا يزال العلماء يأتون كل يوم بجديد حتي ليعد كتاب أقليدس لا شيئ بالنسبة لما يكتبون ، أما القرآن فقد مضت مئات السنين ، ولا يزال المعجزة الخالدة وسيبقى كذلك ابدا » .

وأما أبو العلاء فقد اتهم بالإلحاد لبعض آرائه ولما قيل عنه أنه عارض القرآن بكتابه الفصول والغايات ، على نسق السور والآيات ، وإن كان مظلوما فى اتهامه بالمعارضة لأن كتابه لا يشير إلى ذلك ، وليس فى كلام أبى حيان ما ينبئ عن زندقة أو إلحاد ، كما هو ثابت على ابن الراوندى.

٨ - بل إن فى كلام أبى حيان ما ينقض دعوى خصومه[1] نقضا لا يُبقى ولا يذر ، فقد كان يغار على الدين منذ حداثته ، وأورد الحوفى نقده لرائد من رواد الصوفية ، وهو أبو سعيد البسطامي لتعجرفه ، فثأر فى نفسه حمية لله ولرسوله ، وأورد له بعض ما جاء فى كتاب البصائر والذخائر من إقرار بجلال القرآن وإعجازه من مثل قوله «كتاب الله الذى حارت العقول الناصعة فى رصفه ، وكلّت الألسن البارعة فى وصفه » واستشهد أيضا بما ورد فى ذلك الكتاب من تمجيد لأحاديث الرسول صلى الله عله وسلم ووصفها بأنها المنار وسط الطريق الواضح ، والنجم اللائح ، والقائد الناصح ، ثم أورد له مناجاة صوفية من كتابه (الإشارات الإلهية) وفيها يقول « اللهم إنّا نسألك ما يُسأل لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قبلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعنا فى رحمتك الواسعة ،نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومنفعة لا يخالطها إنكار ، وإنْ كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائقَ التوحيد والمعرفة - نسالك الا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك ، يا حافظ الأسرار ، ومسبُل الأستار ويا واهب الأعمار ... » .

---

(١) المرجع السابق .

وأخيرا . ماذانقول بعد هذا الكلام الذى أوردناه للدكتور الحوفى إلا أنْ نُقرَّه على كل كلمة قالها ، وصرَّح بها فى حق أبى حيَّان التوحيدى ، وإحقاقا للحَّق نورد بعض المثالب على أبى حيان وهى لا تسيئ إلى عقيدته ، وإن كانت تسيئ إلى مركزه الأدبى والعلمي .

١- لقد أدَّت به الحاجة والفقر المدقع إلى التزلُّف إلى صديقه أبى الوفاء المهندس بعبارات رجل قليل الحيلة ، ضعيف النفس والإرادة حيث يقول خلِّصنى من التكفُّف ، أنقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضُّر ، اكفني مؤونة الغداء والعشاء ، وإلى متى الكُسيرة اليابسة ، والبُقيلة الذاوية ، والقميص المرقَّع إلى متى التادُم بالخبز والزيتون ... " .

٢- من قبيل ما تقدَّم ما أخذه عليه أستاذه [1] مسكويه فى (الهوامل والشوامل) حين رآه كثير الشكوى فنصحه بالإقلاع عن شكاياته من الزمان والخلَّان فى قوله «قرأت مسائلك التى سألتنى أجوبتها فى رسالتك التي بدأت بها فشكوت فيها الزمان» - كما أوردنا ذلك آنفا " .

٣- صعوبة أخلاقه - فى جملتها لم تكن أخلاق رجل يحسن مداخلة الناس ومعاشرة الحكام وذوى السلطان ، ولو أنه كان بعيد النظر لعرف أن الناس يتحاشونه إذا ما وجدوا منه السُّخط على من عاشرهم من قبل لأنهم يتوقعون أن يكون نصيبهم منه مثل نصيب سابقيهم .

٤- معاداته للخاصة من حكام وعلماء ، كما سبق فى وصفه لأعوان ابن سعدان وحاشيته ، كقوله فى ابن فارس العالم اللغوي الأديب " إنه شيخ فيه محاسن ومساوئ إلا أن الرجحان لما يُذمُّ به لا لما يحمد عليه - وهذا كلام مردود عليه بالرعونة والمكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة ...»

٥- خمول ذكره فى عصره عند العامة كما غُمط حقه عند الخاصة ذلك أنه أساء إلى الخاصة ، وترفع على العامة ترفع من لا يعبأ بهم ، وكان فى ذلك متتلمذا على أستاذه أبى سليمان المنطقىَ ، الذى نقل عنه قوله فى ازدراء معارف العامة بأنها " لا توحيد لها ، لا حقيقة معها ، ولا مبالاة بها " ورفض ان يقصَّ على العامة ، ذاكرًا أن القاصَّ على العامة لا يعدو إلاَّ أن يكون أحد ثلاثة :

---

(١) المرجع السابق ص ٨٩ ، ٧٤ .

إمّا رجل أبله فهو لا يدرى ما يخرج من أمّ دماغه ، وإما رجل عاقل فهو يزدريه لتعرضه لجهل الجهال ، وإما له نسبة إلى الخاصة من وجه وإلى العامة من وجه ، فهو يتذبذب من الانحياز الجالب للهَجر ، والاعتراف الجالب للوصل .

٦- لقد أضرم عليه سُخط معاصريه بكتابه (مثالب الوزيرين) واعتقدوا أنّه كتاب مشئوم لا يملكه أحد إلاّ ساءت حاله ، وقد ذكر ابن خلكان انه جرب هذا وجربه غيره من يثق بهم ، ومن هنا [1] تجافى الناس عن كتب أبى حيان كلها وتجافوا عن ذكره أيضا .

٧ - تغافل المؤرخون عنه على علوّ قدره ، وسعة علمه ، ومقدرته فى البيان - إمّا نفورا من تطاوله على علماء عصره ، وإما ثأراً لأنه هجا ابن العميد وابن عباد ، وقد كان لهما أنصار كثير من العلماء والأدباء .

٨ - إنه سلق عصره كله بلسانه فى مواضع شتى من كتبه [2] . كقوله فى حسرته على ماضيه وأساه من حاضره «بارت البضائع ، وكسد سوق العلم ، وخمد ذكر الكرم، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم » .

---

(١) المرجع السابق ١٠٨ ، ١١١ .

(٢) ياقوت معجم الأدباء حـ/١٥ ص ١٥ ، ١٦ .

• اتهامه بالوضع على رغم أمانته فى النقل :

هذا الموضوع له جانبان ، الجانب الأول . أن أبا حيان قد اتُّهم بوضع رسالةٍ أرسلها أبو بكر وعمر إلى على رضى الله عنهم ، والجانب الثانى : هو شهادة كثيرٍ من المؤرِّخين والنقاد لأبى حيان بالأمانة فى النقل والرواية : فكيف يمكن التوفيق بين هذين الجانبين من هذا الموضوع . هذا ما سنناقشه فى الصفحات التالية :

أولا : اتهامه بوضع رسالةٍ من أبى بكر وعمر إلى على (رضى الله عنهم):

لم يقتصر خصوم أبى حيان على اتهامه بالزندقه ، وادعاء أحدهِم أنَّه شر على الإسلام من ابن الراوندى الزنديق الملحد - بل راحوا يوجهون له طعنات نجلاء فى مكانته الأدبية ، إذا اتهموه بالوضع ، حتي لا يوثق برواياته فى خبر من الأخبار أو فى نص أدبى أو تاريخى ، وأول ما يسترعى النظر فى هذا الاتهام أن القائلين به من رجال الحديث ، لا من رجال الأدب واللغة - مع أنه لم يكن من المحدِّثين الكبار المشهورين الذين يؤخذ برواياتهم ، وأن كان فى رأى السبكى من المحدثين فى عصره ، وروى عنه جماعة ، والحقيقة أنه لم يكن كذلك وإنَّ استشهاده ببعض الأحاديث فى كتبه لا يرتفع به إلى مرتبة المحدِّثين المعتمدين . مع أنَّها ليس فيها ما يتنافى مع روح التشريع ولا مع الصبْغة العامة للاحاديث النبوية .

لماذا اتُّهم بالوضع إذَنْ ؟ :

يقول الدكتور الحوفى :" وأغلب الظن أن ذلك الباعث هو الرسالة التي روى أبوحيان أن أبا بكر وعمر أرسلاها إلى علىٍّ حينما تأخر عن بيعة أبى بكر ، فجاء علىٌّ وحاورهما وحاوراه ، وكان أبو عبيدة بن الجراح حامل الرسالة الشفهية إلى علىٍّ .. وهى رسالة طويلة - أوردَها ابنُ أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة وصاحبا صبح الأعشى ، ونهاية الأرب - ذكر فيها أبو حيان أنه سمعها من القاضى [٢] أبى حامد المروروذى ، رواية عن عيسى بن دأب عن صالح بن كيسان ، عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير ، عن أبى عبيدة بن الجراح ، مع اختلاف فى سلسلة الرواة فى بعض مراجع الرسالة .

---

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى - الجزء الاولى من ص ١٢٢ - ١٥٠ .
(١) المرجع السابق

ولهذه الرسالة مصدِّقون ومكِّذبون ، بينما وقف منها بعض الدارسين موقف الحيدة المطلقة فلم يثبتها ولم ينفها ، أمَّا الذين نفوها فهم الذهبى وابن حجر وابن أبى الحديد والسندوبى وزكي مبارك ، وذكر الذهبى أن المالينى ذكر الرسالة لأبى حيان فقال أبو حيان : هذه الرسالة عملتُها ردًا على الرافضة لأنهم كانوا يحضرون مجلس بعض الوزراء ويغالون في حال عليٍّ ، فعملتُ هذه الرسالة ، وعلَّق عليها الذهبى بأن أبا حيان قد اعترف بوضعها.

وذكر ابن حجر فى أدلته على عدم صحة الرسالة ، أن الشريف الرضى جامع نهج البلاغة كان شديد الحرص على التقاط ما روَى عن على رضى الله عنه ، وإذا ظفر بكلمة من كلامه فكأنه ظفر بمُلك الدنيا ، وقد أودع هذا كلّه كتبه ، فأين كان الرضى عن هذا الحديث ؟ كذلك فإن متكلِّمى الأشعرية ، أصحاب الحديث كابن الباقلانى على النقيض من الشيعة ، كانوا من أشدِّ الناس عليهم وعلى أمير المؤمنين على ، لو ظفروا بكلمة من كلام أبى بكر وعمر ممَّا ذكره هذا الحديث لملأوا الكتب بها .

وكان آخر المتحدثين عن عدم صحة هذه الرسالة هو الدكتور زكى مبارك الذى ذهب إلى أن التوحيدى اخترع حديث السقيفة ، وأنطق الصحابة بكلام مسجوع ، لأنه كان يعرف لغتهم كذلك ، ومن دقة محاكاته انه حرص على التسامح فى التزام السجع فى بعض الفقرات ، ليوافق المنهج الذى عرف فى نظم القرآن والحديث ،وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين .

وقد صدَّق الرسالة – فيما نعلم – اثنان هما محمد كرد على وعبد الرزّاق محيى الدين ، أمَّا الاستاذ محمد كرد على فذهب إلى أن الرسالة صحيحة ، واستبعد أن يضعها التوحيدى ، وبعيد عن العقل أن يضع التوحيدى هذه الرسالة [1] ، وهي بعيدة عن أسلوب كلامه ، وإنْ أحب ابن أبى الحديد أن يشبهها به ، أما التوحيدى فرواها عن رجل معروف كان يحفظها ، وبالجملة فالدلائل كلها قائلة بأن الرسالة ليست من صنع أبى حيان ، وأنها كانت معروفة قبله ، وإذا أراد بعضهم إلاَّ أن يقول . إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدى بكثير ، وهى على كل حال لا تخلو من اصل ، وربما زيد عليه بأيدى من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلها من أهل السنة ، فأرادوا نكاية الشيعة فى كثير مما صنعوا " .

---

(١) المرجع السابق .

ثم جاء الدكتور عبد الرزاق محيى الدين ، فرجَّح أن الرسالة صحيحة ،لأن فيها نْيلاً من أبى بكر وعمر ، ولم يكن أبو حيان جاهلا بمذاهب الفرق الإسلاميةحتى يتعمَّد إيذاء الإمامية بالحطِّ من مقام الخليفتين ، لأنها تمثِّل حال القوة جملة ، وتصوِّر نفسية أبى بكر وعمر وعلىٍّ أثناء حادث السقيفة ، ولأنها شبيهة بأساليبهم ، ولأن أبا حيان أعلن أنه رواها بالنص .

ماذا قال الدكتور الحوفى عن الرسالة :

قال «والذى أراه أنَّ الرسالة موضوعة ، ولست أشكُّ فى أنها مصنوعة ، فمن الذى وضعها ؟ أهو القاضى أبو حامد المروروذى ؟ أم أبو حيان التوحيدى ؟

كلا الأثنين محتمل .

فمن الجائز أن أبا حامد قد افتعلها ، وكتمها زمنا ، ولم يطلع عليها غير الوزير المهلبي ، كما قال لجلسائه الذين كانوا يسمرون عنده ، فلما أخبرهم بها وأعلموهُ أنَّهم يجهلونها ، وألحُّوا عليه أن يرويها لهم رواها .. فمن الجائز أن تكون الرسالة من صنع أبى حامد ، فلما سمعها أبو حيان صدَّقها وأثبتها ، لأنه كثيرا ما روى عن أبى حامد ، وكثيرا ما وثق به .

ومن الجائز أن تكون الرسالة من اختلاق أبى حيان ولكنه عزاها إلى أبى حامد ليقوِّىَ سندها ، وليسلم من تبعتها » [1].

ويؤكد الدكتور الحوفى على أن الرسالة مصنوعة بأن راويها أبا حامد المروروذى بينه وبين أبى عبيدة أربعة رواة فكيف توافق كل منهم على أن يرويها لشخص واحد لا يتعداه ، وكيف بقيت الرسالة فى طوايا الزمن هذا العمر الطويل ، وهى مجهولة غير متداولة ؟ وأردف ذلك بقوله «إن أسلوب الرسالة يغاير تمام المغايرة أسلوب الزمن الذى قيلت فيه (يقصد زمن الصحابة رضوان الله عليهم) فهي كثيرة الأسجاع ، فى جُملٍ قصارٍ متوازنة ، ولقد يتوالى سجعها ويطَّرد ، وإذا لاحظنا أنها رسالة شفهية لا مكتوبة، ثم إذا لاحظنا أن السجع القصير المتوازن كان كثيرا (أى كان متصنَّعا) حتى فى مشافهة عمر لعلىٍّ ، ازددنا شكًّا فى أسلوبها ورجَّحنا أنها من إنشاء القرن الرابع .

---

(١) المرجع السابق .

وأورد فقرة من الرسالة تدل بجملها القصيرة المسجوعة على أنَّها مصنوعة ، ومنها قول أبى بكر " البحر مغرقة ، والبرُّ مفرقة ، والجُّو أكلف (مغبر) والليل أغدف ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسِّر ، الحق عطوف رؤوف ، والباطل نسوف عصوف " .

ثم ماذا نقول بعد هذه الآراء :

أولا أرى أن أقدِّم العذر لصانع هذه الرسالة سواء أكان أبو حيان التوحيدى ، أو أبو أبوحامد المرووزى ، ذلك أن الشيعة قد تغالوا فى القرن الرابع إلى حد اعتبار أبى بكر وعمر وعثمان مغتصبين للخلافة ، ومنهم من تجاوز الحدَّ ، وقال بتكفير بعض الصحابة رضوان الله عليهم والرسول صلى الله عليه وسلم يقول " الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبَّهم فبُحبِّى أحبَّهم ، ومن أبغضَهم فببغضى أَبغضَهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه " رواه الترمذى [1] عن عبد الله بن مغفَّل رضى الله عنه . ذلك وأن الشيعة فى ذلك العصر - عصر صناعة هذه الرسالة - قد هيمنوا على دولة الخلافة فى بغداد ، وصنع علماؤهم أحاديث كثيرة أسندوا روايتها إلى آل البيت رضوان الله عليهم ، وهذه الأحاديث تؤكد أحقِّية الإمام على فى الخلافة قبل أبى بكر وعمر وعثمان .

ثانيا : أن أبا حيان قد اعترف بأنه صانع لهذه الرسالة ، الاعتراف سيد الأدلة ، فقد ذكر الذهبى عن جعفر الحكَّاك أنَّه سمع من أبى النصر الشجري أنه سمع المالينى يقول :« قرأت الرسالة المنسوبة إلى أبى بكر وعمر (والمرسلة) مع أبى عبيدة إلى علىٍّ رضى الله عنه على أبى حيان فقال لى : هذه الرسالة عملتها ردا على الرافضة ، لأنهم كانوا يحضرون مجلس الوزراء ويغالون فى حال على فعملت هذه الرسالة » .

ثالثا : أن صناعة هذه الرسالة وإن كانت تعيب نزاهة أبى حيان ، إلاَّ أنها تؤكد غيرته على السنَّة وعلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأنه أول من استخدم مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " وهو مبدأ غير سليم ، إلاَّ أنه ما كان

(١) المرجع السابق ، والرياض النضرة (المقدمة) .

سيُقدِم على هذا الأمر لو كان فيه جناية على الإسلام ، فاعتقاده أنه يخدم الإسلام دفعه إلى مثل هذا العمل ، وهذا العمل - مع عدم إقرارنا له - يؤكد صدق عقيدته .

رابعا : أن خطبة الإمام على عند مبايعته لأبى بكر ، وكذلك خطبة أبى بكر [1] تدحضان مثل هذا القول المنحول ، زد على ذلك أن الصحابة لم يتعاملوا فيما بينهم بالرسالة المطنبّة ، على ما فيها من السجع المتكلّف ، فلتقرأ ماذا أورده المحبُّ الطبرى فى كتابه الرياض النَّضِرة بشأن مبايعة الإمام على لأبى بكر رضى الله عنهما قال " وعن عائشة أن عليّ بن أبى طالب مكث ستة أشهر حتى تُوفيت فاطمة - رضى الله عنها - لم يبايع أبا بكر ولا بايعه أحدٌ من بني هاشم حتي بايعه على . فأرسل عليٌّ بعد وفاة فاطمة إلى أبى بكر : أئْتنا ، ولا يأتنا معك أحد ، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدته ، فقال عمر . لا تأتهم وحدك ، فقال أبى بكر والله لآتينّهم وحدى ، وماعسى أن يصنعوا بى ، فانطلق أبو بكر حتي دخل على علىّ ، وقد جمع بنى هاشم عنده ، فقام علىٌّ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال " أما بعد - فإنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكارٌ لفضيلتك ولا نفاسةٌ عليك بخيرٍ ساقه الله إليك ، لكنَّا كنَّا نري أنَّ لنا فى هذا الأمر حقاً ، فاستبددتم به علينا ، ثم ذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقه فلم يزل علىٌّ يذكر ذلك حتي بكى أبو بكر ، فلما صمت علىٌّ تشهَّدَ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : " أمَّا بعد : فوالله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلىَّ أن أصلَكم من قرابتى ، وإنّى والله ما آلوبكم فى هذه الأموال التي كانت بينى وبينكم على الخير ، ولكنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نُورثَ ، ما تركناه صدقة ، إنَّما يأكُل آل محمد فى هذا المال ، وإنّى والله لا أذكر صنعةً فيه إلاَّ صنعتُه إن شاءَ الله تعالى ثم قال علىٌّ موعدُم للبيعة العشية ، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ثم عذَر علياً ببعض ما اعتذر به " .

ثم قام على فعظَّم من حق أبي بكر فذكر فضيلته وسابقته ، ثم مضى إلى أبى بكر فبايعه ، وأقبل الناس إلىَ علىٍّ فقالوا . أصبْتَ وأحسنت " حديث صحيح متفق عليه " .

(١) المحب الطبري - الرياض النضرة - الجزء الأولى ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .
(٢) المرجع السابق .

ثانيا : امانته فى الرواية والنقل والوصف :

لقد شهد لأبى حيان بأمانته ودقته فى النقل وتحرِّى الحقيقة فى الرواية كثير من مؤرخى الأدب ، فكانت الدقة عادة من عاداته ، بل لم يستطع الفكاك من سلطانها ، فإسنادُه الحديث يدل على أمانته ، ومثال ذلك :

١- قال مسكويه : " قرأت مسائلك التي سألتنى أجوبتها فى رسالتك [١] التى بدأت بها فشكوت فيها من الـ... ـان ..."

٢- وكان ينقل عن أستاذه أبى سليمان ولم يعلق عليه ثم قال عن رسائل إخوان الصفا: " وحملت جملة منها إلى أبى سليمان المنطقى وعرضتُها عليه ، ونظر فيها أيَّاما ، واختبرها طويلا ، ثم ردَّها علىَّ وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونصِبُوا وما أجدَوا، وحاموا وما وردوا " .

٣- وقال على لسان ابن سعدان :

«قال . إنى أريد أن أسألك عن ابن عباد ، فقد انتجعتَه [٢] وخبرته ، وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، وخطوب ما لديه ، فما أظنُّ أنِّى أجد مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له ، وعلى أنِّى قد شاهدتُه بهمذان لَمَّا وافى ، ولكن لم أُعجِمْهُ (لم أفهمه) ، لأنَّ اللُّبثَ كان قليلا ، والشُّغل كان عظيما ، والعائق كان واقعا : فقلتُ إنِّى رجل مظلوم من جهته ، عاتب عليه فى معاملته ، وشديدُ الغيظ لحرمانى وإن وصفته أربيْتُ منتصفا ،وانتصفت منه مسرفا، فلو كنتُ معتدل الحال بين الرضا والغضب ، او عاريا منهما جملة · كان الوصف أصدق ، والصِّدق به أخلق ، على أنِّى عملتُ رسالة فى أخلاقه ، وأخلاق ابن العميد أودعتُها نَفَسى الغزير» .

مما تقدم ومن قراءاتنا لِما كتب يتبيَّن أن أباحيان كان يتحرَّى الدقة والأمانة العلمية فى النقل ، وذلك راجع إلى ممارسته الطويلة للنسخ التي تلزمه بعدم التصرف فى أيَّة جملة أو أسلوب ، أمَّا بالنسبة لتآليفه المستقاة مما سمعه من غيره فهو يلتزم فيها بالمعني دون اللفظ .

« ولو أنَّ الرجل كان غير أمين لاضاف كثيراً من الآراء القيِّمة إلى نفسه [٣] – وهو ينقل عن غيره بدلا من نسبتها إلى ذويها ، لأنَّها كانت ستحقَّق له مجدا وسبقا وشهرة،

(١) د. أحمد محمد الحوفى أبو حيان التوحيدى حـ/١ ص ٨٦ ، ٤٠ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى – الليلة الرابعة جـ/١ ص ٥٢ ، ٥٤ .

(٣) الدكتور أحمد محمد الحوفى – أبو حيان الوحيدى – حـ/١ ص ١٣٧ .

لكنه آثر أن ينسبها إلى ذويها ، وإن كان من الميسور أن يتبنّاها هو ، لأنه كان قد سمعها أو قرأها وحده » .

هل يمكن التوفيق بين اتهامه بوضع رسالة السلف الصالح والأمانة العلمية فى النقل وتحرّى الحقيقة ؟ :

إذا كانت ارجح الآراء إزاء الرسالة التي حملها أبو عبيدة من أبى بكر وعمر إلى علىٍّ رضى الله عنهم لحثّ علىٍّ مبايعة أبى بكر - تقول هذه الآراء إنها مصنوعة ، وتتهمه بصناعتها ، فإن ذلك لا يقوم مبرّرا لإنكار أمانته العلمية فى النقل عن أساتذته ومعاصريه فإذا كان لكل عالم هفوة ، وتلك الرسالة إن صحّ نسبتها إليه مهما كانت المبررات فى إنشائها تعتبر هفوة منه ، فإنّها لا تقوم أساساً لإنكار أمانته العلمية فى نقل تراث القرن الرابع الذى عاشه وعايشه ، واعتُبِر أهمّ شاهدٍ عليه ، وأعظمَ مسجّلٍ له، فالحُكم جِدُّ مختلف فى الوضعين .

هل يمكن التوفيق بين سُخف لسانه وذمّه لبعضِ النّاس وبين أمانته العلمية فى النقل وتحرّى الصواب ؟ :

لقد ثبت مما أوردناه آنفاً أنَّ أبا حيّان كان سليط اللسان ، قليل الرِّضا عند الإساءة إليه والاحسان ، كان كثير التشكّى ، كثير الهجاء لمن لم يسارعْ فى مكافأته على عمل أو مديح ، كما أنه كان يعترف فى أكثر من موضوع بهذا الخلق ، مثل القصة التى أوردها عن نفسه فى كتابه (المحاضرات) إذ ذكر أنه كان بحضرة أبى سعيد [1] السِّيرافى ، فوجد لديه كتاب " اللُّمع فى شواذ التفسير " ورأى مكتوبا عليه بخط أبى سعيد . قصة الأعرابى الذى ذمّ رجلا نثراً وشعراً ، فما كان من أبى حيّان إلاَّ أنْ نسخها بشغفٍ واهتمام ، فسأله أبو سعيد : ماذا تكتب فقال : الحكايةالتي على ظهر هذا الكتاب ، فلما تأمّلها أبو سعيد قال له . تأبى إلاَّ الاشتغال بقدح الناس وذمِّهم ، فأجابه أبو حيان . «أدام الله الإمتاع (أى أنه يجد متعة فى ذلك) شُغِل كلُّ ناسٍ بما هو مبتلى به مدفوع إليه» .

هذه القصة وغيرها من القصص المنسوبة إليه والتي تؤكد وُلوعه بالنَّقد والتجريح والهجاء ، هل تتنافى مع الأمانة العلمية فى النقل ؟ لا نرى أنَّ هناك ارتباطاً بين الأمرين ، وإنْ كانت تلك السمة تسيئ إلى شخصه ، إلاَّ أنها لا تحطُّ من أمانته ودقته فى النقل وتحرِّى الحقيقة والصواب

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ ، ٧٥ .

شهادة الحوفى والقفطى وياقوت الحموى له بالأمانة فى النقل :

يقول الدكتور الحوفى" وإن أمانته لتتكشف فى تعقيبه أو تقديمه لبعض الآراء " [1].

١- كمثل الذى رواه عن أبى الحسين القطّان وفيه تعريفات لمصطلحات أصولية ثم علّق عليها : « وليس جميع ما قال مقروناً بالسلامة ، لكن رويتُه على ما علِقته (أى على ما علق بذهنى) ، ولم أزين لفظه ، ولا نمّقتُ عبارته » .

وتكثر فى كتبه التعقيبات الدّالة على أمانته ودقته كقوله " قد رويتُه كما رأيته ، وهكذا حفظته من المجلس .. وقال : « إن الناهل (هو) الريّان والعطشان : هكذا جاء فى الأضداد ، وهذا التفسير حفظته سماعا ورويته رواية » .

٢- وإذا اختصر الكلام الذى سمعه نبّه على اختصاره كقوله فى آخر جواب أبى سليمان له عن سؤال من أسئلته " وكان ذيل الكلام أطول من هذا ، شمّرته خوفا من جناية اللسان فى الحكاية ونزوة القلم فى الكتابة " .

٣- وإذا حكى بالمعنى وعبّر هو بأسلوبه صرّح بذلك كقوله " فقال كلاما كثيرا ، أنَا أحكيه على وجهه من جهة المعنى ، وأن انحرفت عن أعيان لفظه ، وأسباب نظمه ، فإن ذلك لم يكن إملاء ولا نسخا ، وأجتهد فى أن ألتزم متن المراد وسمْتَ المقصود " .... وهذه الأمانة هى التي جعلت القفطى ينقل عنه وحدَه ما قاله فى إخوان الصفا قال القفطى . « كتَم مصنفو هذه الرسائل أسماءهم ، فاختلف الناس فى الذى وضعها ، وكل قوم قالوا قولا بطريق الحدس والتخمين ، ولم أزل شديد البحث والتطلّب لذكر مصنفها حتى وُقِّتُ على كلام لأبى حيان التوحيدى جاء فى جوابٍ له .. فى حدود سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وهو ...»

٤- كان أبو حيان أمينا ودقيقا فى وصف مجالس العلم والمناظرة ونقل الحوار بين العلماء والأدباء وكان أمينا دقيقا فى تسجيل الحوادث . ثم ذكر الحوفى [2] قصة القبض على أبى الفتح ذى الكفايتين كما رواها أبو حيان ونقلها عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، وقد سبق لنا إيراد جزء منها عند الكلام عن ذي الكفايتين ، نقلا عن صاحب يتيمة الدهر ، وأجمل ما فى القصة التي رواها أبو حيان . رد الصاحب على ذى الكفايتين حينما طلب من مؤيِّد الدولة أن يأمر الصاحب بالرجوع إلى

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ – ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق من ص ١٤٠ – ١٤٦ .

أصفهان ، قال أبو حيان « وتلطف ابن عبَّاد فى حلال ذلك ، لأبى الفتح وقال له · أنا أتظلَّم منك إليك ، أتحمَّل بك عليك ، وهذا الإستيحاش سهْلُ الزوال إذا تألفت الشارد من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك ، ولِّنى ديوان الإنشاء ، واستخدمنى فيه ، ورتِّبنى بين يديك ، واحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمْنى برضاك، فإنِّى صنيعة والدك ، واتخْذنى بهذا صنيعةً لك ، وليس يجمل أن تَكُرَّ علَى ما بنَى ذلك الرئيسُ فتهدمَه وتنقضه ، ومتى أجبتنى إلى هذا ، وآمنتنى فإنى أكون خادمك بحضرتك ، وكاتبا يطلب الزلفة عندك فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء النائرة التي قد ثارت بسوء ظنك ، وتصديقك أعدائى علىَّ ، فقال (أى أبو الفتح) فى الجواب . والله لا تجاورنى فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك علىَّ عينٌ عندى ، وليس لك منِّى رضا إلا بالعود إلى مكانك بأصبهان والسلوِّ عما تحدَّثت به نفسك ، فخرج ابنُ عَّباد من الرَّى على صورة قبيحة متنكِّرا بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والعلبة ، وبلغ أصبهان ، وألقى عصاه بها ... » .

تعقيب :

هذا ما أمكن اقتباسه من قصة ابن عباد مع ابى الفتح بن العميد وكلا الرجلين لم يُنيلا أبا حيان ما كان يطمع فى نيله ، ولم يمنعه غضبه منهما وسخطه عليهما أن يُوردَ الأحداث التي حدثت لهما على وجه الدقة والصواب ، ومع أنه ألَّف فيهما كتابه (مثالب الوزيرين) . إلاَّ أنَّه كما كان صادقا فى إيراد حديث ابن عبَّاد إلى أبى الفتح – كان صادقا أيضا حينما حدث حوارٌ بين مؤيِّد الدولة ووزيره أبى الفتح بعد انصراف ابن عباد. إذْ حدث أن طمع صاحب خراسان فى الرَّى وأصفهان وكرمان على أثر موت ركن الدولة وقيام مؤيِّد الدولة بعده فأراد مؤيِّد الدولة أن يستعدى عليه علىَّ بن كامة أحد أمراء الديلم وان يطلب منه القرض لمحاربة صاحب خراسان "فقال مؤيِّد[1] الدولة، وكان ملقِّناً (لأبى الفتح) هذا ابنُ كامة وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون ، وبيده بلاد وقد جمع هذا كله فى دولتنا وحازه من مملكتنا .. قال (أبو الفتح) . مالى فيه كلام ، فإن بينى وبينه عهدا ما أخيس به ولو ذهبت نفسى . فقال : اطلب منه القرض ، قال :انه يستوحش ويراه بابا من الفضاضة ، وقدْرُ القرض لا يبلغ قدْرَ الحاجة .. قال : وإذ ليس ها هنا وجه فليس بأس بأن يطالعَ الملكَ بهذا الرأى

(١) المرجع السابق من ١٤٢ – ١٤٦ .

ليكون نتيجته من ثمّ .. قال : أنا لا أكتب بهذا فإنه غَدْرٌ قال : يا هذا فأنت كاتبى وصاحب سرِّى والزِّمام فى جميع أمرى ولا سبيل إلى إخراج هذا الحديث إلى أحد من خلق الله ، فإن أنت لم تتولّ حارّه وقارّه ، وغثه وسمينه ، ومحبوبه ومكروهه فمن ؟

قال : يا أيها الأمير : لا يَسُمْنى الخيانةَ ، فإني قد أعطيته عهدا يذر الديار بلاقع ، ومع اليوم غد ، ولعن الله عاجلةً تفسد الآجلة .. ثم حدث أن استعدى مؤيِّد الدولة علىَ أبى الفتح أخاه عضُدَ الدولة ، الذى كاد له عند ابن كامة ، وما كان من الأخير إلاّ أن قال " هذا الفتى يرتفع عن هذا الحديث ، لعلّ عدواً قد كاده بى ، وبينى وبينه مالا منفذَ للسحر فيه ... فلما شهد كاتبه الخثعمى بأنّ الخط الذى كُتبت به الرسالة إلى صاحب خراسان هو خطُّ أبى الفتح ، حالَ علىٌّ بن كامة عن سجيته ، وخرج من مسكنه وقال : ما ظننتُ بعد الأيْمان المغلظة التي بيننا أن يستجيز مثل هذا » .

هذا جانب من قصة المؤامرة على أبى الفتح بن العميد الذى قضى نحبه متمسكا بمبادئه على رغم ما دبّره له مؤيِّد الدولة وأخوه عضد الدولة **حكاها أبو حيان بأمانة واتقان ، متحرِّيا الصدق ووجه الحقيقة .**

٥- ويقول الدكتور الحوفى للبرهنة على دقة أبى حيان [(١)] ، فى نقل أحاديث علماء عصره " ومن ذلك أحاديثه عن علماء عصره وأدبائه ، ودقته فى نقل ما دار بمجالسهم من آراء وفتاوى (كقول ياقوت) · " وقال أبو حيان فى كتاب محاضرات العلماء : حضرت مجلس شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل ، المفقود الشكل أبى سعيد السيرافى ، وقد أقبل علَى الحسين بن مردويه الفارسىّ ، يشرح له ترجمة المدخل إلى كتاب سيبويه من تصنيفه ، فقال له : علِّقْ عليه . واصرف همتك إليه ، فإنَّك لا تدركه إلاّ بتعب الحواس ، ولا تتصوَّره إلاّ باعتزال الناس .

فقال (أى ابن مردويه) . أيَّد الله القاضى - أنا مؤثر ذلك ، ولكن اختلاف الأمر، وقُصور الحال يحول بينى وبين ما أريده ، فقال له : ألك عيال ؟ قال . لا قال عليك ديون ؟ قال · دريهمات .قال فأنت ريِّح القلب ، حسن الحال ، ناعم البال ، اشتغل بالدرس والمذاكرة ، والسؤاا والمناظرة واحمد الله تعالى على خفة الحاذ (قلة المال والعيال) وحسن الحال وأنشده .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

إذا لم يُكن للمـــرء مـــالٌ ولم يكنْ   له طُرقٌ يســـــعَى بـهنَّ الـولائدُ

وكــان له خـبـزٌ وملحٌ فـفـيـهـمـا   لهُ بُلغـــةٌ حــــتى تجئَ الموائدُ

وهلْ هى إلاّ جــوعــةٌ إنْ سَـدْدتَهـا   فكلُّ طعـــامٍ بين جنبــيكَ واحــدُ

٦- " قال أبو حيان وكان أبو سعيد يفتي [١] على مذهب أبى حنيفة وينصره فجرى حديث تحليل النبيذ عنده ، فقال له بعض الخراسانيين أيها الشيخ دعنا من حديث أبى حنيفة وقول الشافعي . ما ترى فى شرب النبيذ والقدْر الذى لا يُسكر ويسكر ؟ فقال . أما المذهب فمعروف لا عدولَ عنه ، وأما الذى يقتضيه الرأىُ ، ويوجبه العقل ويلزم من حيث الاحتياط ، والأخذ بالأحسن والأولى فتركُه والعدول عنه (أى ترك النبيذ والابتعاد) عنه .

وقال له . بيّنْ لنا - عافاك الله - فقال . اعلم أنه لو كان المسكرُ حلالا فى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكان على العاقل رفضُه وتركُه بحجّة العقل والاستحسان ، فإنّ شاربه محمول على معرة ، مدفوع إلى كل بليّة ، مذموم عند كل ذى عقل ومروءة .. " فقال الرجل . " والله إنّ قولك ووصفك له أعلق بالقلب من كل كلام واضح ، وبرهان لائح ، وحجة وأثر ، وقول وخبر .

فقال له لولا ذهاب الوقت لا عوض له لا ستدللت لكل خَصلْةٍ ذكرتُها ولفظة أوردتُها بآيةٍ من كتاب الله ، أو خبر مأثورعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتي قلتَ : إنّ الألفاظ مشتقة من ذاك ، مستنبطة منه ، ولكن الأمر فى هذا أظهر وأشهر ، من أن يبين ويوضح ، ولأبى حنيفة مسائل لا أرتضيها له ، وقد خالفه فيها أعيان أصحابه ، والناقلة لمذهبه ، ولكنْ لكل أريبٍ هفوة ، ولكل جواد كبوة ، والكلام إذا كثُر لا يخلو من الخطأ ، والقول إذا تتابع لا يعْرَى من تناقض ، والله المعين على أمر الدنيا والدين " .

٧- وفى آخر كتابه (أبو حيان التوحيدى) يقول الدكتور الحوفى :

" وبعد فقد اتُهم أبو حيان بالزندقة زورا ، ورأينا أنّ تعبده وتصوفه ، وأدعيته وما بقى من مؤلفّاته كفيلُ بدحض هذه التهمة ، وكذلك اتُّهم بالوضع والاختلاق ، ورأينا أنه آمين فيما نقل ، وفيما روى ، وفيما وصف ، وإذنْ فهو برئ من هذه التهمة

[١] المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٥٠ .

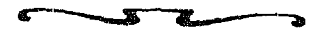
* أيضا ، ولم يكن الغرض من الحملات على الرجل إلا الغضّ من شأنه ، والتنفير من قراءة أدبه ، والإعجاب به ، لأسباب شتى بسطناها .

لكن الحقيقة تأبى إلاَّ أن تشرق ، فتمحو ظلمات التحامل ، والتجني والإغفال ، فإذا ابو حيان جديدر بأن يحتل مكانه في الصدارة بين كبار الأدباء والعلماء .

جزء من الرسالة السلفية التي أتهم أبوحيان بوضعها :

لعلَّ الذين ذهبوا إلى أن الرسالة موضوعة ردًا على الرافضة نظروا إلى أن الفكرة العامة للرسالة هي الرد علي من قالوا بأن عليًا أحق بالخلافة من أبى بكر ، فأثبتوا بهذه الرسالة أحقية أبى بكر بها .

كقول أبى بكر (مخاطبا عليا) « لئن كان عرَّض لك [1] رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ، فلم يكن مُعرضاً عن غيرك ، وإن قال فيك فما سكت عن سواك ، وإن تلجلج في نفسك شيئٌ فهُلمَّ فالحكم مَرْضِي ، والصواب مسموع ، والحق مطاع . ولقد نُقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ، وهو عن هذه العصابة راضٍ ، وعليها حذر ، يسرُّه ما يسرُّها ، ويسوؤه ما ساءها .... أما تعلم أنه لم يَدَعْ أحدًا من أقاربه وسُجّرائه (.أصدقائه.) إلا أبانه بفضيلة ، وخصَّه بمزيَّة ، وأفرده بحالة ... وبعد فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ، ودار جامعة ، إن استقالوني لك ، وأشاروا عندى بك ، فأنا واضع يدى في يدك ، وسائر إلى رأيهم فيك ، وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العَون على مصالحهم ، والفاتح لمغالقهم ، والمرشد لضالَّتهم، والرادع لغوايتهم ... ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغلِّ ، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضِّغن » .



(١) المرجع السابق ص ١٣٦ .

• دفاع عن أبى حيَّان التوحيدى :

لعل الاختلاف حول بعض الشخصيات التاريخية يجعلها [١] مثار الاهتمام ، ويدفع الباحثين دفعاً لتحليلها وإبداء الآراء فيها ، وأبو حيان التوحيدى أحد هؤلاء الرجال الذين اختُلف فى توصيفهم وتُنوزِع القولُ فيهم ، وأقصد بهذا **تلك المقدمة أو ذلك التصدير لكتاب أبى حيان (الإرشادات الإلهية)** بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوى ، فقد كتب تحت عنوان : (**أديب وجودى فى القرن الرابع الهجرى**) وأدهشنى هذا العنوان ، قبل أن اقرأ المقال ، وها أنذا سأعرض أهمَّ ماجاء فيه قبل أن أتصدى لتحليله والردِّ عليه ، دون تحاملٍ أو انفعال .

قال الكاتب « الكتابة ضرب من الصلاة - هكذا قال أفرنتس كافكا ، وإنَّ بين هذا الألمانى المسلول التسريد فى دنيا اللامعقول ، وبين صاحبنا العربى الغريب فى وطنه لَشابهٍ (على وزن مشابك) وأىَّ ـسابه . كلاهما تهاوت عليه الكوارث والأحزان من كل جانب ، و ـان لـ ـ. إرهاف الحساسة ، أو نصاعة الذِّهن ، وعمق الانفعال ما يجعله يستمد من هذه الويلات غذاء لروحه ومادة لتفكيره ، فأجهز على خلايا نفسه بمبضع التشريح الباطِّن حتى قضى على ذاته بذاته ، فقال كافكا عن نفسه (أنا منْ حَجَر ، بلْ أنا حجر لقبر نفسى) لا منفذ فيه للشك أو للإيمان ، للحبِّ وللنفور ، للشجاعة أوللقلق ، على وجه التخصيص أو وجه التعميم ، كلاَّ بل ثَمَّ أملٌ واحد غامض يحيا لكنَّه من نوع شواهد القُبور » .

وإنَّه ليدهش هو نفسه من هذا التحطيم المنظم لنفسه خلال سنين ، وكأنه أسد يتقدم ببطء نحو الانقضاض عليه، وهو يشاهد روحه تفضّل هذا كله ، مغتبطة بانتصاراتها على نفسها فلماذا لا يشارك أيضا فى هذا الاحتفال : الاحتفال بعيد قضاء ذاته على ذاته ، ويخيِّل إلى نفسه أنه صار كالجيفة ، أو كالذبيح وأن هناك غربانا سريَّة مستورة ترِّنق حوله . . وصاحبنا العربى (أى التوحيد ى) يصف نفسه وأطوارها فيقول " أمَّا حالى فسيئَّة كيفما قلَّبتَّها ، لأنَّ الدنيا لم تواتنى لأكونَ من الخائضين فيها[٢] . والآخرة لم تغلبْ علىَّ فأكونَ من العاملين لها ، وأمَّا ظاهرى وباطنى فما أشدَّ اشتباههما ، لأنى فى أحدهما متلِّطخ تلطُّخا لا يقربنى من أجله أحد، وأمَّا سرِّى وعلانيتى فممقوتان بعين الحقِّ لخلوهما من علامات الصِّدق ، ودنُّوهما من عوائق الرِّق ، وأما سكونى وحركتى فآفتان محيطتان بى ، لأنِّى لا أجد فى أحدهما

(١) الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى - مقدمة الكتاب من ص ١ إلى ١٨ .

(٢) المرجع السابق

حلاوة النجوى ، ولا أعَرى فى الآخر من مرارة الشكوى ، وأمَّا انتباهى ورقَدتى فما أفرِّق بينهما إلاَّ بالاسم الجارى على العادة ، ولا أجمع بينهما إلاَّ بالوهم دون الإرادة ، وأمَّا قرارى واضطرابى فقد ارتهنَنِي الاضطراب حتَّى لم يدْع فيَّ فضلاً للقرار ، وغالب، ظنِّى أنِّى قد علقت به لانه لا طمع لى فى الفكاك ولا انتظار عندي للانفكاك ، وأمَّا يقينى وارتيابى ، فلى يقينٌ ولكنْ فى دَرْكِ الشَّقاء ، فمن يكون يقينُه هكذا كيف يكون خَبَره عند الارتياب » .

ثم يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى : « وليس هذا منهما لمجرَّد الاستمتاع بالتغنِّى بالألم إرضاء لنزعة أدبيَّةٍ ، أو هاتف رومنتيكى بل كان فى حياة كُلٍ ما يعدو إلى هذه المرارة فى الشكوى ، يواكب هذا عرامة إحساس وينفذ من الظاهر إلى الباطن فلا يتَّخذ من الأحداث إلاَّ رموزا وعلامات على الجوهر الباطن فى أعماق الوجود كله ، فالألم الذى يحياه فى لحظة هو ألمٌ مرفوع إلى أُسٍّ السرمدية ، والانفعال الذى ينطبع في نفسه من موضوع محدود سرعان ما يُفتح على الوجود الواسع بأسْره ، وهذا ما يميِّز الأديب الوجودى الحقّ ، فكأيِّن من حَدث تافه عند الناس يصبح لديهم حدثَ الأحداث لا لمبالغةٍ فى تقديرهم ، أو إفراطٍ فى التخيُّل الجامح ، ولكن لأنَّهم يقولون مع جيته كلُّ حادثٍ رمزٌ ،فما بالك وقد لقُوا فى دنياهم عنتاً ليس بالهيِّن .

فكافكا ينتسب إلى شعبٍ مستأصلٍ شارد ،عليه اللعنة والنقمة ، أينما حلَّ وحينما سار ، وإن ادَّعى أنَّه (شعبَ الله المختار) [١] ، إلاَّ أن يكون مختاراً للشقاء وإشاعة الشرٍّ بين الناس ، وإهدارِ القيم النبيلة عند الآخرين ، وصاحبُنا لا نعرف له أصلاً إنَّما هو من أولئك الموالى الذين اختلطت فيهم الدماءُ والعناصر فكوَّنت مركَّباً غريباً ، على أنَّه يشعر بواشجة قربى مع الغرباء والأفَّاقين حتي لو كان لا يخالط إلاَّ « الغُرباء والمجتدِّين الأوفياء الأرذياء » وما هذا إلاَّ لشعوره بأنَّه واحد منهم ، إذْ كان يرتد إليهم مهما زجره عنهم زاجر من كبار القوم على أنَّ الأرجح أن يكون فارسيَّ الأصل ، مع احتمال دخول أجناس أخرى ، وبالجملة فهو آريٌّ فى غالب الظن ، ولاتك أنه كان يشعر بالذَّحَل العنصرى الذى كان بالغا أشدَّه فى عهده ، أعنى القرن الرابع الهجري خصوصا ، وقد بدأ عنصره ينتصر ، بل ويستقل بدويلات لا تكاد تربطها بمركز الخلافة إلاَّ أوهَى الروابط ، ومن هنا كانت عناية كليهما بأمر الشعوبيَّة ، وما ذلك إلاَّ لما يعانيه من تجربة أو شعور أليم يبلغ حد المأساة لأنه شعور عنصر بأمره . (فكلاهما يسير على قاعدة) : الابن الضائع يولع بالضائعة والنافلة والفضول » .

---

(١) المرجع السابق .

ثم تحدَّثَ الكاتب عن نشـأة كل من أفـرنتس كـافكا وهنريش هينه وتأثير التـربيـة الجافة على حياتهما وعلى كتاباتهما ، وأورد عبارة سارتر · إنَّ الناجحين فى الحياة هم الذين يتبعون طريق الأنذال أو الغشَّاشة ، ولا نريد ان نستطرد معه فيما تناوله عن الفلسفة الوجودية فى العالم الغربى وإيراده لروايات كافكا ، وأنَّها كانت انعكاسا لحياته المكبوتة ثم يقول· «ويلوُح لنا أنَّ حظَّ صاحبنا العربى لم يكن خيرا من حظ الألماني ، ونقول يلوح ، لأننا ليس لدينا وثيقة واحدة تبين لنا هذه الناحية ولكن نستخلصها من صمته ، فالصمت أبلغ من التصريح إذا ذُكر نسَبُه فكان يمنعه الحياء من ذكرهم » .

والعجب العُجاب فى قوله : «إنهَّما (أى التوحيدى وكافكا) التقيا فى النهاية واتفقا على أن عالم الإنسان هو عالم الخطيئة، والخطيئة هى الشعور بالتضاؤل فى إمكان الوجود، وأنه عالم القهر» وذكر أصحاب الروايات الشهيرة من غرب أوروبا وروسيا كمثل كيركجورد ودوستويفسكى . وإلى هذا الحد من كلام الدكتور بدوى نتوقف .

الرد على ما جاء فى هذه المقدمة :

أولا أنه لمن العجب بل إنَّه من أغرب ما يتوقعه القارئ [1] ، أن يجد مقدَّمة لكتاب «الاشارات الإلهية » تحت عنوان أديب وجودى فى القرن الرابع الهجرى ، ونتساءل : ما هى الوجودية ؟ وهل هى مذهب أم خيال أدبى لا يتعارض مع العقائد ؟ وهل يجوز لنا أن نطلق المسمَّيات الحديثة أو المستحدثة فى عصرنا هذا على وضعٍ ما لعصر بعيد الغور ، ظانِّين انطباق الوضعين فى كلا العصرين؟

ثانيا ما معنى الإشارات الإلهية ؟ أليست هى النظرات التأمُّلية التي تأخذ ذهن المتأمِّل إلى الحقيقة الربانية . كما يقول الشاعر .

وفى كل شيئ له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ

فهل هناك أديب وجوديٌّ يعرف هذه التجليات الإلهية ، التي يمنُّ الله بها على من يصطفيه من عباده لمناجاته .

ثالثا . هل الشكوى من الفاقة ، والتبرم من شظف العيش ، وشعور الإنسان بالحرمان يؤدى إلى تبنِّى مذهب اليأس من رحمة الله . هل اختبار الله لعباده فى المال

(١) المرجع السابق .

والجاه والولد وتحمل المشاق فى سبيل الدعوي يؤدِّى بهم إلى القنوط من رحمة الله . وما معني قول الله تعالى " حتى إذا استيأس الرسل [1] وظنوا أنَّهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا " .

رابعا : هل يفهم من مقال الدكتور أن مذهب الوجودية ليس وليدَ اليوم ؟ أى لم ينشأ فى أوروبا فى القرن العشرين وإنما هو قد نشأ فى أرض إسلامية فى القرن العاشر الميلادى على يد أبى حيان التوحيدى والسَّهروردى .

خامسا : يقول الكاتب " ... فالألم الذى يحياه (أى الأديب) فى لحظة هو مرفوع إلى أُسِّ السرمدية ، والانفعال الذى ينبلج فى نفسه [2] من موضوع محدود ، سرعان ما يُفتح على الوجود الواسع بأسره ، وهذا ما يميِّز الأديب الوجودى الحق " . وهو كلام فيه تقعيد " للكاتب الوجودى ، فإذا صحَّ هذا الكلام بالنسبة لأفرنتس كافكا ، فهل يصحُّ أن يقال لأديب إسلامي كالتوحيدي ، هل استشعاره الألم ، وشكواه مما ألمَّ به من فاقةٍ وحرمان ، ومصاحبته المتصوِّفة الفقراء يعنى أن هذا رمز وعلامة على جوهر هذا الشقاء داخل الوجود بأسره ؟

سادسا : إذا صحت هذه الفلسفةلمجتمع غربى تنمو فيه روح الانهزامية نتيجة القنوط وعدم الثقة او الإيمان بأن لهذا الوجود خالقاً ومدبِّراً يبدِّل ولا يتبدل ، هل إذا صحت هذه الفلسفة بالنسبة لذلك المجتمع تصح بالتالى على المجتمع الإسلامي فى القرن الرابع الهجرى ؟ هل انقصمت عراه عن الإسلام الحقيقى وما فيه من حقائق الإيمان ؟ .

سابعا : إذا حلَّلنا كلام أفرنتس كافكا وقارنَّاه بكلام التوحيدى سنجد الإثنين على النقيض من بعضهما بعضاً ، فالأول يقول . أنا من حجر بل أنا حجر لقبر نفسى ، أى وصلت إلى حالة عدم الشعور بنفسى أو بمن حولى فأنا حجر لا منفذ فيه للشك أو للإيمان أى وصلت إلى الحد الذى لا يعرف التشك ولا الإيمان، أو الحب أو النفور .. وهذا الكلام هو الذى انبنت عليه فلسفة الوجودية .

أما كلام النوحيدى ، فهو أجوبة عن أسئلة وجَّهها إليه صديق له شَعُر بما آل إليه حاله من فاقة وحرمان ، عقب رجوعه منَ منتجعه ، واهن النفس بلا طائل

(١) سورة يوسف الآية (١١٠) .
(٢) مقدمة كتاب الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى من ص ١ إلى ١٨ .

من دينار أودرهم ، فيقول له · أخبرني عن حالك الآن وعن ظاهرك وباطنك ، وعن سرك وعلانيتك ، وعن سكونك وحركتك ، وكيف أنت في يقظتك ورقدتك ، وما حالك في حلِّك وترحالك ، فلنستمع إلى أجوبته عن هذه الأسئلة

« أمَّا حالى فسيئة كيفما قلَّبتها » والسبب [1] فى ذلك أنه لم يحظ بشئ مما كان يأمله فى هذه الحياة الدنيا ، وليس هو من الأتقياء – كما يقول – الذين يفضِّلون الآخرة على الدنيا فيرضون بالقليل .

وأما ظاهرى وباطنى فما أشد اشتباههما · لأنى فى أحدهما متلطخ تلطخا لا يقربنى من أجله أحد « أى ظاهرى الجرْىُ وراء متاع الدنيا الذى جعل الناس تنفر منى » وفى الأخر متبذخ تبذخا لا يهتدى الى رشد «أى باطنى ليس عميقا وإنما هو ظاهر للعيان بعيد عن الهداية الحقة» .

« وأما سرى وعلانييتى فممقوتان بعين الحق ، لخلوهما من علامات الصدق، ودنوهما من عوائق الرق » أى أعمالى فى السر والعلن يبغضهما الله تعالى ، فالحالتان مقوتتان بعين الحق ، لأنى فى حالتى السِّر والعلن أتظاهر بالفضيلة ، وفي كلتا الحالتين ألقي بنفسى فى قيود الرق وهي أوضار الحياة الدنيا .

" وأما سكونى وحركتي فافتتان محيطتان بى ، لأني لا أجد فى أحدهما حلاوة النجوى ، ولا أعرَى فى الآخر من مرارة الشكوى ، أى مُقامي وتنقلى كلاهما آفتان لى ، لأنى إذا خلوتُ بنفسى فى الحالة الأولى لا أجد حلاوة النجوى ، وفى حالة تنقلى أجدنى عريانا مُنتَقدا لتزلفى للآخرين .

" وأما انتباهى ورقدتى فلا أفرق بينهما إلاَّ بالاسم " أى لا أعرف اليقظة من المنام فى كلتا الحالتين .

" وأما قرارى واضطرابى " أى استقرارى وسفرى ، وهما مرادفان للسكون والحركة اللذين اشرنا إليهما ، ويذكر أنه تعوَّد على الاضطراب أى السفر ، والاستقرار لا يحقق ما يريد .

" وأما يقينى وارتيابى ، فلى يقين ، ولكن فى دَرْك الشَّقاء ، فمن يكون يقينه هكذا كيف يكون خبره عن الارتياب " أى إذا سألتنى عن اليقين أو الإيمان ، فأنا مؤمن ولدى يقين ، ولكن مآلى إلى الشقاء ، وكما هو الحال فى الدنيا ، وإذا كان هذا هو ردى بالنسبة لليقين ، فهل ثَمَّة ارتياب مع هذا اليقين .

---

(١) المرجع السابق .

وبعد تحليلنا لكلا القولين فليس لنا تعليق بعد ذلك [١] إلاَّ أن نقول . إننا يمكننا أن نصنِّف أبا حيان التوحيدى فى طبقة المُكدِّين الظرفاء من الكتاب لا فى طبقة الوجوديين . (وأقصد بالظرفاء الساخرين من أنفسهم لما يلقونه من متاعب وآلام) .

ثامنا . ذَكر الكاتبُ أنَّ الأديبين يستشعران العنصريَّة ، فإذا صحَّ هذا بالنسبة لكافكا اليهودى الذى تعرَّض للتمييز العنصرى ، فى ألمانيا النازية فهل يصحُّ هذا بالنسبة للتوحيدى الذى لم يتفق المؤرِّخون على نسبِه ، والذى لم يستشعر التفرقة العنصرية ، فى أيّة كتابةٍ من كتاباته ، وإذا كان الكاتب يرجِّح الرأى القائل بأنه فارسى – مع أنَّه يشير إليه بصاحبنا العربى – وفى ذات الوقت يؤكد غلبَة العنصر الفارسى فى عصره ، فكيف بالله يكون حال أبى حيان من الجُهد والفاقة إلى هذا الحدِّ وهو من بنى ساسان الحكام آنئذ كما حكَى الكاتب؟

تاسعا · هل وَجَد الكاتبُ مناداة بالشعوبية فى أدب أبى حيان ، بل لو أنه قرأ أدبه بإمعان لوجد كيف تصدَّى للمنادين بها كالجيهاني ، وما أورده من كلام أبى حامد المروروذى [٢] فى تبكيت عقائد الفرس القديمة واعتزازهم بأصولهم ، وليست الشعوبية مرادفة للعنصرية · فالعنصرية اصطلاح حديث للأسس التي ينادى بها دعاة التمييز بين الناس عموماً ، وأمَّا العبارة التي أوردها الكاتب واصفاً بها حال التوحيدى بأنه لا يخالط " إلاَّ الغرباء [٣] والمُجْتَدِّين الأدنياء الأردياء " فهذه العبارة وردت على لسان صديقه أبى الوفاء المهندس ، وهو يعدِّد فضائله عليه بأنه هيَّأه لمجالسة الوزير ابن سعدان ، بعد أن كان فى حالة مُزرية، وهذه الحالة ألجأه إليها الفقر والحرمان ، فليست هذه فلسفته فى الحياة لتقعيد المذهب الوجودى كما زعم الكاتب .

عاشرا : وأخطر ما فى كلام الكاتب قوله عن التوحيدى وكافكا " أنَّهما التقيا فى النهاية واتفقا على أن عالم الإنسان هو عالم الخطيئة ، والخطيئة هى الشعور بالتضاؤل فى إمكان الوجود وأنه عالم القهر " . وهذا الكلام إنْ دل على شيئ فإنَّما يدل على أن التوحيدى – كما زعم الكاتب – يؤمن بالتعاليم المسيحية المبتدعة التي

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان جـ/١ ص ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٧ .

تقول . إن الإنسان عليه أن يتحمل خطيئة آدم الذى خدعه إبليس وأخرجه من الجنة إلى عالم البؤس والآلام .

وأخيرا سأردُّ على الدكتور عبد الرحمن بدوى وعلَى مَنْ شكَّك فى عقيدة أبى حيان التوحيدى بهذه القصيدة : (ولا تعنى أننى أُبكِّت أحداً أو أننى عجزت عن الايفاء فى الردِّ عليه نثرا) :

أبو حيانَ لم يكُ بالوُجودي ... ولا متنصِّراً أو باليهودي
حنيفاً مُسلماً قد كان حقًّا ... ولم يتعدَّ أعتاب الحُدود
مِن التوحيد مشتقٌّ سنَاهُ ... فأنىَّ أن يسيرَ إلى الجُحود
فإن أورَى زناد الفكرِ دوماً ... وأوغلَ فى المجاهلِ والصُّعود
فهل يتقَولون لذا عليه ... بتَرْك عقيدة الأبِ والجدود
أما قرأُوا الإشارات اللواتى ... يُثَبِّتْن العقيدة فى اللُّحود
هوامله شِوامُله دليلٌ ... علَى الإيمانِ ليس على الجُمود
وتلكٍ مقابساتٌ قد وعاها ... عن الدنيا بإشهاد الشهود
ورغمَ الفقر أولَى العلْم ذهناً ... فذلكمو الدليلُ على الصمود
وذلكمو الدليلُ على حجاهُ ... فلم يكلَفْ بربَّاب النهود
ولم يسلكْ سوى النجوى طريقاً ... بشكواهُ إلي ربِّ الوجود
وإن أبدى التبرُّم والتجافي ... فذا سُخطٌ علي عصرٍ كَنود
لأنَّ النفس تشتاق انتصافاً ... وغُنماً فى الحياة بلا حدود
ولكنْ أقعدته عن المعالى ... معاناةٌ تُكافا بالصدود
فآثر أن يبيت بلا كساءٍ ... ولازادٍ ، وأخلد للقعود

• إحراقه كتبه تبرماً من حياته البائسة :

إنَّ المعاناةَ والألم اللذين عايشهما أبو حيان التوحيدى طيلة حياته البائسة ، ودفعاه فى آخر أيَّامه أن يحرق كُتبه ، فى غمرةٍ من النقمة والألم واليأس [1] والوسواس ، وقد أرسل فى عام أربعمائة هجرى رسالة إلى القاضى أبى سهل على بن محمد ردا على رسالة القاضى التي عذله فيها على فعلته ، وعرَّفه قبح ما ارتكب من خطأ ، وقد ذكر أبو حيان فى أثناء رده على رسالة القاضى أسباب إقدامه على إحراق كتبه .

وقبل أن نورد رسالته تلك التي ذكرها ياقوت ونناقشه فيها ، نذكر نبذة أو مثالاً يدلُّ على مدى الفاقة والحرمان اللذين عاناهما هو ومن عاش مثلَه فى ذلك العصر ، لنؤكِّد أن البؤس كان السِّمة الغالبة على العلماء والمفكرين فى ذلك العصر ، وربما كان أبو حيان أحسنَ حالاً من غيره لأنه قد أتيحت له فرصة مجالسة بعض الوزراء فى ذلك الوقت وإنعامهم عليه بما يحتاج .

مثال للبؤس والفاقة والحرمان عند أدباء ذلك العصر :

قال أبو حيان فى مقدمة كتابه (الصداقة والصديق) : « ومن العجيب [2] والبديع أنَّا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحُرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والومد (الغضب) .. وذاك لعلمك بحالي واطلاعك على دَخْلتي ... لأنى فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق مشفق ، والله لربَّما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتُّفق فبقَّال أو عصَّار أو نداف أو قصَّاب .. فقد أمسيتُ غريبَ الحال ، غريب اللفظ ، غريب النِّحلة ، غريب الخُلق ، مستأنِساً بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحيرة .. »

وذكر فى كتابه (المحاضرات) ألوانا من بؤس الأدباء وشكاياتهم ، منها ما أنشده إيَّاه أبوبكر القُومِسى الفيلسوف ، ووصفه بأنه كان من الضُرِّ والفاقة ومقاساة الشدة والإضافة بمنزلة عظيمة ، ونقل عن أبى بكر (القُومسى) وصفه لنحسه بقوله ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسانٍ ما بلغ منى ، إنْ قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لأتيمَّم بالصعيد عاد صلداً أملسَ ، ثم أنشده قصيدة للعَطَوى ، تصوِّر البؤس والنحس سجَّلها أبو حيان .

---

(١) د. أحمد محمد الحوفى – أبو حيان التوحيدى حـ/١ ص١١٤ ، ١١٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٤ ، ٨٥ .

ويعلن أبو حيان فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) زهده فى [1] الغنى لأنه شُغل بما هو أهم ألا وهو طلب القوت « على أن الزهد فى هذا الشأن قد وضع عنا ، وعن غيرنا مؤونة الخوض فيه ، والتعنِّى به ، والتوُّفر عليه ، وتقديمه على ما هو أهم منه ، أعنى طلب القوت الذى ليس إليه سبيل ، إلاّ ببيع الدِّين ، وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه ، وكدِّ البدن ، (وتجرُّع الأسى ومقاساة الحُرقة ، ومضِّ الحرمان) ، والصبر على ألوان وألوان ، والله المستعان » .

فهل فعل هذا أبو حيان بحق ؟ هل باع دينه بدنياه ؟ هل أخلق مروءته وأراق ماء وجهه ؟ لو قبل هذا لَمَا عاني شظف العيش والحرمان ، ولكنه أخلص فى التحقيق والتدقيق وإظهار الناس على حقيقتها ، مما ألَّبهم عليه ، فحاربوه فى قوته ، وضيَّقوا عليه معيشته .

ومن أسباب ما ألمَّ به من التعاسة والبؤس أنه كان شديد الخوف [2] ، وضعيف العزيمة ، كثير الهيبة ، ومن هنا ملَّ الوراقة والنسخ ، وتطلع إلى كسب أيسر وأسهل ، ولم يتَّجه إلى الارتزاق من عمل آخر يشعر فيه بالحرية والكرامة ، على كثرة ما مُنِىَ به من تصريح الأمل .

سأله الوزير ابن سعدان " لِمَ لا تُداخل صاحب الديوان ، ولِمَ ترضى لنفسك بهذا اللَّبوس ؟

فقال . أنا رجل حب السلامة غالب علىَّ ، والقناعة بالطفيف محبوبة عندى .

فقال الوزير : «كَنَيْتَ عن الكسل بحب السلامة ، وعن الفُسولة بالرضا باليسير » .

لهذا نقول · أين هو من الفقير المعدم الذى لا يستسلم لحياته البائسة وإنَّما يسعى جهده للتغلب على بؤسه وشظف عيشه ، أين هو من عروة الصعاليك الذى يقول .[3]

ذرينى للغِنَى أسعى فإنِّى	رأيتُ النَّاسَ شرُّهُم الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهم	وإنْ أمسَى له حسَبٌ وخيرُ
ويُقصيهُ النديُّ وتزدريه	حليلتُه وينهَرُه الصَّغيرُ
وتلقَى ذا الغِنَى ولَهُ جلالٌ	يكادُ فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبه والذنب جمٌّ	ولكنَّ الغِنَى ربٌّ غفورُ

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان جـ/٢ ص ١٤٣

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ (جـ/١)

(٣) المرجع السابق ص ٦١ .

ومن العجب العجاب أنَّ أبا حيان كان يستشهد بهذه الأبيات ولكنَّه لم يعمل بما تقتضيه ، لهذا فقد وصل فى أخريات أيامه إلى حالة من القنوط والبؤس والآلام المضَّة دفعته إلى إحراق كتبه .

رسالة أبى حيان إلى القاضى أبى سهل :

لما أحرق التوحيدى كتبه أرسل إليه القاضى أبو سهل (١) علىُّ بن محمد يعذله على فَعْلته ، يعرِّفه قبح ما ارتكب ، فرد عليه أبو حيان يعتذر من ذلك فى كتاب طويل حاول فيه تبرير عمله ، وصوَّر فيه أطرافا من حياته ، ورسالته هذه - وإن كان غير محق لتبريراته التي أوردها فيها - تعد فريدة فى الأدب العربى ، لأنها تصوِّر لنا مدى الضِّيق واليأس اللذين يصل إليهما الأديب إذا اكتنفه الإغفال والنكران ، وأحاطه البلاء من كل مكان ، فيقدم على أعز شيئ لديه فيحرقه تبرُّماً بالحال التي يصل إليها ، وفى هذه الرسالة يقول : " حرسك الله ايها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك ، وأعاذنى من مكافأتك على ذلك ، أجارنا جميعا مما يسوِّد وجه عهد إن رعيناه كنا مستأنسين به ، وإن أهملناه كنا مستوحشين عن أجله ، وأدام الله نعمتهُ عندك ، وجعلنى على الحالات كلها فداك.

وافانى كتابك .. الذى وصفت فيه ما نال قلبك ، (٢) والتهب فى صدرك من الخبر الذى نُمِّى إليك فيما كان منِّى من إحراق كتبى النفيسة بالنار ، وغسلها بالماء ، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك فى ذلك (أى أنا فى عجب لأنك لم تعذرنى) كأنك لم تقرأ قوله جلَّ وعز " كلُّ شيئٍ هالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ، له الحكمُ وإليه تُرجَعُونَ " وكأنك لم تأبه لقوله تعالى " كلُّ مَنْ عليْها فان " وكأنك لم تعلم إنه لا ثبات لشئ من الدنيا ، وإن كان شريفَ الجوهر ، كريم العنصر ، ما دام مقلَّبا بين الليل والنهار ، معروضا على أحداث الدهر وتعاوير الأيام .

ثم إنى أقول . إن كان - أيَّدك الله - قد نَقَب خُفَّك ما سمعتَ ، فقد أدمى أظَلى (باطن أصبعى) ما فعلت ، فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه ، حتي استخْرتُ الله عز وجل فيه أياما وليالىَ ، وحتي أوحَى إلىَّ فى المنام بما بعث راقد العزم، وأجَدَّ فاتر النية ، وأحيا ميِّتَ الرأى ، وحثَّ على تنفيذ ما وقع فى الروع ، وتريَّع (تحيَّر) فى الخاطر .

---

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى ص ١١٥ حـ/١ .

(٢) ياقوت . معجم الأدباء جـ/١٥ - ص ١٦ - ٢٦ .

وأنا أجود عليك الآن بالحجة فى ذلك إن طالبت ، أو بالعذر إن استوضحت لتثق فى ما كان منِّى ، وتعرف صنع الله تعالى فى ثَنيِه لى (المراد صنعه لى) إن العِلْمَ - حاطك الله - يراد للعمل ، كما أن العَملَ يراد للنجاة ، فإذا كان العمل يراد للنجاة ، وإذا كان العمل قاصرا على العلم كان العلم كَلاًّ على العالِم ، وأنا أعوذ بالله من عِلم عاد كَلاًّ وأورث ذُلاًّ ، وصار فى رَقبة صاحبه غُلاًّ .

ثم اعلم - علَّمك الله الخير - أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان علانية فلم أصبْ من يحرص عليه طالبا .

على أنى جمعتُ أكثرها للناس ، لطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولَمِدِّ الجاه عندهم ، فحُرمت ذلك كلَّه ، ولا شكَّ فى حسن ما اختاره الله لى ، وناطه بناصيتى ، وربطه بأمرى .

وكرهتُ مع هذا وغيره أن تكون حُجَّة علىَّ لا لى[1] ، مما شحذ العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، أنىِّ فقدت ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبا ، وصاحبا قريبا ، وتابعا أديبا ، ورئيسا منيبا (يريد المستحقين لهذه الكتب لا وجود لهم) . فشق علىَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنِّسون عِرْضِى إذا نظَرُوا فيها ، ويَشمتون بسهوى وغَلطِى إذا تصفَّحوها ، ويتراءون نقصى وعيبى من أجلها .

فإن قلت ، ولمَ تَسِمْهم بسوء الظنِّ ؟ وتقرِّع جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابى لك إن عِيانى منهم فى الحياة هو الذى يحقق ظنِّى بهم بعد الممات ، كيف أتركها لأناسٍ جاورتُهم عشرين سنةً فما صحَّ لى مِن أحدهم وِداد ولا ظَهَر لِى مِن إنسان منهم حفاظ؟

ولقد اضطررت بينهم ، بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخُضَر فى الصحراء ، وإلى التكفُّف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين ، والمروءة وإلى تعاطى الرِّياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحُرِّ أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم .

وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلتُه بخافٍ عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدَّة تتبعك وتفرغك ، وما كان بجب أن ترتاب فى صوابِ ما فعلتُه وأتيتُه ، بما قدمتُه ووصفتُه ، وما أمسكتُ عنه وطويته ، إما هرباً من التطويل ، وأما خوفاً من القال والقيل .

---

(١) المرجع السابق

وبعد فقد أصبحتُ هامةَ اليوم أو غد ، فإنى فى عُشْرِ التسعين ، هل لى بعد الكَبِرة والعجز أملٌ فى حياةٍ لذيذة ، أو رجاءٌ لحالٍ جديدة ألستُ من زمرة من قال القائل فيهم:

نـروح ونـغـــــــدو كـلَّ يـوم ولـيـلـةٍ وعـمَّـــا قـريـبٍ لا نروحُ ولا نـغـدو[1]

وكما قال الآخر

تفـوّقْتُ دَرَّاتِ الصِّـبـــا فى ظلالهِ إلىَ أن أتانى بالعظَات مـشـيـبُ

والله يا سيِّدى لو لم أتَّعظْ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان فى هذا الصُّقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكَفى ، فكيف بمن كانت العين تَقَرُّ بهم ، والنفس تستنير بقُربهم.

فقدتُهم بالعراق والحجاز والجبل والرَّى وما إلى هذه المواضع ، وتواتر إلىَّ نعيُهم ، فهل أنا إلاَّ من عنصرهم ؟ وهل لى محيد عن مصيرهم ؟ أسأل الله تعالى ربَّ الأولين والآخرين ، أن يجعل اعترافى بما أعرفه موصولا بنزوعى عما أقترفه إنه سميع مجيب.

وبعد فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتَدى بهم ، ويُؤخذ بهديهم ، ويعُشى إلى نارهم ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر ، ووَرع معروف ، دَفَن كتبه فى بطن الأرض ، فلم يوجد لها أثر .

وهذا داود الطائى – وكان من خيار عباد الله زُهداً وفقهاً وعبادة ، ويقال له تاج الأمة – طرح كتبه فى البحر ، وقال يناجيها نعمَ الدليلُ كنتِ ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناءٌ وذهول ، وبلاءٌ وخمول .

وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه إلى غارٍ فى جبل ، وطرحها فيه وسدَّ بابه ، فلما عوتب على ذلك قال : دلَّنا العلْمُ فى الأول ثم كاد يضلُّنا فى الثانى فهجرناه ...(إلى أن يقول) : وإذا أمعنتَ النظر ، تيقنتَ أن لله جل وعزَّ فى خلقه أحكاماً لاُ يعازُّ عليها ولا يغالب فيها ، لأنه لا يبلغَ كنُهها ولا ينال غيبها ولا يعرف قابُها (قدرها) ولا يقرع بابُها.

وهو تعالى أملَكُ لنواصينا ، وأطلع على أدانينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، وبيده الكسر والجبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر ... والسلام .

---

(١) المرجع السابق .

ملخص الرسالة والملاحظات عليها :

بدأ التوحيدى رسالته بالتسليم بأن كل حى مصيره للفناء إلاَّ الخالق سبحانه ، وأنه استخار الله تعالى فى حرق كتبه ، يزعم أنه أوحِيَ إليه فى المنام بما يؤيد رأيه فى إحراقها . وقال " إن العلم – حاطك الله – يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل قاصرا عن العلم ، كان العلم كَلاًّ (أى عبئا) على العالِم " أى أن علمه الذى أودعه بطون هذه الكتب لم يطبقه عمليا فهو عبء سيتحمل تبعته ، كما أنه لم يجد من يسعى إلى الاستزاده من هذه الكتب ، وقد أجهد نفسه فى كتابتها وإيصالها إلى ذوى الجاه فلم ينل الحظوة عندهم ، وقال . " وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حُجّة علىَّ لا لى " ولما كانت هذه الكتب لم تكسبه الوجاهة بين الناس فهل يؤمِّل منها جزاءً عند الله ، وهو قد ألَّفها لحياته الدنيا التي خذلته ؟ وجعل أمله فى عفو الله ورحمته لا فى مصنَّفاته وكتبه .

كذلك لم يجد من يفهم كتبه فى حياته فخاف على إساة فهمها بعد وفاته ، أو أن يتخدها الناسٍ بعد وفاته أساساً للنيل منه ، وبعد أن جاوز الثمانين من عمره فلا أمل فى حياة لذيذة بعد هذا العناء وهذه المكابدة ، أن حسرته على خلاَّنه الذين رحلوا قبله جعله يقطع الأمل فى هذه الحياة الدنيا ، وأن له أسوة بالعلماء الأجلاءّ الذين أقدموا على مثل ما فعل ، خاصة وقد انتهي وقت المباحة بالعلم واستوجب الأمر أن يطلب من الله حسن الخاتمة .

ويلاحظ من هذه الأسباب التي قدمها أبو حيان لاحراقه كتبه ما يلى :

١– إن الأثر الأدبى هو ملك للإنسانية جمعاء فمتى خرج هذا التاج إلى الحياة وصاحبه راضٍ عنه فلا ينبغى له أن يهلكه بعد إعادة النظر فيه .

٢– الدليل على ذلك أن أهم كتبه ما تزال بين أيدينا وتقرأ فى كل مكان وزمان ، فإن حرقه للنسخ التى كانت معه لم يقضِ على حياة تلك المؤلفات .

٣– إن المرء إذا جاوز الثمانين له الحق أن يدير ظهره للحياة الدنيا ، وليس هذا معناه أن يطوى عمله الذى عمله قبل بلوغ هذه السن ، فالسأم من الحياة فى تلك السن مفترض خاصة وأنه عاش حياة بائسة ، وزهير يقول .

سئِمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يعِشْ ثمانينَ حولاً – لا أبالَك – يسأمِ .

٤- إن ارادة الله تعالى شاءت أن تَبقى هذه المؤلفات يستفيد منها كل مستفيد كأثر أدبى فريد . أمَّا ما جاء فيها من كشف أسرار وهتك أستار ، وقذف وإيذاء ، ومدح مسرف وهجاء ، فهذا مرده إلى الله تعالى وهو أرحم الراحمين .

٥- إن أبا حيان حين أقدم على إحراق هذه الكتب رأى نفسه كالذى يقدم على إهلاك فلذة كبده ولذا استشهد بالآيتين الكريمتين اللتين يُستشَهدُ بهما عند موت كل حبيب وعزيز .

لماذا وصلتنا أهم كتبه بعد أن أحرق أغلبها :

لقد وصلنا من كتب أبى حيان التوحيدى كتاب

« الإمتاع والمؤآنسة » وهو من أهمِّ الكتب التى ألَّفها بعد اتصاله بالوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة بن بويه . فهل كان قد أحرق هذا الكتاب في عام ٤٠٠هـ والذى وصلنا هو كتاب آخر ؟ بالتأكيد فإن كتاب الإمتاع والموآنسة الذى وصلنا هو ذاته الذى ألَّفه التوحيدى . فإن كان ضمن الكتب التى أحرقها فقد شاء الله تعالى أن تسلم إحدى نسخ هذا الكتاب من الإحراق . وقس على ذلك الكتب الأخرى التى وصلتنا ومنها .

١) الاشارات الإلهية وقد حققه الدكتور عبدالرحمن بدوى . وقد اطلعت عليه ، وسبق التعقيب على المقدمة التى وضعها المحقق .

٢) الهوامل والشوامل[١] : وقد طبعت بتحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، ولنا لقاء مع هذا المؤلف فى الجزء التالى إن شاء الله .

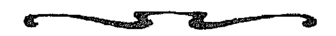
٣) مثالب الوزيرين : وقد أورده ياقوت الحموى فى الجزءين الرابع عشر والخامس عشر من كتابه معجم الأدباء الذى حققه الدكتور أحمد فؤاد رفاعي ولنا معه أيضا لقاء فى الجزء التالى إن شاء الله .

٤) الصداقة والصديق . وقد أورده كاملاً ياقوت الحموى في كتابه معجم الأدباء فى الجزءين المذكورين ، وقد أطلعت على ماكتبه الحموى وما نقله عنه الدكتور أحمد محمد الحوفى .

---

(١) لم يذكر هذا الكتاب ضمن المؤلفات التى أوردها ياقوت الحموى منسوبة إلى أبى حيان التوحيدى .

هذه الكتب الأربعة مضافا إليها كتاب «الإمتاع والمؤانسة» وهو أهمها جميعاً وفيه خُلاصة فكر أبي حيان وقد حققه الأستاذان د. أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، أقول : هذه الكتب الخمسة هى أهم مصادر هذا الكتاب عن أبى حيان التوحيدى ، وهناك مؤلفات أخرى له نقلها إلينا ياقوت الحموى فى مؤلفه المشهور (معجم الأدباء) وهى كافية لإثبات جدارة أبى حيان التوحيدى بالبحث والدراسة . ولايغض من شأن هذا المؤلَّف شىء إذا كنت لم أعتمد فى تأليفه على مراجع سواها .



- ٤ -

أبو حيان التوحيدى
نماذج من مؤلفاته

تمهيد :

- الهوامل والشوامل
- الإمتاع والمؤانسة
- مثالب الوزيرين
- خصائصه الفكرية والفنية ومووازنته بكتاب عصره .



أبو حيان التوحيدى
نماذج من مؤلفاته

تمهيد :

تحدثنا فى الأجزاء السابقة من هذا الكتاب عن عصر أبى حيان السياسى والعلمى والأدبى – كما تحدثنا عن معالم حياته وأخلاقه وثقافته – وصلاته بوزراء عصره وأسلوبه الفلسفى الفريد الذى جعله فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، وريادته للتحليل النفسى للإنسان ، ثم تحدثنا عن الذين طعنوا فى عقيدته ورموه بالزندقة وعن الذين برأوه من هذه التهمة ، وتحدثنا أيضا عن اتهامه بالوضع مع أنه كان أميناً فى النقل متحريا الصدق فى الرواية ، ثم تعرضنا لمن ادعي بأنه أديب وجودى عاش فى القرن الرابع الهجرى فرددنا عليه – بتوفيق الله – رداً مقنعاً ، وأخيرا – ذكرنا حادثة إحراقه لكتبه فى أواخر حياته ومابدا لنا من ملاحظات عن هذه الواقعة .

وقد آن لنا أن نتحدث بإيجاز عن بعض مؤلفات التوحيدى – مستعينين بالله تعالى – فنقول . إن مؤلفات التوحيدى – على ما لها من عظم الشأن – لم يبق الدهر منها إلاّ الاقل ، ولكنّ ما أبقاه فيه الإفادة والكفاية ، ولو لم يبق من مؤلفاته إلاّ الإمتاع والمؤانسة لكفى ، وإنّى إنْ كنت فى تعرضى لهذه المؤلفات لم آت بجديد عمّا قاله مَنْ سبقنى من الأساتذة الأجلاّء فإنّما أعرض بعضها مردداً بعض ما قالوه للذّكرى لأنّ " الذكرى تنفع المؤمنين " .

قال الدكتور الحوفى «عرضت لمؤلفاته [1] كلها ، وحللت ما سلم من عوادى الدهر ، وذكرت من كل كتاب نماذج ، ثم درستُ فى تفصيل خصائصه الفكرية والفنية ، ورأيت أن الخصائص لا تتكشّف على حقيقتها إلاّ بالموازنة المنصفة بينه وبين كتّاب عصره .

وإذا كان أبو حيان كلفاً بالجاحظ ، وتردّد فى القديم وفى الحديث أنّه خليفة الجاحظ، كان لابدّ من الموزنة بينهما .

وفى نهاية الدّراسة خاتمة سجلتُ فيها ما هدتنى إليه الدّراسة من جديد» .

هذا ما ذكره الدكتور الحوفى فيما يتعلق بتحليله لمؤلفات التوحيدى التي أبقى عليها الدهر فيما أبقى ، لكننا لا نستطيع أن نقوم بهذه المهمّة التي قام بها وتصدى لها ،

---

(١) مقدمة كتاب أبي حيان التوحيدى للدكتور الحوفى .

ولذا فإننّا نردد الحكمة المأثورة أو المثل القائل " رحم الله امرءًا عَرف قدْرَ نفسه ، ونَعِدُ القارئ الكريم بالقيام بعرض ما أمكن عرضه من مؤلفات التوحيدى وهى . الهوامل والشوامل ، ثم الإمتاع والمؤانسة ثم مثالب الوزيرين .

وفي نهاية الكتاب نتحدث عن خصائصه الفكرية والفنية ونعرض موازنة بينه وبين كتّاب عصره ، وخير عبارة نقولها فى هذا الصدد هى كلمات العماد الأصبهانى « لا يكتب إنسان كتاباً فى يومه ، إلاّ قال فى غده . لو غُيِّر هذا لكان أحسَنَ ، ولو زيد كذا لكان يستحسَنُ ، ولو تُرك هذا لكان أفضل ، وهذا من أعظَم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النَّقص على جُملة البشرِ ".

أو عبارة الدكتور الحوفى " ولست أزعم أننى – فيما خالفت فيه[1] – صاحب الرأى الصائب ، لأن من المجازفة أن يدَّعى باحث لنفسه كل الصواب ، فإن الدراسات تكشف كل يوم عن جديد ، وتميط الستار عن حقائق كانت مجهولة بالأمس " .

مؤلّفات أبي حيّان التوحيدى التي أوردها صاحب معجم الأدباء :

ذكر ياقوت فى معجمه المؤلَّفات التالية للتوحيدى .

١- الهفوات لابن الصابى

٢- الصديق والصداقة (الصداقة والصديق)

٣- الاشارات الإلهية (جزءان)

٤- الإمتاع والمؤانسة (ثلاثة أجزاء)

٥- المقابسة (المقابسات)

٦- الزلفة .

٧- الرد على ابن جني فى شعر المتنبى

٨- رياض العارفين .

٩- تقريظ الجاحظ .

١٠- ذم الوزيرين (مثالب الوزيرين)

١١ الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي.

(١) المرجع السابق ص ٥ .

١٢- الرسالة البغدادية

١٣- الرسالة فى أخبار الصوفية

١٤- الرسالة فى الصوفية أيضا .

١٥ - الرسالة فى الحنين إلى الأوطان

١٦- البصائر . (عشر مجلدات) أو البصائر والذخائر .

١٧- المحاضرات والمناظرات .

ولم يذكر ياقوت هذه الكتب :

١٨- الهوامل والشوامل

١٩- ثمرات العلوم

٢٠- الحجيج [1]

٢١- رسالة فى العلوم [2]

وأغلب الظن أن كتاب الحجيج هو كتاب الحج العقلى

٢٢- رسالة لأبى بكر الطالقانى [3]

٢٣- رسالة الحياة [4] .

* * *

---

(١) المرجع السابق جـ/٢ ص ٨ عن امراء البيان لمحمد كرد على .

(٢) المرجع السابق ص ٨ عن الصداقة والصديق لأبى حيان .

(٣) المرجع السابق ص ٨ ذكرها بروكلمان وقال إنها مخطوط فى لندبرج .

(٤) المرجع السابق ص ٨ ذكرها بروكلمان وقال إن منها مخطوطا فى مكتبة تسهيد على .

• الهوامل والشوامل :

سبق الإشارة إلى هذا الكتاب واقتباس نماذج منه تتعلق بسلوك الإنسان الخُلقى (السيكلوجي) والنفسى (الفسيولوجى) ، وذلك عند الحديث عن موضوع تحليل أبى حيان للسلوك البشرى والنزوع النفسى . حيث عرضنا بعض أسئلة فى هذا الموضوع والتي وجَّهها إلى أستاذه أبى على أحمد بن يعقوب بن مَسكَويه (والذى يسميه أبو حيان مسكويه فقط) . وقد ردَّ عليه ذلك الفيلسوف رداً حكيما مقنعا .

وكتاب (الهوامل والشوامل) أثر فريدٌ فى التراث العربى لهذين العلمين الجليلين ، تعرَّضت فيه تساؤلات التوحيدى وأجوبة مسكويه لكافَّة مظاهر الحياة . وهموم الإنسان وتساؤله عن الماضى التليد والمستقبل الرهيب ، وعن أمور غريبة فى سلوك الناس .

تفسير الهوامل والشوامل :

وقد فسَّر الأستاذان [1] محقِّقا هذا الكتاب (أحمد أمين والسيد أحمد صقر) الهوامل · بأنها الإبل المسيَّبة لا راعىَ لها ، وقالا . جعَل أبو حيان مسائله التى سأل عنها كأنَّها إبل سائمة لاضابَط لها . وجعل مسكويه من إجابته عنها رُعاة حفظة يرعونها ويضبطون أمرها ثم يرجعونها .

وبجانب هذا التأويل أجاز الدكتور الحوفى تأويلا آخر قائلا

أ- من الجائز [2] أنَّ أبا حيان أراد بها أسئلته المنطلقة الحرة التي تنتجع من يشبعها ، فهى كالإبل المسيبة ، ومن الجائز أن تكون جمعا (للهاملة) من هملت السماء أى دام مطرها فى سكون ، المراد إذَنْ الأسئلةالمنطلقة المتوالية الموجَّهة إلى ابن مسكويه كأنها المطر النازل المدرار .

ب - أما الشوامل فهى جمع لكلمة شامل أو شاملة من شملهم الأمر إذا عمَّهم ، والمراد إذَنْ الأجوبة الشاملة المحيطة لما فى نفس السائل .

من الذى اختار اسم هذا الكتاب وما طريقته :

هل اسم الهوامل والشوامل من اختيار أبى حيان التوحيدى؟

أم الذى سماه هو ابن مسكويه ؟ المرجَّح [3] أن الذى سماه هذا الاسم هو أبو حيَّان التوحيدى ، فهو الذى اختار اسمَ هذا الكتاب ، لأنه كان يبعث بالسؤال

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى حـ/٢ ص ٢٠
(٢) المرجع السابق ص ٢٠
(٣) المرجع السابق ص ٢١ .

تلوْ السؤال إلى ابن مسكويه ، ويأتيه الردُّ فيضعه لِفْقَ السؤال المتعلِّق به ، أى يتولى تدوين الأسئلة والأجوبة بخطِّه ، ولذا فمن المنطقىِّ أن يكون هو الذى اختار اسم الهوامل والشوامل .

وطريقة الكتاب - كما ذكرنا آنفا - أسئلة موجهة من أبى حيان إلى مسكويه - وأجوبة من الأخير على السائل ، وقد كان السائل عظيم الثقة بالمسئول ، مؤمناً بعلمه ، وإنْ جرَّحه أحيانا ، قال رداً على سؤال ابن سعدان .

«وأمَّا مسكويه ، ففقير [1] بين أغنياء ، وعَيِى بين أبْنِاء (فُصحاء) لأنه شاذٌّ ، وأنا أعطيته فى هذه الأيام (صفو الشرح لا يساغوجى وقاطيغورياس) من تصنيف صديقنا بالرَّى . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبو الحسن العامرى ، وصحَّحه معى وهو الآن لائذ بالخمَّار » .

وقال عنه أيضا « وأمَّا مسكويه [2] فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشى، سهل المأخذ ، قليل السكب ، بطيئ السبك ، مشهور المعانى ، كثير التوانى ، شديد التوقِّى ، ضعيف الترقى ، يردُ أكثر مما يصدُر ويتطاول جهده ثم يُقصر » .

على أنه كان من الحنكة لو أنه اعتذر عن هذا القول الذى يجرح أستاذه مسكويه ، وهو ذو فضل عليه ، ومن هو مسكويه ؟

هو أبو على أحمد بن يعقوب [3] بن مسكويه (كما عرَّفه الدكتور الحوفي) أو هو أبو على أحمد بن محمد مسكويه الخازن (كما عرَّفه أحمد أمين وأحمد الزين) [4] كان عارفا بالفلسفة ، ألفَّ كتاب تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم ، وكان قيِّماً على خزانة كتب ابن العميد ثم قيِّما على خزانة كتب عَضُد الدولة ثم اختص ببهاء الدولة البويهى ، وعظُم عنده شأنه ومات سنة ٤٢١ هـ .

ونصل ما انقطع من الحديث عن ثقة أبى حيان فى أستاذه مسكويه فنقول : سأل أبا حيَّان سائلٌ : هل تخرج الشريعة على مقتضى العقل ، وتردُّ بما يأباه : ويخالفها فيه ، ويكرهه ولا يجيزه ؟ كذبح الحيوانات وكإيجاب الدِّية على العاقلة ؟

فأجابه أبو حيان إجابة وافية، ثم أراد أن يستوثق من صواب جوابه ، فسأل مسكويه وقال له "وقد جهَّزت المسألة إليك ، أنت بحر لغريب العلم ومكنون الحكمة ،

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان جـ/١ ص ٣٥

(٢) الإمتاع والمؤانسة جـ/١ ص ١٣٥

(٣) أبو حيان التوحيدى / للدكتور أحمد محمد الحوفى جـ/٢ ص ٢١

(٤) الإمتاع والمؤاسة ص ٣٢ .

فإن تفضّلتَ بالجواب وإلاّ عرضْتُ عليك ما قلتُ للسائل ، ورويْتُ ما دار بينى وبين المجادِل ، فإن كان سديداً عرّفتنيه ، وإنْ كان ضعيفاً نصحتنى فيه ، فالعلم بعيدُ الساحلِ ، عميق الغور ، شديدُ الموج .. " .

فانظُر أيها القارئ الكريم إلى أخلاق العلماء وتَواضعهم فيما بينهم وهكذا كان علماء ذلك العصر : عصر النور فى القرن الرابع الهجرى ، لا نجد فيهم من تأخذه العزّة بالإثم ، أو يتعالم دون فهم ، اعتداداً برأى أستاذه واحتراماً له ، أو اقتناعاً به ، فهو لم يحذف من كلامه ما فيه مساس به هو أو بذاكرته أو بسؤاله عن أشياء لس لها غناء ، ويؤيِّد ذلك أن أسلوب مسكويه الذى أثبته أبو حيان جوابا على أسئلته فى الهوامل والشوامل هو ذات أسلوبه فى كتابه (تهذيب الأخلاق) . ولا تشابه بين أسلوب أبى حيان وأسلوب مسكويه.

موضوعات كتاب الهوامل والشوامل :

والكتاب من الأسئلة والإجابات عليها بستان حافل بصنوف المعرفة المتنوِّعة لا جامع لها ولا ضابط . ولهذا عنْوَن أبو حيَّان لبعضها وترك الآخر بلا عنوان .

١- ففيه مسائل إرادية كقوله " لِمَ سَمُج مدْحُ الإنسان [1] لنفسه وحَسُن مدحه لغيره " ؟

٢- وفيه مسائل اختيارية . وهى مثل الإرادية أىِ الأمور التي فى طاقة الإنسان أن يفعلها أويتركها ، مثل قوله " لِمَ قَبُح الثناء فى الوجه [2] حتى تواطأوا على تزييفه؟

٣- وفيه مسائل نفسانية كقوله " ما علّة حضور المذكور عند (انقطاع) [3] ذكره وهو لا يتوقع فيه " ؟

٤- ومسائل فى مبادئ العادات ، كقوله : " ما مبدأ العادات المختلفة [4] من هذه الأمم المتباعدة ؟ وما هذا الباعث الذى رتَّب كل قوم فى الزى وفى الحلية وفى العبارة والحركة على حدود لا يتعدونها " ؟

---

(١) الهوامل والشوامل ص ١١٧ .
(٢) الهوامل والشوامل ص ٤٥ .
(٣) الهوامل والشوامل ص ٩٢
(٤) الهوامل والشوامل ص ١٢١ .

٥- ومسائل طبيعية كقوله ما سبب من يدَّعى العلم وهو يعلم أنه لا علم [1] عنده.؟

٦- ومسائل خُلقية .كقوله لم خُصَّ اللئيم بالحلم وخص [2] الجواد بالحدة ؟

٧-ومسائل طبيعية وخُلقية معا . كقوله : ما سبب الصِّيت [3] لبعضهم بعد موته وأنه يعيش خاملا ، ويشتهر ميتا ؟

٨- ومسائل طبيعية واختيارية معا . كقوله : لِمَ قال الناس [4] لا خير فى الشركة ؟

٩- ومسائل لغوية : فقد كان أول سؤال وجهه إلى مسكويه [5] هو التفرقة بين كلمات لغوية كالعجلة والسرعة والهزل والمزح والتكلم والنطق والسرور والحبور .

١٠- ومسائل طبية . كقوله .لم صار الصرع من بين الأمراض صعب العلاج [6] ؟ .

ملاحظات الدكتور الحوفى على أسئلة أبى حيان :

لاحظ الدكتور الحوفى على أسئلة أبى حيان التوحيدى [7] الموجهة لأستاذه مسكويه عدة ملاحظات منها :

أولا : بعضها ساقها فى جملة قصيرة :مثل :

ما سر النفس الشريفة فى إيثار النظافة ؟

ما الفراسة وماذا يراد بها ؟

ما ملتمس النفس فى هذا العالم ؟

ثانيا : وبعضها مبسوط مفصل ، لأن أبا حيان شقق من السؤال موضوعات ومسائل كقوله فى المسألة رقم (٤٩) :

ما السبب فى تصافى شخصين لا تشابه بينهما فى الصورة ، ولا تشاكل عندهما فى الخلقة ولا تجاور بينهما فى الدار ، كواحد من فرغانة وآخر من تاهرت ، هذا طويل قويم وهذا قصير دميم ، .... وهذا أجود من السحاب إذا سحَّ بودَقٍ، وهذا أبخل من كلب على عرْقٍ إذا ظفر بعقر .

(١) الهوامل والشوامل ص ٤٣ .
(٢) الهوامل والشوامل ص ٥٠ .
(٣) الهوامل والشوامل ص ٦٩ .
(٤) الهوامل والشوامل ص ٦٤ .
(٥) الهوامل والشوامل ص ٥
(٦) الهوامل والشوامل ص ١١٢
(٧) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى حـ/٢ ص ٢٢ - ٢٨ .

ثالثا : وأحيانا يفرِّع من السؤال عدة أسئلة ، أو يولِّد من الفكر أفكارا ، فهو يتعمق في سؤاله تعمُّق من يبتغي الوقوف على العلة الأولى .

وقد شعُر ابنُ مسكويه بذلك فطالبه بالرفق ، واعتذر بأنه لا يدّعي العلم بكل ما يريد الاجابة عليه ، يتضح ذلك من سؤاله الآتي :

لِمَ تواصي الناس في جميع اللغات والنِّحل وسائر العادات والمِلَل [1] ، بالزهد في الدنيا ، والتقلّل منها ، والرضا بما زجا به الوقت (يسَّره) وتيسر مع الحال ؟

هذا مع شدة الحرص والطلب ، وإفراط الشدة[2] والكَلَب ، وركوب البر والبحر بسبب ربح قليل ونائل نزر ، حتى أنك لا تجد على أديمها الا متلفتا إلى قاتنيها حزيناً ، أو هائما علي حاضرها مفتونا ، أو متمنيا لها في المستقبل معنًى ، وحتى لو تصفحت الناس لم تجد الا متحسرا عليها ، أو متحيِّرا فيها ، أو مسكرا منها ، وأشرفهم عقلا أعظمهم خبَلا ، وأشدُّهم فيها إزهادا (حثًّا على الزهد) أشدُّهم بها انعقادا ، وأكثرهم في بغضها دعوى ، أكثرهم في حبها بلوى .

وهات السبب في ذلك والعلة .

وعلى ذكر السبب والعلة ، فما السبب والعلة وما الواصل بينهما ؟ إنْ كان واصل ؟ وهل ينوب أحدهما عن الآخر ؟

وإن كانت هناك نيابة أهيَ في كل مكان وزمان ؟ أو في مكان دون مكان ؟ وزمان دون زمان ؟

وعلى ذكر المكان والزمان ، ما الزمان وما المكان ؟ وما وجه التباس أحدهما بالآخر؟ وهل الوقت والزمان واحد ؟ والدهر الحين واحد ؟

وإن كان كذا فكيف يكون شيئان شيئا ، وإن جاز أن يكون شيئان شيئا واحدا فهل يجوز أن يكون شيئ واحد شيئين اثنين ؟ هذا - أيدك الله - مما ينشف الريق ، ويضرع الخد ، ويجيش النفس ، ويفضح المدعي ، ويبعث على الاعتراف بالتقصير والعجز، ويدل علي توحيد من هو محيط بهذه السرائر والدقائق.... ويبين أن العلم بحر، وفائت الناس أكثر من مدركه ومجهوله أضعاف معلومه ، وظنه أكثر من يقينه ......"

فأجابه مسكويه وصدر أجابته بقوله :

---

(١) المرجع السابق من ص ٢٥ - ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٧

هذه المسألة موشّحة بعدة مسائل طبيعية[1] ، وقد جعلتها مسألة واحدة ، ولعلّ التي صيّرتها أذنابا هى أشبه بأن تكون رءوسا .

وقد عرض لك فيها عارض من العُجب ، وسانحٌ من التيِّه ، فخطرت خطران الفحل ومشيت العِرِضْنة (أن يعترض غيره فى السير) .... فلو تركت هذا الغرض للمتكلم على مسائلك .

ارفق بنا أبا حيان – رفَق الله بك – وارْخِ من خناقنا ، وأسِغنا ريقنا ، ودعنا وما نعرفه فى أنفسنا من النقص ، فإنه عظيم ، وما بلينا به من الشكوك فإنه كثير ولا تبكّتنا بجهل ماعلمناه وفوت ما أدركناه ..

أما طريقة مسكويه فى الاجابة . فإنها فى الأعم الأغلب مفصلة ، وفى قليل منها ايجاز وإيماء ، أو إحالة على معلوم ، أو على جواب سابق [2] ، وربما يرفض الإجابة كقوله : ذكرت – أيدك الله – مسائل لا تستحق الجواب من آراء العامة ، وجهالات وقعت لهم ، مثل قولهم إذا دخل الذباب فى ثياب أحدهم يمرض ، وقولهم .دية نملة تمرة ... وهذه المسائل وأشباهها ، ينبغي أن يُهزأ بها ويتملح بإيرادها على طريق النادرة ، فأما أن تطلب لها أجوبة ، فما أظن عاقلا يعترف بها ، فكيف نجيب عنها ؟ والله يغفر لك ويصلحك .

أمثلة من الهوامل والشوامل :

اتصال النفس بالبدن :

متى تتصل النفس بالبدن ؟ ومتى توجد فيه [3] ؟ أفى حال ما يكون جنينا أم قبلها أم بعدها ؟

قال أبو على مسكويه – رحمه الله

إن اتصال النفس بالبدن ، ووجودها فيه ألفاظ متسع فيها ، والأوْلَى أن يقال : ظهور أثر النفس في البدن ، على قدر استعداد البدن وقبوله إيّاه ، إنما تحرَّزنا من تلك الألفاظ لأنها تُوهم أنَّ لها اتصالاً عرضياً وجسمياً ، كلا هذين غير مطلق على النفس .

والأشبه إذا عبَّرنا عن هذا المعنى أن نقول :

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ – ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) الهوامل والشوامل ص ٣٥٠

إن النفس جوهر بسيط إذا حضر مزاج مستعد لأن يقبل له أثرا ، كان ظهور ذلك الأثر على حسب ذلك الاستعداد ، لنسلم بهذه العبارة من ظنٍّ من زعم أن النفس تتقلّب، وتفعل أفعالها على سبيل القصد والاختيار ، أعنى أنها تفعل فى حال ، وتمنع فى أخري فإن هذا يجلب كثيرا من الشكوك التي لا تليق بخصائص النفس وأفعالها وإذ قد تحققت هذه العبارة ، فنقول إن النطفة التي يكون منها الجنين إذا حصلت فى الرحم الموافق ، كان أول ما يظهر فيه من أثر الطبيعة ما يظهر مثله فى الأشياء المعدنية ، أعني أن الحرارة – اللطيفة تنضجه وتمخضه وتعطيه – إذا امتزج بالماء الذى يوافقه من شهوة الانثى – صورتمركبة كما يكون ذلك فى اللبن إذا مُزِج بالأنفحة.

إخفاء العمر الحقيقى

لم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص فى الخبر ، وآخر يزيد على عمره فى الخبر؟

قال أبو على مسكويه – رحمه الله

غرض الرجلين جميعا (أعنى من ينقص [٢] ومن يزيد فى العمر) غرض واحد ،وإن اختلفا فى الخبر . وربما فعل الرجل الواحد ذلك بحسب زمانين مختلفين ، أو بحسب حالين في زمان واحد وهو من رذائل الأخلاق ، لأنه يوهم بالكذب فضيلة لنفسه ليست فيها ، وسبب هذا الفعل هو محبة النفس ، وذاك أن الإنسان يحب أن يُعتقد فيه من الفضل أكثر مما هو (معروف) ، ويحب أن يُعذر في نقص إن وجد فيه .

وهو إذا كان حدثاً ، وظهرت منه فضيلة أو نقيصة نقص من زمان عمره ، ليعلم غيره أن الفضيلة حصلت له فى زمان قصير ، وأن ذلك لم يكن ليتم له إلا بعناية كثيرة، وحرص شديد ، ونفس كريمة ، وانصراف عن الشهوات .... وإن كانت منه نقيصة عُذر فى فعله لقلة الحنكة والدُّربة ، وانتظر فلاحه ، ورجى تلافيه وإنابته .

وأيضا فإن المكتهل وذا السن الكثير التجربة ممن صحب الزمان ولقى الرجال ، وتصرف فى العلوم .. مهيب فى النفوس جليل فى الصدور .. فإذا بلغ الإنسان من السن ما يحتمل أن يدعى فيه هذه الدعوى ، أو يشبه نفسه بأصحاب هذه المراتب زاد في عمره لتسلم له هذه المرتبة فتعتقد فيه .

فكل واحد من الرجلين أو الرجل الواحد فى الزمانين أو الحالتين غايته فى الكذب بما ينقص أو يزيد من عمره هى التمويه بالفضل وادعاء رتبة ليست له .

وهذا شر ظاهر ، فمتغاطيه شرّير ، وأفاضل الناس لايعتريهم هذا الشر ، لأنهم لايتدنسون بالكذب ، ولا يتكثرون بالباطل .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) الهوامل والشوامل ص ٧٨ .

الولع بالتبذير :

لِمَ صار لبعض الناس (أن) يولع بالتبذير مع علمه بسوء العاقبة ؟ وآخر يولع بالتقتير مع علمه بقبح القالة فيه ؟ وما الفرق بين الرزق والملك كثير الرزق ، وكم من كثير الملك قليل الرزق ، أحمد الله عز وجل .

قال أبو على مسكويه – رحمه الله

قد تقدم فى هذه المسائل كلام فى السبب الذى يختار الناس له فعل ما تقبح عاقبته مع علمهم بذلك ، وضربنا فيه المثل بالمريض الذى يعلم أن تناول الغذاء الضار يبطل صحته ، فإنما الغذاء إنَّما احتيج إليه للصحة ، فيختار للشهوة الحاضرة أخذ الغذاء الضار بسوء مسلكه وضبطه لنفسه ، وانقياده للنفس البهيمية ، وعصيانه النفس الناطقة ، ولا وجه لإعادته .

وكذلك قد بيَّنا مائية الرزق (ماهيته)، والفرق بين المِلْك والرزق ، إذا قرأته ممَّا تقدم : كان جواباً لهذه المسألة .

الشباب والشيخوخة

لِمَ لَمْ يرجع الإنسانُ بعدَ ما شاخ وخرف كهلاً ثم شاباً غريراً[1] ، ثم غلاما صبياً ، ثم طفلا كما نشأ ؟ وعلام يدل هذا النظم؟ وإلى أى شيئ يشير هذا الحكم ؟

قال أبو على مسكويه – رحمه الله

ليست الشيخوخة والهموم نهاية نشوء الإنسان ، ولا غاية الحركة الطبيعية أعني النامية ، فتروم (أى أنت تحب) – أيَّدك الله – أن يعود الشيخ فى مسالكها إلى المبدأ الذى تحرَّك منه ، بل ينبغي أن تعلم أن غاية النشوء والحركة إنَّما هو عند منتهى الشباب ثم حينئذ يقف ، وذلك زمان الكهل ، ثم ينحطّ ، وذلك زمان الشيخوخة ، وذلك أن الحرارة الغريزية التي فى الأجسام المركبة من الطبائع الأربع ما دامت فى زيادة قوتها ، فهى تنشئ الجسم الذى هى فيه بأن تجتذب إليه الرطوبات الملائمة بدل ما يتحلل منها فتكون غذاءً له ، ثم تبقى بقية جذبها فضل القوة فاضلة عن قدْر الغذاء الذى عوض من المتُحلَّل فزادتها من مساحة الجسم ومدتّ بها اقطاره فإذا تناهت القوة وقفت فلم تزد فى الأقطار شيئا ، بل غايتها حينئذ أن تحفظ ذلك الجسم أقطاره ومقداره . بأن تغذّيه أعنى أن تجتنب من الرطوبات مقدارَ ما يَسرى فى الجسم عِوضاً عما تحلل بلا زيادة تنصرف إلى التزيد والتعديد .

---

(١) الهوامل والشوامل .

ثم إن الحرارة تضعف قليلا ، وتأخذ فى النقصان بعد أن تقف وقفة فى زمان التكهل ، فيبتدىء البدن فى النقص ، ويصير الإنسان إلى الانحطاط عن تلك الحركة الأولى ، فلا يزال الغذاء [1] ينقص عن مقدار الحاجة ، فلا يفى ما يعتاض من الرطوبة بما تحلل منها ، فهو كذلك إلى أن يهرم ، ويبلغ إلى الانحلال الذى هو مقابل التركيب ، الذى بدأ منه وهو الموت الصحيح الطبيعى .

وهذه سبيل كل حركة قهرية ، فى أنها تبتدى بتزيد ثم تنتهي إلى غاية ، ثم تقف وقفة ، ثم تنحطُّ ، لما كان مزاج الإنسان وكل مركب من الطبائع المتضادة إنما كان بجامع جمْعِها ، وقاهر قهرها ، حتي ألفها ، حتى مع تضادها ونفور بعضها من بعض - صارت حركته قهرية ، ومن شأن الحركة القهرية ما ذكرتُ من أمرها إذا لم يُتبعها القاهر ابتداء بقهر بعد قهر ، فوجب فى حركة النشوء ما وجب فى كل حركة من جنسها ، ولم يعد الشيخ كهلا ، ثم شابا ، ثم طفلا ، لأن الحركة لم تقع على هذا النظام ، ولا الشيخوخة هى غاية الحركة ، بل هى غاية الضعف ونظير الطفولة .



(١) الهواعل والشوامل .

• الإمتاع والمؤانسة :

الإمتاع والمؤانسة أشهر كتابٍ لأبي حيان التوحيدي [1] ، ألفّه خصيصا لأبي عبدالله العارض – هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان – وزير صمام الدولة البويهي فيما بين سنتي ٣٧٣ ، ٣٧٥هـ – ألّفه بناءً على طلب مشدَّد من صديقه (صديق أبي حيان) أبي الوفاء المهندس . وهو كتاب فريد في الأدب العربي ، إذ جمع بين العلم والمتعة الأدبية كما حوى بين دفتيه ألوان المعرفة المختلفة في الفلسفة والأخلاق والتاريخ والأدب – واللغة والدين والإلهيات .

وقد نهج أبو حيان في هذا الكتاب نهْجَ بديع الزمان الهمذاني في مقاماته ،شهير لاسيما وأنه معاصر له ، وربما تأثر به ، وإذا كانت مقامات البديع قد شقَّت طريقها في دنيا الخيال ، فإن ليالي أبي حيان كانت من وحي الواقع الأدبي والسياسي .

وقد سبق أن سردنا على القارئ الكريم كيف وصل أبو حيان عن طريق صديقه أبو الوفاء المهندس إلى بلاط ابن سعدان ، وأنه طلب منه أولا أن ينسخ له كتاب الحيوان للجاحظ كما فاتحه عن رسالة حدَّثه بها زيد بن رفاعة حَدَثَتْ بينه وبين زيد هذا في عام ٣٧١ هـ أي قبل ان يتولى ابن سعدان الوزارة بسنتين ، وهي رسالة في الصداقة والصديق ، وطلب منه الوزير أن يتمّها ، وقد أنستهما الأيام ذلك المؤلفَ ، ولم يكمله أبو حيان إلاَّ في عام أربعمائة هجرى (بعد مضي وقت ليس بالقصير على وفاة ابن سعدان) .

أما مؤلَّفه " الإمتاع والمؤانسة " فإنَّه قد حرَّره عقب الانتهاء من مسامراته مع الوزير ابن سعدان ، ووافى صديقه أبا الوفاء تباعا بما دار بينه وبين الوزير طيلة سبع وثلاثين ليلة سامره فيها – وكان ذلك كما أسلفنا القول بناء على طلب ذلك الصديق – فقد أبان له أبو الوفاء أنه كان صاحب الفضل عليه في وصوله إلى مجلس الوزير ، ولذا ألزمه أن يوافيه كتابة بكل عبارة قالها في حضرة الوزير خلال تلك المدة .

وأكد عليه بأن يتحرَّي الدقة في كتاباته بدون حذف أو إضافة ، وهدده بقوله : " قد غسلت يديَّ من عهدك بالأشنان البارقيِّ [2] (مادة لغسل الأيدي والثياب) وسلوت من قربك بقلب معرضٍ وعزمٍ حَيٍّ ، إلاَّ أن تُطلِعَني طِلْعَ جميع ما تحاورتما وتجاذبتما هُدْبَ الحديث عليه ، وتصرَّفتما في هزله وجده ، وخيره وشره ، وطيِّبه وخبيثه ، وباديه

---

(١) مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ص (و) .

(٢) الإمتاع والمؤانية لأبي حيان التوحيدي ص ٦ ، ٧ .

ومكتومه ، حتي .أنني كنت شاهدا معكما[1] ، رقيباً عليكما ، أو متوسطا بينكما ، ومتى لم تفعل هذا ، فانتظر عقبى استيحاشى منك .... " .

فما كان من أبى حيان إلاَّ أن يلبى هذا الأمر تلبية العبد المطيع لسيده الآمر ، مع أنه كان شديد الخوف على نفسه من عقبى الأمور التي طرقها ابن سعدان والتي قد تُسبِّب له إزعاجا شديدا ، إذا ما اطَّلع عليها من تكلَّم عنهم فى غيبتهم . فيقول :

"فأول ما أبدؤك به أننى ظننت ظنا لا كيقين[2] ، أنَّ شيئا مما كنت فيه مع الوزير – أدام الله أيامه ، وقصم أعداءه – ليس مما يهمك ، ولا هو مما يقرع سمعك سماعك له، وحسبت . " أيضا أننى إن بدأت بشئ منه رذَّلتنى عليه ، وتنقَّصتنى به ، وزريت عليَّ فيه، وأنك ربما قلتَ . لمَ بدأت بما لم أسألك عنه ، ولم أرخِّص لك فيه ، هلاَّ كظمْتَ علىَّ جِرَّتك (ما يجترهُ البعير) وطويتَ بين جنبيك ، وما علىَّ ممّا يدور بين الصاحب وخادمه والرؤُساء ، الناظرين فى أمور الدهماء ، والمتصفِّحين لأحوال العامة والخاصة ، لهم أسرار وعيوب ، لا يقف عليهما أقرب الناس إليهم ، وأعزُّ الناس عليهم ، وأنت أيضا فَلَمْ تسألنى عنه ، فكان فى تقديرى أنك قد عرفتَ وُصولى فى وقت دون وقت ، وأنك قد حصلت أمرى على الخدمة التي ليس للعلم بها فائدة ، ولا فى الإعراض عنها فائتة .

وإذْ جرى الأمرعلى غير ما كان فى حسابى ، وتلبَّس بظني ، فإنى أهدى ذلك كله بغثاثته وسمانته ، وحلاوته ومرارته ، ورقَّته وخثارته ، فى هذا المكان ، ثم أنت أبصر بعد ذلك فى كتمانه وإفشائه ، وحفظه وإضاعته وستره وإشاعته ، واللَّه ما أرى ذلك صعبا إذا وصل إلى مرادك ، ولا كُلفةً شاقة إذا أكسَبتَنى مرضاتكَ » .

وأما عن مجلس ابن سعدان الوزير ، فقد كان مجلسا يجمع بين الفقيه والمنطقى ، والطبيب واللغوى، والشاعر والناثر، والعالم بأمور الدنيا ، والعالم بأمور الدين ، والمسلم والنصرانى ، واليهودى والمجوسى ، فمنهم الفيلسوف ابن مسكويه صاحب (تهذيب الاخلاق) و(تجارب الأمم) وأبو سعد بهرام بن أرد شير ، وابن زرعة الفيلسوف النصراني ، وأبو الخير الحسن بن سوار النصراني المعروف بابن الخمَّار ، وأبو بكر القومسى الفيلسوف ، وابن السمح المنطقى ، ويحيى بن عدى النصرانى ، وابن حجَّاج الشاعر الماجن ، والكاتب أبو عبيد الخطيب ، وابن شاهويه ، وزيد بن رفاعة .

---

(١) ابو حيان التوحيدى – الإمتاع والمؤانسة جـ/١ ص ٦ ، ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢

وكان يباهي بجلسائه ، وبما يدور فى جلساته [1] من علم وأدب ، لم ترقَ إليهما مجالس الوزراء والأمراء المعاصرين له والسابقين له مثل : ابن العميد والصاحب بن عبَّاد والوزير المهلبِّى ، ومن ذلك قوله فى وصف جلسائه " والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، إنهم لأعيان أهل الفضل ، والسادة ذوو العقل ، إذا خلا العراق منهم رقن على الحكمة الروية والادب المتهادى (أى ان الحكمة بعد هؤلاء تصير مبهمة إلى حاجة من يجلوها) .

أتظن أن جمع ندماء المهلبى يفوق بواحدٍ من هؤلاء ؟ أو تُقدِّر أنَّ جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقلَّ من فيهم ؟ فقال له أبو حيان : هذا ابن عبَّاد بالرَّى ، وهو م يعرف ويسمع ، فقال له ابن سعدان . ويحك وهل عند ابن عبَّاد إلا أصحابِ الجدل الذى يشغبون ويحمقون ويتصايحون ؟ وهو فيما بينهم يصيح ويقول : قال شيخانا أبو على وأبو هاشم " .

طريقة كتاب الإمتاع والمؤانسة :

كان ابن سعدان يسأل أبا حيان ، فيجيبه إجابة [2] وافية شافية ، وأحيانا كان الوزير يتَّخذ من الجواب موضوعات لأسئلة أخرى يفرِّعها " فقد يسأله سؤالا يأتى أثناء إجابته ذكر" لابن عباد أو ابن العميد أو ابى سليمان المنطقى ، فيسأله الوزير عنهم ، وعن رأيه فيهم و، وهكذا يستطرد من باب لباب " وأحيانا يطرح عليه السؤال ويمهله إلى الغد لإعداد الرد ثم يُعدُّه له شفاهة أو كتابة ، وقد يسمع منه بعض الجواب ويرجئ باقيه إلى أن يكتبه له ويقدِّمه مكتوبا .

وكثيرا ما كانَ يعجب من سرعة بديهة أبى حيانى ، وكثرة حفظه ، وقدرته الفائقة على الإجابة السديدة ، وفى نهاية المسامرة يطلب منه مُلحة الوَداع عندما يُحس بثِقَل رأسه وحاجته إلى النوم .

والكتاب – كما وصفه القفطى – ممتع على الحقيقة [3] لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فإنه خاضَ كل بحر وغاصِ كلَّ لُجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخطِّ بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً ، وتوسَّطه محدِّثا وختمه سائلاً مُلحفاً .."

---

(١) الإمتاع والمؤانسة لابى حيان التوحيدى ، المقدمة ، ص - ، ط

(٢) مقدمة الإمتاع والمؤانسة ص (م ، ز)

(٣) المرجع السابق ص (م)

مُلحة الوداع فى إحدى ليالى أبى حيان :

كان من عادة الوزير ابن سعدان اذا طال الليل ودنا من الفجر أن يطلب من أبى حيان ملحة الوداع ، لإنهاء حديث الليلة على أمل اللقاء به فى الليلة القابلة ، وعادةً ما تكون ملحة الوداع نادرة لطيفة ، أو أبياتا رقيقة " وأحيانا [(١)] يقترح الوزير أن تكونَ ملحة الوداع شعرا بدوياً يشمُّ منه ريح الشيخ والقيصوم " .

ففى نهاية الليلة الثانية يقول

" قال · هذا فى الحُسن نهاية ، وقد اكتهل الليل [(٢)]، وهذا ما يحتاج إلى بدء زمان ، وتفريغ قلب ، وإصغاء جديد ، هات خاتمة المجلس ·

قلت له قرأنا يوم الجمعة على أبى عبيد المرزباني لعبد الله بن مصعب

إذا استمتعتُ منكَ بلحظِ طرفى	حَيِى نصفى وماتَ عليْكَ نصفِى
تَلذَّذُ مقلتي ويذوبُ جسمِى	وعيشِى منك مقرونٌ بحتفى
فلو أبصرتَنى والليل داجٍ ..	وخدِّى قد توسَّط بطْنَ كفِّى
ودمعى يَستهلُّ من المآقى	إذاً لرأيتَ ما بى فوقَ وصفى

وانصرفْتُ .

رؤوس موضوعات بعض ليالى الكتاب :

قسَّم أبو حيان كتابه إلى أربعين ليلة[(٣)] فى ثلاثة أجزاء فكان يدوِّن تباعاً ما دار الحديث فيه الليلة السابقة ، فيما بينه وبين الوزير على طريقة (قال لى ، وسألنى وقلتُ له ، وأجبتُه) . وكان الذى يقترح الموضوع غالبا هو الوزير ، وأبو حيان يجيب عما اقترح وربما بدأ المجلس بتساؤل الوزير عن موضوع عابر ، ثم يدلف منه إلى موضوع هامّ ثم إلى موضوعٍ أهم ، والذى يجعله يستطرد من موضوع إلى آخر هو فضوله وحبه للمعرفة والتزوُّد من علم أبى حيان ، حينما يجيبه عن السؤال الأول ، ويسمع فى إجابته ما يثير اهتمامه ، فيسأله مرة أخرى عن شيئ وَرَدَ فى إجابته الأولى ، وكذلك فى الإجابة الثانية وهكذا ·

(١) المرجع السابق ص (ن)
(٢) المرجع السابق ص ٤١ .
(٣) تمت مسامرة أبى حيان للوزير فى سبع وثلاثين ليلة ودوِّنت فى أربعين ليلة

وحيث أنَّ المسامرة لا تدور حول موضوع واحد فحسب كل ليلة ، بل إنَّها موضوعات متفرعة ومتشعبة فى أكثرَ من فنٍّ ، لهذا فمن الصعب وضْعُ عنوانٍ ، لموضوعٍ معيّن فى كلِّ ليلة ، وحسبنا في هذه العجالة أن نضع أمثلة للموضوعات التي دار النقاش فى بعض الليالى بشأنها أى إعطاء فكرة موجزة عن موضوع واحد من الموضوعات التي نوقشت فى بعض هذه الليالى :

• الليلة الأولى :

وهى أول ليلة أخبر فيها شيخه (أبا الوفاء المهندس) [١] بوصوله إلى مجلس الوزير فقابله مقابلة حسنة ، وكان أول شيئ ، سأله ، عنه ، أنه فى عجبٍ لقيامه بأمر البيمارستان كما أخبره بذلك أبو الوفاء ، وعرض عليه شيئاً أتبهَ له من ذلك، هو حضوره المحادثة معه ، والتعرُّف على أشياء كثيرة تمرُّ بخلده دائماً ، ووعده بأن يطرحها عليه فى كل مجلس ، وقدَّم له نصائح كثيرة حتَّى ينجح فى هذا الأمر ، فأجابه أبو حيان شاعراً بامتنان الوزير عليه – بل أجابه بالامتثال لكلِّ ما نصحه به طالبا منه ان يأذن له فى كاف المخطابة ، وتاء المواجهة (أى رفع الكلفة فيما بينهما) فأذن له الوزير ، فكان موضوع الليلة الاولى – كما جاء مصادفة – هو ثناء ابى حيان على أريحية وكرم الوزير.

• الليلة الثانية :

وكان الحديث فى هذه الليلة عن [٢] أستاذه أبى سليمان المنطقى ، وهو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى ، أكبر علماء بغداد فى عصر أبى حيان فى المنطق والحكمة والفلسفة ، كان مجلسه حافلاً بالعلماء والحكماء ، واسع الاطلاع فى الفلسفة ، وكان به عَور وبرص لم يمنعاه من مجالسة الأمراء والوزراء له ، وهو أكبر شيوخ أبى حيان وفيه يقول البديهى :

أبو سليمانَ عالمٌ فطنٌ ... ما هو فى علمه بمنتقصِ
لكنْ تطيَّرتُ عند رؤيته ... من عَوَرٍ موحشٍ ومنْ بَرصِ
وبابنه مثْلُ ما بوالده ... وهذه قصَّةٌ من القصصِ

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ص ١٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩، ٣٠ ، ٣١.

• الليلة الثالثة :

بدأت الليلة بموضوع [١] الرجل الخُراسانى الذى رآه أبو حيان ، حينما مرَّ على الجسر فى الجانب الشرقى من بغداد ، فرأى ابن بقيَّة الوزير مصلوباً بينما الذى صلبه مدفون (وهو عضد الدولة) بباطن الأرض ، فقال : لا إله إلا الله ، ما أعجَبَ هذه الدنيا وما أمَلَ المفكر فى عِبَرِها وغِيَرِها : عَضُدُ الدولة تحت الأرض، وعدوُّه (ابن بقية) فوق الأرض . فقال ابن سعدان . هكذا حدَّثنى أبو الوفاء . ولذا استأذنْتُ (الملك) فى دفنه (دفن ابن بقية) .

• الليلة الرابعة :

بدأ الوزير هذه الليلة بهذا السؤال [٢] كيف رضاك عن أبى الوفاء (المهندس) " قلت أرضَى رضاً ، بأتمِّ شُكر وأحمد ثناء ، أخذَ بيدى ، ونظَر فى معاشى ، ونشَّطنى ، وبشَّرنى ، ورعَى عهدِى ، ثم ختم هذا كله بالنِّعمةِ الكُبري (يقصد مسامرة الوزير) وقلَّدني بها القلادة الحسنى ، وشملنى بهذه الخدمة ، وأذاقنى حلاوة هذه المزية ، وأوجهنى عن نُظرائى . قال هاتِ شيئا من الغزل ، فأنشدته :

كِلانا سواءٌ فى الهوَى غيرَ أنَّها ... تَجلَّدُ أحياناً ومابِى تجلُّدُ
تخافُ وعيدَ الكاشحين وإنَّما ... جُنونى عليها حين أُنهى وأُبعَدُ

• الليلة الخامسة :

" قال لى . [٣] ألاَ تتمَّ ما كنَّا بدأنا به (يريد إتمام الحديث الذى بدأه أبو حيان عن ابن عبَّاد وعبد العزيز بن يوسف وابنى العميد - أبى الفضل وابنه أبى الفتح) قلتُ بلَى ، فأما أبو إسحاق (أبو اسحاق الصابى) فإنَّه أحبُّ الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المحجَّة الوسطى ، وإنما يُنقَم عليه قلَّةُ نصيبه من النحو .. " .

• الليلة السادسة :

" ثم حضرتُه لليلةٍ أخرى [٤] ، فأولَ ما فتَح به المجلس أن قال : أتفضِّل العَربَ على العجم ، أم العجَم على العَرب ؟ قلت : الأمم عند العلماء أربعٌ : الروم والعرب وفارس والهند ، وثلاث من هؤلاء عجم ، وصعبٌ أنْ يُقال . العرب وحدَها

(١) المرجع السابق ص ٤١ ، ٤٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٠ ، ٥١ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٧٠ .

أفضل من هؤلاء الثلاثة " وهو حديث مستفيض وممتع لا يستغني عنه محبٌ للاستزادة من المعرفة .

● الليلة السابعة :

" ولما عُدْتُ إليه [1] في مجلس آخر . قال سمعتُ صياحَك اليومَ في الدار مع ابى عبيد ، ففيم كنتما ؟ قلت : كان يَذكُر أنَّ كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالملك ..... والبلاغة زخرفة وحيلة ، وهي شبيهة بالسراب كما أن الأخرى (كتابة الحساب) شبيهة بالماء .... قال (الوزير) : هذه ملحمة منكرة . فما كان من الجواب : قلت ما قام من مجلسه إلا بعد الذلّ والقماءة ، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكَلَف ، والشمس بالكسوف .. " .

● الليلة الثامنة :

" وقال مرَّة آخري : أوْصَل [2] (أرسَل) وَهْب بن يعيش الرُّقِّي اليهودي رسالة يقول في عُرضها بعد التقريظ الطويل العريض إنَّ ها هنا طريقاً في إدراك الفلسفة مذلَّلة مسلوكة ، مختصرة فسيحة ، ليس على سالكها كدٌّ ولا مشقَّة في بلوغ ما يريد من الحكمة ... " إلى أن يصل الحديث إلى المناظرة التي حدثت بين أبي سعيد السيرافي النحوي وبين أبي البشر متى القُنَّائي المنطقي في مجلس الوزير أبي الفضل بن الفرات وقد أوردناها آنفاً .

● الليلة التاسعة :

" وعُدْتُ ليلةً أخرى [3] فقال (أي الوزير) : فاتحةُ الحديث معك (أي أنت تقترح الموضوع) فهاتِ ما عندك . فكان الجواب إنَّ أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة ، مؤتلفةٌ في نوع الإنسان ... " .

● الليلة العاشرة :

" ولمّا عدت في الليلة الآخري [4] ونعمت بهذه الفضيلة ، تفضَّل وقال . ما في العلم شيئٌ إلاَّ إذا بُدئ بالكلام فيه اتَّصلَ وتسلسَل ، حتي لا يوجد له مقطَع ولا منفذ ، ثم قَرأتُ عليه نوادرَ الحيوان ، وغرائب ما كنت سمعتُه ووجدته ، فزاد عجَباً ، وأنا أرويه في هذا المكان حتى يكون تذكرة وفائدة ... "

(١) المرجع السابق ص ٩٦، ٩٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤٣ .
(٤) المرجع السابق ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

ليلة من ليالى الإمتاع والمؤانسة (الليلة السابعة عشر)

لقد أثار اهتمامى ما دار من نقاش وتحاور [1] فى هذه الليلة الممتعة ، والذى (شخَّص) هذا الحوار وصوَّره فى تلك الليلة هو أبو حيان التوحيدى ، حينما أدَّى دور كل محاور اشترك فى تلك المحاورة الفريدة ، فقد حكى أبو حيان للوزير العارض ما فعله أستاذه أبو سليمان المنطقى من تبكيت لإخوان الصفا: الذين دعوا فى رسائلهم إلى مذهب يجمع بين الدين والفلسفة ، ونادوا بأمور كثيرة لا يتسع المجال لإيرادها ، وقد أوضح أبو سليمان مذهبه المنطقى وحدود الفلسفة من الدين ، ولما سأل الوزير أبا حيان عمَّا إذا كان أحد رجال إخوان الصفاء - ويعنى به أبا سليمان محمد بن معشر البيستى المعروف بالمقدسى - سمع هذه الأفكار فأجابه أنه قد أسمعه ما قاله المنطقى فى إخوان الصفا فلم يُعِره انتباها ، ولكن الحريرى غلام ابن طرَّارة هيَّجه ودفعه دفعا للنقاش معه عن الفلسفة وإخوان الصفا ، كما شارك فى النقاش البخارى أبو العباس - ثم راح أبو حيان يوضح مذهب أبى سليمان المنطقى وسرَّ إعجابه به ، وينتهى هذا الحديث الذى حكاه أبو حيان بأن طلب منه الوزير مُلحةَ الوَداع . وكانت حكمة لابن المقفَّع . ونسوق هذا الحديث الطويل الممتع كدليل على قدرة أبى حيان الفائقة على استيعاب أفكار كل الطوائف فى عصره ، وقدرته على سرد كل ما قاله كل فريق . على أننا سنورد الحديث بنصِّه على صورة الحوار لا على طريقة الراوى التى **قام بها أبو حيان وذلك لتسهيل استيعابه وفهمه :**

قال الوزير (مستحثا أبا حيان) حدِّثنى عن شئٍ هُوَ أهمُّ من هذا لى ، وأخطرُ على بالى ، إنى لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً ومذهباً لا عهدَ لى (به) ... فعلىَ هذا ما مذهبُه ؟

أبو حيان : لا ينسب إلى شيء (أى زيد بن رفاعة) . ولاَ يُعرف برهط، لجيشانه بكلِّ شيء ، وغليانه فى كل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطة تبيانه، وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة طويلاً وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم، وأنواع الصناعة (يقصد إخوان الصفا) منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيستى ، ويُعرف بالمقدسى، وأبوَ الحسن علىّ بن هارون الزِّنجانى، وأبو أحمد المهرجانى ، والعوفى وغيرهم فصحبهم وخدمهم [2] ، وكانت

---

(١) المرجع السابق الجزء ٢ من ص ٣ إلى ص ٢٤

(٢) المرجع السابق من ص ٣ إلى ص ٢٤ (الجزء الثانى) .

هذه العصابة قد تألفت بالعشرة [1] ، وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهبا ، زعموا أنهم قرّبوا به (الطريق) إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته ، وذلك أنهم قالوا.

(مزاعم إخوان الصفا) : الشريعة قد دنّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ بالفلسفة ، (وذلك) لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنّفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة : علميّها ، وعمليّها ، وأفردوا لها فهرسا وسموها رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء وكتموا أسماءهم وبثوها في الورّاقين ، ولقّنوها للناس من الآراء الفاسدة التى تضر النفوس ، والعقائد الخبيثة التى تضر أصحابها ، والأفعال المذمومة التى يشقى بها أهلها ، وحشَوْا هذه الرسائل بالكلم الدينية والأمثال الشرعية والحروف (الكلمات) المحتملة والطرق المُوهِمة .

فقال الوزير : هل رأيت هذه الرسائل ؟

أبو حيان قلت : قد رأيتُ جملةً منها ، وهى مبثوثة من كل فنٍّ نُتفاً بلا إشباعٍ ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها .

وحملْتُ عدّةً منها إلى شيخنا أبى سليمان المنطقى السجستانى (محمد بن بهرام) وعرضْتها عليه ، ونظرَ فيها أياماً واختبرها طويلا ، ثم ردّها علىّ ثم قال :

أبو سليمان المنطقى : تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجَدْوا ، وحامُوا وما وردوا ، وغنّوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا ، ظنوا ما لا يكون وما لا يمكن ولا يستطاع، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسّوا الفلسفة – التى هى علم النجوم والأفلاك والمجسْطى والمقادير ، وآثار الطبيعة ، والموسيقى التى هى معرفة النغم والإيقاعات والنّقرات والأوزان ، والمنطق الذى هو اعتبار الأقوال والاضافات والكميات والكيفيات – فى الشريعة ، وأن يضمّوا الشريعة للفلسفة .

---

(١) المرجع السابق جـ/٢ من ص٣ إلى ص٢٤ .

وهذا مرامُ دونه حَددُ (دفع ومنع) [1] وقد توفَّر علىَ هذا قبلَ هؤلاءَ قومُ كانوا أحدَّ أنياباً ، وأحضَرَ أسباباً ، وأعظمَ أقداراً ، وأرفعَ أخطاراً ، وأوسعَ قُوىً ، وأوثَقَ عُراً ، فلم يتمَّ لهم ما أرادوا ، ولا بلغوا منه ما أملُّوه[1]، وحصلوا على لوثاتٍ قبيحةٍ ولطخاتٍ فاضخةٍ ، وألقاب مُوحشةٍ، وعواقبَ مخزيةٍ وأوزانٍ مثقلة .

فقال له البخارى أبو العباس[2] : ولِمَ ذلك أيها الشيخ ؟

(أبو سليمان المنطقى) . قال : إن الشريعة مأخوذة عن الله - عزَّ وجلَّ - بوساطة السفير بينه وبين الخلق عن طريق الوحى ، وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ، وظهور المعجزات ، على ما يوجبه العقل تارة ، ويجوزه تارة لمصالح عامة متقنة ، ومراشد تامَّة مبيَّنة ، وفى أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه ، والغوْص فيه ، ولابُدَّ للتسليم للداعى إليه ، والمنبِّه عليه ، وهناك يسقط (لِمَ) ويبطُل (كيفَ) ويزولُ (هلاَّ) ويذهب (لو) و(ليت) فى الريح ، لأنَّ هذ المواد عنها محسومة ، واعتراضات المعترضين عليها مردودة ، وارتياب المرتابين فيها ضارٌ ، وسكون الساكنين إليها نافع، وجملتها مشتملة على الخير ، وتفصيلها موصول بها على حسن التقبل وهى متداولة بين متعلق بظاهر مكشوف ، ومحتجٍّ بتأويل معروف ، وناصر باللغة الشائعة ، وحامٍ بالجدل المُبين وذابٍّ بالعمل الصالح وضاربٍ للمثل السائر ، وراجع إلى البرهان الواضح ، ومتفقه فى الحلال والحرام ، ومستندٍ إلى الأثر والخبر المشهَوْرين بين أهل المِلَّة ، وراجعٍ إلى اتفاقِ الأمَّة . وأساسُها على الورع والتقوَى ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزُّلفى .

ليس فيها حديث المنجِّم فى تأثيرات الكواكب ، وحركات الأفلاك ومقادير الأجرام ومطالع الطوالعِ ومغاربِ الغوارب . ولا حديث تشاؤمها وتيامُنها وهُبُوطها وصُعودها ، ونَحْسِها وسَعْدِها ، وظهورها واستمرارها ، ورجُوعها واستقامتِها وتربيعِها وتثليثها ، وتسديسها ، ومقارنتها .

ولا حديثُ صاحب الطبيعة الناظر فى آثارها ، وأشكال الأُسطُقْسات ، بثبوتها وافتراقها ، وتصريفها فى الأقاليم والمعادن والأبدان ، وما يتعلق

---

(١) المرجع السابق من ص ٣ إلي ص ٢٤ (الجزء ا لثانى)

(٢) أحد جماعة إخوان الصفا

بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وما الفاعل[1] وما المنفعل منها ، وكيف تمازُجها وتزاوُجها ، وكيف تنافرها وتسايرها ، وإلى أين تجرى قواها ، وعلى أىّ شيء يقف منتهاها .

ولا فيها حديثُ المهندس الباحث عن مقادير الأشياء ونُقطها وخطوطها[1]، وسطوحها وأجسامها وأضلاعها وزواياها ومقاطعها ، وما الكرة ؟ والدائرة ؟ وما المستقيم ؟ وما المنحنى ؟ .

ولا فيها حديث المنطقىّ الباحث عن مراتب الأقوال ، ومناسب الأسماء والحروف والأفعال وكيف ارتباط بعضها ببعضٍ على موضوع رجُل من يونان ، حتى يصحّ بزعمه الصدقُ ويبذُ الكذب . وصاحب المنطق يرى أن الطبيب والمنجّم والمهندس وكُلَّ من فاه بلفظٍ وأمّ غرضا فُقراءُ إليه ومحتاجون إلى ما فى يديه . قال : فَعَلى هذا كيف يُسوّغ لإخوان الصفاء أنْ ينصُبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة فى طريق الشريعة ؟

(وراح أبو سليمان يوضّح أن بين إخوان الصفا وبعض المشعوذين صلات)

على أنَّ وراء هذه الطوائف جماعةً أيضاً لهم مآخذ من هذه الأغراض كصاحب العزيمة وصاحب الطِّلسم ، وعابر الرؤيا ، ومُدعى السحر ، وصاحب الكيمياء ومستعمل الوهم .

قال : ولو كانت هذه جائزةً وممكنة لكان الله تعالى نبَّه عليها ، وكان صاحبُ الشريعة يقوِّم شريعته بها ، ويكملُها باستعمالها ، ويتلافَى نقْصَها بهذه الزيادة التى يجدها فى غيرها ، أو يحضُّ المتفلسفين على إيضاحها (بها) ويتقدَّم إليهم بإتمامها ، ويفرض عليهم القيام بكلِّ ما يذُبُّ به عنها حسب طاقتهم فيها ، ولم يفعل ذلك بنفسه ، ولا وكله إلى غيره منْ خلفائه والقائمين بدينه ، بلْ نَهَى عن الخوْض عن هذ الأشياء وكَرَّه إلى الناس ذكْرها وتوعَّدهم عليها ، وقال : من أتَى عرَّافا أو طارقا (الذى يطرُق الحصى مستخبراً بطلب غيَّبه الله عنه) فقد حارب الله ،

(١) المرجع السابق .

ومن حارب الله حُرِبَ ، ومن غالبَهُ غُلِبَ [١]، حتى قال (أى أبو سليمان) ولو أنَّ الله حبس عن الناس القَطْر سبْعَ سنين ، ثم أرسله لأصبحت طائفةٌ به كافرين ويقولون . مُطِرنا بِنَوْءِ المِجْدَح ، فهذا كما ترى ، والمجدح الدُّبَران .

ثم راح يوِّضح أن اختلاف الأمَّة فى الأمور الدينية لم يحوجْها إلى الفلسفة) .

ثم قال : ولقد اختلفت الأمَّة ضروباً من الاختلاف فى الأصول والفروع ، وتنازعوا فيها فنوناً من التنازع فى الواضح والمُشكل من الأحكام ، والحلال والحرام والتفسير والتأويل ، والعيان والخبر ، والعادة والاصطلاح[١] ، فما فرغوا فى شيء من ذلك إلى منجم أو طبيب ، ولا منطقىٍّ ولا مهندسٍ ولا موسيقىٍّ ، ولا صاحب عزيمة وشعْبَذَةٍ وسحرٍ وكيمياء ، لأنَّ الله تعالى تمَّم الدين بنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم يُحوْجهُ بعد البيان الوارد بالوحى إلى موضوع بالرأى .

قال : ولم نجد فى هذه الأمَّة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة فى شيءٍ من دينها فكذلك أمة عيسى عليه السلام وهى النصارى ، وكذلك المجوس.

قال : وممَّا يزيدك وضوحاً ويريك عجباً أن الأمة اختلفت فى آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافاً فيها وفرقاً ، كالمرجئة والمعتزلة والشيعة والسنيَّة والخوارج ، فما فزعت طائفة من هذه الطوائف إلى الفلاسفة ، ولاحقَّقت مقالتها بشواهدهم وشهادتهم ، ولا اشتغلت بطريقتهم ، ولا وجدت عندهم ما لم يكُنْ عندَها بِكتاب ربِّها وأثر نبيِّها .

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا فى الأحكام من الحلال والحرام منذ أيَّام الصدر الأول إلى يومنا هذا لم نجدْهم تظاهروا بالفلاسفة فاستنصروهم، ولا قالوا لهم ، أعينونا بما عندَكم ، واشْهَدوا لنا أو علينا بما قبلَكم .

قال . فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين النبى المأخوذ بالوحْى النازل ، من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ؟

فإذا أدلَّوا بالعقل ، فالعقلُ موهبة من الله جلَّ وعزَّ لكلِّ عبدٍ ، ولكنْ بِقدْرٍ

(١) المرجع السابق

ما يُدرِك به ما يعلوه ، كما لا يخفىَ به عليه ما يتلوه ، وليس كذلك الوحى فإنه علىَ نوره المنتشر وبيانه الميسَّر

قال : وبالجُملة النبىُّ فوق الفليسوف ، والفيلسوف دون النبىِّ ، وعلىَ الفيلسوف أن يتَّبع النبىَّ ، وليس علَى النبىِّ أن يتبع الفيلسوف ، لأنَّ النبىَّ مبعوثٌ إليه .

قال · ولو كان العقل يُكتفى به لم يكُنْ للوحى فائدة ولا غناء ، على أن منازِل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه ، فلو كنَّا نستغنى عن الوحى بالعقل كيف كُنَّا نصنع ، وليس العقل بأسره لواحد مِّنا إنما هو لجميع الناس ، فإنْ قال قائل بالعبث والجهل كل عاقل موكولٌ إلى قدْرِ عقله ، وليس عليه أن يستفيد الزيادة من غيره ، لأنَّه مكفىٌّ به ، وغير مطالب بما زاد عليه .

(ويرد أبو سليمان على ذلك الذى يدَّعى أنه يَكتفى بهداية عقله، يردُّبقول الناس فيه)[1]

قيل له : كفاكَ تمادياً بهذا الرأى ، إنه ليس لك فيه موافق ولا عليه مطابق ، ولو استقلَّ إنسانٌ واحد بعقله فى جميع حالاته فى دينه ودنياه، لاستقلَّ أيضاً بقوته فى جميع حاجاته فى دينه ودنياه ، ولكان وحدَه يفى بجميع الصّناعات والمعارف ، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوعه وجنسه، وهذا قول مرذول ورأى مخذول .

قال البخارى (أبو العباس) · وقد اختلفَتْ أيضاً درجات النبوَّة بالوحى ، وإذا ساغ هذا الاختلاف فى الوحى ولم يكن ذلك ثالماً له (مانعاً)، ساغ أيضاً فى العقل ولم يكن مؤثراً فيه .

فقال (أبو سليمان موجها كلامه للبخارى)

يا هذا ، اختلاف درجات أصحاب الوحى لم يُخرِجْهم عن الثقة والطمأنينة بمن اصطفاهم بالوحى وخصَّهم بالمناجاة واجتباهم للرسالة وأكملهم بما ألبسهم من شعار النبُّوة ، وهذه الثقة والطمأنينة مفقودتان فى الناظرين بالعقول المختلفة لأنّهم على بُعد (على عميق) من الثقة والطمأنينة ، إلاَّ فى الشيء القليل ، والنَّزْر اليسير ، وعَوارُ هذا الكلام ظاهر ، وخطل هذا المتكلِّم بيِّن .

(١) المرجع السابق

قال الوزير (لأبى حيان) :

أفما سمع شيئا من هذا المقدسىّ ؟ (أحد أنصار إخوان الصفا) .

أبو حيان : بلى قد ألقيتُ عليه هذا وما أشبَهَه بالزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير فى أوقات كثيرة بحضرة حمزة الورَّاق فى الورَّاقين فسكت ، وما رآنى أهلاً للجواب لكنَّ الحريرىَّ غُلام ابنِ طُرَّارة هيَّجه يوماً فى الوَّراقين بمثل هذا الكلام فاندفع فقال :

أبوسليمان المقدسى[1] . الشريعة طبُّ المرضىَ ، والفلسفة طبُّ الأصحَّاء ، والأنبياءُ يطبُّون للمرضى حتى لا يتزايد مرضُهم ، وحتى يزولُ المرضُ بالعافية فقَط وأمَّا الفلاسفة فإنَّهم يحفظون الصحَّة على أصحابها حتى لا يعتريّهم مرضٌ أصلاً ، فبين مدبِّر المريض ومدبِّر الصَّحيح فرْقٌ ظَاهر ومكشوف ، لأن غاية مدبِّر المريض أن ينتقل به إلى الصحَّة ، هذا إذا كان الدواء ناجحاً ، والطبع قابلا ، والطبيب ناصحاً ، وغاية مدبِّر الصحيح أن يحفظ الصحَّة ، وإذا حفظ الصحَّة فقد أفاده كسْبَ الفضائل ، وفرَّغه لها ، وعرَّضه لاقتنائها ، وصاحب هذه الحال فائزٌ بالسعادة العظمى ، ومتبِّوئ الدرجة العليا ، وقد صار مستحقاً للحياة الإلهية ، والحياة الإلهية من الخُلود ، والديمومة والسرمدية .

فإن كَسَبَ من يبرأ من المرض [1] بطبِّ صاحبه الفضائلَ أيضا ، فليست تلك الفضائل من جنس هذه الفضائل ، لأن إحداهما تقليدية ، والأخرى برهانية ، وهذه مظنونة وهذه مستيقنة ، وهذه روحانية وهذه جسمية ، وهذه دهرية وهذه زمانية .

وقال أيضا : إنَّما جمعنا بين الفلسفة والشريعة، لأن الفلسفة معترفة بالشريعة وإنْ كانت الشريعة جاحدةً لها ، وإنَّما جمعنا بينهما لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة ، والعامة قِوامُها بالخاصَّة ، كما أنَّ الخاصة تمامها بالعامة، وهما متطابقتان إحداهما على الأخرى ، لأنهما كالظِّهارة التى لابُّد لها من البطانة ، وكالبطانة التى لابُّد لها من الظِّهارة.

---

(١) المرجع السابق .

فقال له الحريريُّ : أمَّا قولك طبُّ المرْضَى وطبُّ الأصحَّاء [1] وما نَسَقْتَ عليه كلامَك .
فمَثلٌ لا يعبِّرُ به غيرُك ، ومن كان فى مُشكلٍ ، لأنَّ الطبيب عندنا الحاذق فى طبِّه هو الذى يجمَعُ بين الأمرين ، أعنى أنه يبرئ المريض من مرضه، ويحفظُ الصحيح على صحته ، فأمَّا أن يكون ها هنا طبيبان : يعالج أحدُهما الصحيحَ ، والآخر يعالج المريضَ فهذا ما لم نعهده نحن ولا أنت وهو شيء خارج عن العادة فَمَثلُك مردودٌ عليك ، وتشنيعك فاضحٌ لك، وكُلَّ أحد يعلم أنَّ التدبير فى حفظ الصِّحة ودفع المرض - وإن كان بينهما فرق (هما شيئ) واحد ، فالطبُّ يجمعهما ، والطبيب الواحد يقوم بهما وبشرائطهما .

وأما قولك فى الفصل الثانى : أن إحدى الفضيلتين تقليدية ، والأخرى برهانية ، فكلام مدخول (مغلوط) ، لأنك غلْطتَ على نفسك ، ألا تعلم أنَّ البرهانية هى الواردة بالوحى ، - الناظمة للرشد ، الداعية إلى الخير ، الواعدة بحسن المآب ، وأنَّ التقليدية هى المأخوذة من المقدمة والنتيجة ؟ والدعوى التى يُرجع فيها إلى من ليس بحُجَّة ، وإنَّما هو رجل قال شيئاً فوافقَه آخرُ وخالفه آخر ، فلا الموافق له يرجع إلى الوحى ، ولا المخالف له يستند إلى حق ، والعَجَبُ أنك جعلت الشريعة من باب الظنِّ ، وهى بالوحى ، وجعلت الفلسفة من باب اليقين ، وهى من الرأى .

وأما قولك هذه روحانية - تعنى الفلسفة - وهذه جسمية - تعنى الشريعة ، فزخرفة لا تستحق الجواب ، ولمثل هذا فليعمل المزخرفون ، على أنَّا لو قُلنا : بل الشريعة هى الروحانية ، لأنَّها صوت الوحى ، والوحى من الله عزَّ وجلَّ[1] ، والفلسفة هى الجسمية لأنها برزت من جهة رجل باعتبار الأجسام والأغراض ، وما هذا شأنه ، بل هو بالجسم أشبه، وعن لطف الروح أبعد (لما أبْعَدْنا) .

وأما قولك الفلسفة خاصة ، والشريعة عامة فكلام ساقط لا نور عليه ، لأنَّك تشير به إلى أنَّ الشريعة يعتقدها قوم - وهى العامة - والفلسفة ينتحلها قوم - وهى الخاصة - فلم جمعتم رسائلَ إخوان الصفا،

---

(١) المرجع السابق .

ودعوتم الناس إلى الشريعة ، وهي لا تلزم إلاَّ للعامة ، ولَم تقولوا للناس: من أحبَّ أن يكون من العامة فليتحل بالشريعة ، فقد ناقضتم ، لأنكم حشوتم مقالتكم بآيات من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلول عليها بالشريعة ، ثم الشريعة مدلول عليها بالمعرفة ، ثم ها أنت تذكر أن هذه للخاصة وتلك للعامة ، فلم جمعتم بين مفترقين ، ومزقتم بين مجتمعين ، هذا والله الجهل المبين ، والخُرْق المشين .

وأمَّا قولك إنَّا جمعنا بين الفلسفة والشريعة ، لأن الفلسفة معترفة بالشريعة ، وإنَّ كانت الشريعة جاحدة على الفلسفة ، فهذه مناقضة أخرى : وإنَّى أظن أن حسك كليل وعقلك عليل ، لأنَّك قد أوضحت عُذر أصحاب الشريعة ، إذا جحدوا الفلسفة وذلك أن الشريعة لا تذكرها وألا تحضُّ على الدينونة بها ، ومع ذلك فليس لهم علمٌ بأن الفلسفة قد حثَّتْ على قبول الشريعة ، ونهت عن مخالفتها وسمَّتها بالناموس الحافظ لصلاح العالم .

ثم قال الحريريّ : حدثني أيُّها الشيخ على أيِّ شريعة دلت الفلسفة ؟ أعلىَ اليهودية أم علىَ النصرانية ؟ أم على الإسلام ؟ أم ما عليه الصابئون ؟ فإنْ ها هنا من يتفلسف وهو نصراني كابن زُرعة وابن الخمار وأمثالهما ، وها هنا من يتفلسف وهو يهودي كأبي الخير بن يعيش ، وها هنا من يتفلسف وهو مسلم كأبي سليمان والنوشجاني وغيرهما أفتقول : إن الفلسفة أباحت لكلِّ طائفة من هذه الطوائف أن تدين بذلك الدين الذي نشأت عليه؟ – ودع هذا ليُخاطَبَ غيرك ، فإنك من أهل الإسلام بالهدى والجبلَّة والمنشأ ، والوراثة ، فما بالنا[1] لا نرى واحداً منكم يقوم بأركان الدين ، ويتقيَّد بالكتاب والسنة ويراعي معالم الفريضة ووظائف النافلة ؟ وأين كان الصَّدر الأول من الفلسفة ؟ أعني الصحابة ، وأين كان التابعون منها ؟ ولم خفَى هذا الأمر العظيم – مع ما فيه من الفوز والنعيم – على الجماعة الأولى والثانية والثالثة : إلى يومنا هذا وفيهم الفقهاء والزُّهَّاد والعُبَّاد وأصحاب الورع والتُّقي والناظرون في الدقيق ودقيق الدقيق ، وكلُّ ما عاد بخير عاجلٍ وثوابٍ آجلٍ ، هيهات لقد أسررتم الحسْو في

(١) المرجع السابق .

الارتغاء (أزبدتم وأرغيتم . مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويريد خلافه)
واستقيتم بلا دلو ولا رشاء و ودللتم على فُسولتكم (ضعفكم وخستكم)
وضعف مُنتكم وأردتم أن تقيموا ما وضعه الله وتضعوا ما رفعه الله ،
والله لا يُغالب بل هو غالبُ على أمره ، فعال لما يريد .

(واستطرد الحريرى فى كشف الذين كادوا للشريعة)

قد حاول هذا الكيد خلق فى القديم والحديث فنكصوا على أعقابهم
خائبين ، وكُبُّوا لوجوههم خاسرين منهم أبو زيد البلخى ، فإنَّه ادَّعى أن
الفلسفة مقاودة للشريعة (أى مساوقة لها)، وإن إحداهما أمُ والأخرى
ظئر (الحاضنة لولد غيرها) ، وأظهر مذهب الزيدية ، وانقاد لأمير
خراسان الذى كتب له أن يعمل فى نشر الفلسفة بشفاعة الشريعة ،
ويدعو الناس إليها باللطف والشفقة والرغبة ، فشتت الله كلمتَه ، وقوَّض
دعامته ، وحال بينه وبين إرادته ، ووَكَلَه إلى حوله وقوته ، فلم يَتمَّ له من
ذلك شيء .

وكذلك رام أبو تمام النيسابورى ، وخدم الطائفة المعروفة بالشيعية ولجأ
إلى مطرِّف بن محمد وزيرابن مَرْداويج الجبلى ليكون له به قوة ، وينطق
بما فى نفسه من هذه الجملة ، فما زادته إلا صِفَراً فى قَدْره ، ومهانةً
فى نفسه، وتوارياً فى بيته ، وهذا بعينه قصد العامرىَّ فما زال مطرودا
من صُقع إلى صُقع يذرُ دمُه ويراد قتله ، فمرَّة يتحصَّن بفناء ابن
العميد ، ومرة يلجأ إلى صاحب الجيش بنيسابور ، ومرة يتقرَّب إلى
العامة، بكتب يصنِّفها فى نُصرة الإسلام ، وهو على ذلك يُتَّهم ويُعرف
بالإلحاد[1] ، وبقِدَم العالم والكلام فى الهيُولَى والصورة والزمان والمكان ،
وما أشبه هذا من ضروب الهديان التى ما أنزل الله بها كتابه ، ولا دعا
إليها رسوله ، ومع ذلك يناغى كل صاحب بدعه ، ويجلس إليه كلُّ مُتَّهم ،
ويلقى كلامه إلى كلِّ من ادعَّى باطنا للظاهر وظاهرا للباطن .

وما عندي أن الأئمة الذين يأخذ عنهم ويقتبس منهم ، كأرسطوطاليس
وسقراط وأفلاطون ، ، رهط الكفر ، ذكروا فى كتبهم حديث الظاهر
والباطن ، وإنَّما هذا من نسيج القدَّاحين فى الإسلام ، الساترين على

---

(١) المرجع السابق .

أنفسهم ما هُم فيه ، من التُّهم ، وهذا بعينه دبَّره الهَجَرِّيون بالأمس ، وبهذا دندن الناجمون بقزوين وبثُّوا الدعاة فى أرجاء الأرض ، وبذلوا الرغائب وفتنوا النفوس .

وقد سمعنا تأويلات لهذه الطوائف لآيات القرآن فى قوله عز وجل : (انطلقُوا إلى ظلٍّ ذى ثَلاث شُعَبٍ) وفى قوله تعالى (باطنُه فيه الرَّحمةُ وظاهرُه منْ قبلَه العَذَابُ) وفى قوله تعالى (عليها تسعة عَشَر) وفى قوله تعالى (سَنُريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفُسهم حتى يَتَبَيَّنَ لهم أنَّه الحق) إلى غير ذلك ممَّا يطول ويعول فدعُونا من التورية والحيلة ، والإيهام والكناية عن شيء لا يتَّصل بالإرادة والإرادة لشيء لا يتصِّل) بالتصريح ، فالناس أنقَد لأديانهم واحرَصُ على الظَّفر ببغيتهم من الصيارفة لدنانيرهم ودراهمهم .

قال أبو حيان . فما انبهر المقدسيّ بما سمع وكاد يتفرى إهابه من الغيظ والعجز وقلة الحيلة .

قال المقدسى : الناس أعداء ما جهلُوا ، ونشر الحكمة فى غير أهلها يورث العداوة ويطرح الشحناء ويقدح زند الفتنة .

(قال أبو حيان) ثم كَرَّ الحريرى كرَّ المدلِّ ، وعطف عطفة الواثق بالظفر وقال :

الحريرى : يا أبا سليمان (المقدسى أو البيستى)، من هذا الذى يُقر منكم عصا موسى انقلبَت حيَّة ، وأنَّ البحر انفلق، وأن يداً خرجت بيضاء من غير سوء ، وأن بشراً خُلقَ من تراب وأن آخر ولدتْه أُنثى[1] من غير ذكر ، وأنَّ ناراً مؤجَّجَةً طُرِحَ فيها إنسانٌ فصارت له برداً وسلاما ، وأن رجلا مات مائة عام ثم بُعِثَ فنظر إلى طعامه وشرابه على حاليهما لم يتغيَّرا ، وأنَّ قبراً تفقأ عن ميِّت حى ، وأنَّ طينا دُبِّر (صنع) فنُفخ فيه فطار ، وأنَّ قمراً انشق ، وأنَّ جذْعاً حنَّ ، وأنَّ ذئباً تكلَّم ، وأنَّ ماء نبع من أصابع فُروِّى منه جيشٌ عظيم وأنَّ جماعة شبِعَتْ من ثريدة فى قدْر جسم قَطاة ؟

وعلى هذا أن كنتم تدعون إلى شريعة من الشرائع التى فيها هذه الخوارق والبدائع فاعترفوا بأنَّ هذه كلها صحيحة ثابتة كائنة لا ريب

(١) المرجع السابق .

فيها ولا مرْية ، من غير تأويل ولا تدليس ، ولا تضليل ، ولا تعليل ، ولا تلبيس ، واعطونا خطكم بأن الطبائع تفعل هذا كلَّه والمواد تُواتي له ، والله تعالى يقدر عليه ، ودعوا التورية والحيلة والغيلة ، والظاهر والباطن، فإن الفلسفة ليست من جنس الشريعة ، ولا الشريعة من فن الفلسفة ، وبينهما يرمى الرامى ويهمى الهامى ، على أنَّا ما وجدنا الديَّانين من المتألهين (المتعبدين) من جميع الأديان يذكرون أنَّ أصحاب شرائعهم قد دَعَوْا إلى الفلسفة وأمروا بطلبها واقتباسها من اليونانيين هذا موسى وعيسى وابراهيم وداود وسليمان وركريا ويحيى إلى محمد صلى الله عليه وسلمَّ – لم نَحُقَّ (لم نجد على وجه الحقيقة) من يعزوا إليهم شيئا من هذا الباب ، ويعلِّق عليهم هذا الحديث .

قال الوزير (ابن سعدان) ما عجبى من جميع هذا الكلام إلاَّ من أبى سليمان (يقصد المنطقى) فى هذا الاستحقار والتغضُّب ، والاحتشاد والتعصب ، وهو رجل يعرف بالمنطقيِّ، وهو من غلمان يحيى بن عدى النصرانى ، ويقرأ عليه كتب يونان ، وتفسير دقائق كتبهم بغاية البيان .

أبو حيان . إنَّ أبا سليمان (المنطقيِّ) يقول : إنَّ الفلسفة حقٌّ ، لكنها ليست من الشريعة فى شيء ، والشريعة حق لكنَّها ليست من الفلسفة فى شيء ، وصاحب الشريعة مبعوث ، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه ، وأحدهما مخصوص بالوحى ، والآخر مخصوص ببحثه ، والأول مكفىٌّ والثانى كادح ، وهذا يقول : أمرْتُ وعلمْت وقيل لى ، وما أقول شيئاً من تلقاء نفسى ،وهذا يقول . رأيت ونظرتُ واستحسنت واستقبحت[1] ، وهذا يقول . نور العقل أهتدى به ، وهذا يقول معى نور خالق الخلق أمشى بضيائه ، ويقول: قال الله تعالى : وقال الملك ، وهذا يقول : قال أفلاطون وقال سقراط ، ويسمع هذا ظاهر تنزيل وسائغ تأويل ، وتحقيق سنَّة ، واتفاق أمَّة ، ويسمع الآخر الهيولى والصورة والطبيعة والأسطقُسُّ والذاتى والعرض والأيسى والليسى ، وما شاكل هذا ممَّا لا يسمع من مسلم ولا يهودىّ ولا نصرانى ولا مجوسى ولا مانوىّ .

---

(١) المرجع السابق .

ويقول أيضا : من أراد أن يتفلسف فيجب عليه أن يعرض بنظره عن الديانات ومن اختار التدين فعليه أن يعرِّد (يبتعد) بعنايته عن الفلسفة ويتحلَّى بهما مفترقين في مكانين على حالين مختلفين ، ويكون بالدين متقربًا إلى الله تعالى ، ويكون بالحكمة متصفِّحاً لقدرة الله تعالى في العالم الجامع للزينة الباهرة لكل عين ، المحيِّرة لكل عقل ، ولا يهدم أحدهما بالآخر ، أعني لا يجحد ما ألقى إليه صاحب الشريعة مُجملاً ومفصَّلاً ، ولا يغفل عمَّا استخزن الله تعالى هذا الخلق العظيم على ما ظَهَر بقدرته ، واشتمل بحكمته ، واستقام بمشيئته ، وانتظم بإرادته واستتَّمَّ بعلمه ، ولا يعترض على ما يبعد في عقله ورأيه من الشريعة (أي لايحكم عقله في الغيبيَّات) ، وبدائع آيات النبُّوة بأحكام الفلسفة فإن الفلسفة مأخوذة من العقل المقصود على الغاية ، والديانة مأخوذة من الوحي الوارد من العلم بالقدرة .

قال أبو سليمان المنطقي : ولعمري إنَّ هذا صعب ، ولكنه جِماع الكلم ، وأخْذ المستطاع ، وغاية ما عرض له الإنسان المؤيَّد باللطائف ، المزاح بالعلل وضروب التكاليف . قال : ومن فَضْل نعمة الله تعالى علَى هذا الخلق أنَّه نَهَج لهم سبيلين ، ونصَب لهم علمين وأبان لهم نجدَيْن (يقصد بهما العقل والعلم) ليصلوا إلى دار رضوانه ، إمَّا بسلوكهم وإمَّا بسلوك أحدهما .

قال له البخاري : فهلاَّ دل اللَّهُ على الطريقين اللذين رسمتهما في هذا المكان ؟

قال أبو سليمان : دلَّ وبيَّن ، ولكنَّك عَمٍ ، أما قال (وما يعقلُها إلا العالمون) وفي فحوى هذا : وما يعلمها إلا العالمون ؟ فقد وصل العقل بالعلم ، كما وصل العلم بالعقل ، لأن كمال الانسان بهما ، ألا ترى أنَّ العاقل متى عُرِّيَ من العلم[1] قلَّ انتفاعه بعقله ، كذلك العالم متى خُلِّيَ من العقل بطل انتفاعه بعلمه، أمَا قال (وما يتذكَّرُ إلاَّ أولُو الألبَاب) أما قال (فاعتبروا يا أُولي الأبْصَار) أمَا قال : (أفلا يتدبَّرُون القُرآن) أمَا ذمَّ قوماً حين قال (يعلَمُون ظَاهراً من الحَياة الدُّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) أفمَا قال: (أَوَ مَنْ كانَ ميْتاً فأحييناهُ وجعلنا لَهُ نُوراً يمشي به في الناس كَمْن مَثْله

---

(١) المرجع السابق

فى الظلمات ليس بخارجٍ منها) أمَا قال (وكأيِّنْ منْ آية فى السموات والأرْض يمُرون عليها وهم عنها معرِضُون) أمَا قال (إنَّ فِى ذلِكَ لذِكْرى لِمَنْ كان لَهُ قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد) وكتاب الله عز وجل محيط بهذا كله ، وإنَّما تقاد إلى طاعة [1] رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا فيما لا يناله عقلك ولا يبلُغه ذهنك ، ولا يعلُو إليه فكرك ، فأمرك باتباعه والتسليم له ، وإنَّما دخلت الآفة من قومٍ دهريِيِّن مُلحدين ركبوا مطية الجدل والجهل ، ومالوا إلى الشغب بالتعصب ، وقابلوا الأمور بتحسينهم وتقبيحهم وتهجينهم ، وجهلوا أنَّ وراء ذلك ما يُفوت ذرعهم ، ويتخلف عن لحاقه رأيهم ونظرهم ، ويعمى دُون كُنْه ذلك بصرهم ، وهذه الطائفة معروفة منهم . صالح بن عبد القُدوس ، وابن أبى العويجاء ، ومطر بن أبى الغيث ، وابن الراوندى والحصرى فإن هؤلاء طاحوا فى أودية الضلالة واستجروا إلى جهلهم أصحاب الخلاعة والمجانة .

قال البخارى . فما الذى تركتَ بهذا الوصف للدين جمعوا بين الفلسفة والديانة ، ووصلوا هذه بهذه على طريق الظاهر والباطن ، الخفِّى والجلِّى والبادى والمكتوم ؟ .

قال (أبو سليمان) · تركت لهم الطويل العريض . القوم زعموا أن الفلسفة مواطئة للشريعة ، والشريعة موافقة للفلسفة ، ولا فرق بين قول القائل : قال النبىّ وقال الحكيم ، وإن أفلاطون ما وضع كتاب النواميس إلا لنعلم كيف نقول ؟ وبأى شئ نبحث ، وما الذى نقدِّم ونؤخِّر ، وأن النبوة فرع من فروع الفلسفة ، وأن الفلسفة أصل علِم العالم ، وأن النبىَّ محتاج إلى تقييم ما يأتى به من جهة الحكيم ، والحكيم غنىٌّ عنه ، هذا وماأشبهه ، وأن صاحب الدين له أن يُعيِّن ويُورى ويُكنىٍّ حتى تتم المصلحة وتنتظم الكلمة ، وتتفق الجماعة وتثبت السُّنة ، وتحلُو المعيشة ، وحتى قال قائل منهم : أوائل الشريعة أمورٌ مبتدعة ووسائطها سُنن متبعة ، وأواخرها حقوق منتزعة . وأنَّ هذاالنعت منْ قولى : إن الشريعة إلهيَّه ، والفلسفة بشرية[2] : أعنى أن تلك بالوحى وهذه بالعقل ، وأن تلك موثوق بها ويطمأن إليها ، وهذه مشكوك فيها مضطرب عليها .

---

(١) سبق أن نوهنا إلى هذا المعنى فى ص ١٠١ ووعدنا القارئ بالاستشهاد بكلام أبى سليمان المنطقى . فليعد القارئ إلى الصفحة المشار إليها وليربط هذه بتلك

(٢) المرجع السابق .

قال له البخارى : فلمَ ينهجْ صاحب الشريعة هذه الطريق ، وكان يزول هذا الخصام ، ويُنفى هذا الظن ، وتكسد هذه السوق ؟

فقال أبو سليمان : إن صاحب الشريعة مستغرق بالنور الإلهى ، فهو على ما يراه ويبصر ، ويجده وينظره ، لأنه مأخوذ بما شهد بالعيان وأدركه بالحس وناله بوديعة الصدر عن كل ما عداه ، فلهذا يدعو إلى اقتباس كماله الذى حصل له ، ولا يسعد بدعوته إلاَّ مَنْ وفِّق لأجابته ، وأذعن لطاعته واهتدى بكلمته ، والفلسفة كمال بشرى فقير إلى الكمال الإلهى ، والكمال الإلهى غنيٌ عن الكمال البشرى والكمال البشرى فقير إلى الكمال الإلهى ، فهذا هذا ، وما أمر الله عز وجل بالاعتبار ، ولا حثَّ على التدبُّر ، ولا حرّك القلوب إلى الاستنباط ، ولا حبَّب إلى القلوب البحث فى طلب المكنونات ، إلاَّ ليكون عبادُه حكماء ألبَّاء أتقياء أذكياء ، ولا أمرَ بالسليم ولا حظر الغلوّ والإفراط فى التعمُّق إلاَّ ليكون عباده لاجئين إليه متوكلين عليه ، معتصمين به ، خائفين منه ، راجين له يدعونه خوفاً وطمعاً ، ويعبدونه رغباً ورهباً ، فبيَّن ما بيَّن حرصاً على معرفته وعباده، وطاعته وخدمته ، وأخفى ما أخفى لتدوم حاجتُهم إليه ، ولا يقَع الغنَي عنه ، وبالحاجة يقَع الخضوع والتجوُّد ، وبالاستغناء يعرض التجبُّر والتَّمُرد ، وهذه أمور جارية بالعادة ، وثابتة بالسيرة الجائرة والعادلة، ولا سبيل إلى دفعها ورفعها وإنكارها وجحْدها ، فلهذا لزم كل من أدرك بعقله شيئا أن يتِّم نقصه بما يجدُه عند كل من أدرك بوحى من ربه .

وقال أيضا : ممَّا يؤكد هذه الجملة أنَّ الشريعة قد أتتْ على معقول كثير، بنور الوحى المنير ولم تات الفلسفة على شيء من الوحى لا كثير ولا قليل. قال : وليس ليونان نبيٌ يُعرف ولا رسول من قبل الله صادق، وإنما كانوا يفزعون إلى حكمائهم ، فى وضع ناموس يجمع مصالح حياتهم ، ونظام عيشهم ، ومنافع أحوالهم فى عاجلتهم ، وكانت ملوكهم تحبُّ الحكمة وتؤثر أهلها وتقدم من تحلَّى بجزء من أجزائها ، وكان ذلك الناموس يُعمل به ويرجع إليه ، حتى إذا أبلاه الزمان ، وتقادمه الليل والنهار ، عادوا فوضعوا ناموساً آخر جديداً بزيادة شيء على ما تقدَّم

أو نقصان ، على حسب الأحوال الغالبة على الناس ، والمغلوبة بين الناس، ولهذا لا يقال إن الاسكندر فى أيام ملكه حين سار من المغرب إلى المشرق كانت شريعته كذا وكذا ، وكان يذكر نبياً يقال له فلان ، أو قال : أنا نبى[1] ولقد واقع دارا وغيره من الملوك على طريقة الغلبة فى طلب المُلك ، وحيازة الديار وجباية الأموال والسبى والغارة ، ولو كان للنبّوة ذكرٌ وللنبى حديث لكان ذلك منثورا مذكورا ، ومؤرخا معروفا .

قال الوزير (ابن سعدان) . هذا كلام عجيب ما سمعت مثله على هذا الشرح والتفصيل .

(قال أبو حيان مثنيا على أبى سليمان) قلت إن شيخنا أبا سليمان غزير البحر ، واسع الصدر ، لا يُغلق عليه فى الأمور الروحانية ، والأنباء الإلهية والأسرار الغيبية ، وهو طويل الفكرة ، كثير الوحدة وقد أوتىَ مزاجاً حسن الاعتدال ، وخاطراً بعيد المنال ، ولساناً فسيح المجال ، وطريقته هذه التى اجتباها مكتنفة بمعارضات واسعة ، وعليها مداخل لخصمائه ، وليس يفى كل أحد بتلخيصه لها لأنه قد أفرز الشريعة من الفلسفة ، ثم حثّ على انتحالهما معا ، وهذا شبيه بالمناقضة ، وقد رأيت صاحباً لمحمد بن زكريا فى هذه الأيام وَرد من الرَّى يقال له . أبو غانم الطبيب يشادُه فى هذا الموضع ويضايقه ، ويلزمه القول بما أنكره على الخصم ، وإذا أذنت رسمت كلامهما فى ورقات . (أى وضحت ذلك كتابة) .

فقال الوزير (ابن سعدان) قد بان الغرض الذى رمى إليه ، وتقليبه بالجدل لا يزيده إلا إغلاقاً ، والقصد معروف ، والوقوف عليه كافٍ ، ومع هذا فليت حظنا منه كان يتوفر بالتلاقى والاجتماع ، لا بالرواية والسماع ، هات فائدة الوداع ، فلقد بلغت فى المؤانسة غاية الإمتاع .

(قال أبو حيان) قلت : أكره أن أختم مثل هذه الفقرة الشريفة بما يشبه الهَزْل وينافى الجد ، فإنْ أذنْتَ رويت ما يكون أساسا ودعامة لما تقدَّم .

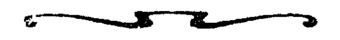
قال الوزير : هات ما أحببت ، فما عِهْدنا من روايتك إلاّ ما يشوقُنا إلى رؤيتك .

قال (أبو حيان) قلت : قال ابن المقفع . عمل الرجل بما يَعْلَمُ أنَّه خطأٌ هوًى ، والهوى آفةُ العفاف ، وتركْه العمل بما يعلم أنَّه صوابٌ تهاون ، والتهاون آفة

(١) المرجع السابق

الدِّين ، وإقدامه على ما لا يعلم أصوابٌ هو أم خطأ · لجاج ، واللجاج آفة الرأى .

فقال (الوزير) حرس الله نفسك . ما أكثر رونق هذا الكلام ، وما أعلى رتبته فى كُنْه العقل أكتبه لنا ، بل اجمع لى جزءا لطيفا من هذه الفِقَر ، فإنها تروِّح العقل فى الفينة بعد الفينة ، فإنها نُور العقل ليس يشعُّ فى كل وقت ، بل يُشَعّ مرة ويبرق مرة فإذا شعَّ عم نفعُه ، وإذا بَرَق خص نفعُه ، وإذا خفِى بَطلَ نفْعُه



• مثـالب الوزيريـن

تحدثنا فى الأجزاء السابقة من هذا الكتاب فى أكثر من موضع عن الوزيرين الشهيرين : أبى الفتح بن العميد ، والصاحب بن عباد ، وهما الوزيران اللذان قصدهما أبو حيان التوحيدى بالرَّى عاصمة البويهيين طالباً عطاءهما ، ولكنَّهما لم ينيلاه ما كان يأمله منهما فرجع فى عام ٣٧٠ هـ إلى بغداد ناقما على الصاحب بن عباد ، عازماً على إنشاء كتاب يعدِّد فيه مثالبه ومخازيه ، ولم ينْسَ ما لقيه أيضا من ذى الكفايتين أبى الفتح بن العميد الذى وَزَرَ لركن الدولة بن بويه بعد وفاة والده الوزير أبى الفضل فى عام ٣٦٠ ، وظل أبو الفتح فى الوزارة إلى عام ٣٦٦ فآلت الوزارة بعد ذلك إلى الصاحب بن عباد ، حيث وَزَرَ لمؤِّيد الدولة الذى تولى الملك بعد وفاة أبيه ركن الدولة فى ذلك العام (٣٦٦) وهو ذات العام الذى قُبض فيه على أبى الفتح وفيه أيضا اغتيل بيد عضد الدولة أخى مؤِّيد الدولة .

ففى هذين الوزيرين : أبى الفتح بن العميد[1] والصاحب بن عباد ألَّف أبو حيان كتابه المذكور (مثالب الوزيرين) ويسميه ياقوت أحيانا بأخلاق الوزيرين أو ثلب الوزيرين أو كتاب الوزيرين ومرة خامسة باسم كتاب هفوات ابن الصابى (يريد ابن عباد) .

ابن سعدان يسأل أبا حيان عن ابن عباد :

حينما تولَّى أبو عبد الله بن سعدان الوزارة لصمصام الدولة البويهى ببغداد فى عام ٣٧٣هـ . كان لأبى حيان التوحيدى شرف مسامرته والحديث إليه بوساطة صديقه أبى الوفاء المهندس ، وفى إحدى ليالى أبى حيان سأله الوزير بقوله .

" قال : إنّى أريدُ أن أسألك عن ابن عباد فقد انتجعته[2] وخبرته وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ، فما أظن أنّى أجدُ مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له علَى أنّى قد شاهدته بهمذان لمَّا وافَى ولكنِّى لم أعجُمه ، لأنَّ اللُبْثَ كان قليلاً ، والشغل كان عظيما ، والعائق كان واقعا .

فقلت : إنّى رجلٌ مظلوم من جهته ، وعاتبٌ عليه فى معاملتى ، وشديد الغيظ لحرمانى ، وإنْ وصفتُه أربيْت (زدت) منتصفاً ، وأنتصفت منه مسرفاً ، فلو كنت

---

(١) الدكتور / أحمد محمد الحوفى – أبو حيان التوحيدى – جـ/٢ ص ٦٩ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة – لأبى حيان التوحيدى جـ/١ ص ٥٣ ، ٥٤ .

معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عارياً منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق على أنِّي عملتُ رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نَفَسى الغزير ، ولفظى الطويل والقصير ، وهى فى المسودَّة ولا جسارة على تحريرها ، فإنّ جانبه مهيب ، ولمكره دبيب ، وقد قال الشاعر

إلىَ أنْ يَغِيبَ المرءُ يُرْجَى ويُتَّقَى   ولا يعلم الإنسان ما فى المغيَّبِ

قال : دع هذا كله ، وانسخ لى الرسالة من المسودَّة ولا يمنعك ذاك ، فإن العين لا ترمقها والأذن لا تسمعها واليد لا تنسخها (أى أنت فى مأمن من ابن عباد) .

وبعد ، فما سألتك إلاَّ وصفه بما جُبِل عليه ، أو بما اكتسب هو بيديه من خير وشر، وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنه مع علمه الواسع ، وكرمه السابغ ، يصف المحسن والمسئ ، ويُثنى على هذا ويثو على ذاك (يخبر بذنوبه) فاذكر لى من أمره ما حفَّ اللفظ به ، و. ـبر الخاطر إليه وحضر السبب له .

قلت : إنَّ الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كلِّ أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كلِّ فن أطرافاً ، والغالب عليه كلام المتكلِّمين المعتزلة ، وكتابتُه مهجَّنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكُتَّاب ، وهو شديد التعصُّب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد[1]، وليس (عنده) بالجزء الإلهى خبر، ولا له فيه عين ولا أثر ، وهو حَسَن القيام بالعروض والقوافى ويقول الشعر ، وليس بذاك ، وفى بديهته غزارة ، وأما رويَّته فخوَّاره، وطالَعُه الجوزاء والشِّعرى قريبة منه ، ويتشيَّع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية ولايرجع إلى الرِّقة والرأفة والرحمة ، والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته ، واقتداره وبسطته ، شديد العقاب طفيف الثواب ، طويل العتاب بذئ اللسان».

وأخذ أبو حيان التوحيدى يسرد وعدد من صفات الصاحب بن عبَّاد التى وصفه بها، والسمات التى خلعها عليه ، لكى يصوره بالصورة التى يرتئيها لابن سعدان ، وحتى يرجح هو فى كفة الميزان ، وقلَّما يصفه بصفة ترفعه ولا تخفضه ، أو عبارة تعليه ولا تدحضه ، فهو فى رأيه «حسود ، حقود حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية ، وأما الكتَّاب والمتصوفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون فيخافون جفوته ، وقد قتل خَلْقاً وأهلك ناساً ، ونفَى أمَّة نخوة وتعنتاً ، وتجبرًا وزهوا ، وهو فى هذا يخدعه الصبى ويخلبه الغبى ....».

---

(١) المرجع السابق .

يف . . ولم يبدُ للرجل صفةٍ طيِّبة – وفى رأيى أن الزراية التى ألد
بالصاحب بن عبَّاد ، هى الدَّافع الأول لإحراقه كتبه فى أواخر أيَّامه ، وإن لم يذكر ذلك صراحة فى رسالته التى بعث بها إلى القاضى أبى سهل على بن محمد – وراح أبو حيان يحكى للوزير ابن سعدان ، ويؤكِّد له أن الذين أوصلوا الصاحب بن عبَّاد لهذا الحدِّ من الزَّهو والخيّلاء هم طالبو رفده ، ومنتجعوه لعطاياه ، وضرب أمثلةً بالرسائل التى ترد إليه وما فيها من التزلُّف والنِّفاق ، والتكلُّف والاسترقاق .

ولم يقف أبو حيان عند هذا الحدِّ من مهاجمة الصاحب بن عباد ، بل جعل المتردِّدين عليه كقطع الشطرنج ، فى يده يلعب بهم كيف يشاء[1] ، ويجنِّدهم للهدف الذى يريد ، بل إنه قد يصوغ بيتا أو بيتين من الشِّعر ، يدفعهما إلى أحد الناس المتردِّدين عليه ، يعلى فيهما من قدر نفسه ويخفِّض من قدر المادح ما شاء ، ويُوعز لذاك الرجل أن يتهافت عليه متطفلاً لإلقاء هذين البيتين من الشِّعر فيسمح له بتأفف .

ولم يَنْجُ من نقده ولِّى الأمر وصاحب السلطان الملك مؤِّيد الدولة بن بويه وكذلك أخوه فخُر الدولة وهما اللذان استوزراه وأحلاَّه تلك المكانة فيقول « وقد أفسده أيضا ثقة صاحبه به ، وتعويله عليه ، وقلَّة سماعه من الناصح فيه فعُذِر بازدهاء المال والعلم والاقتدار ، والأمر والكفاية ، وطاعة الرجال وتصديق الجلساء والعادة الغالبة ، وهو فى الأصل مجدود (محظوظ) لا جرم ، ليس يُقلُّه مكانٌ دلالا وترفا وعُجباً وتيها وصلفاً » .

فقال (الوزير ابن سعدان) : «لاشكَّ أن المسودَّة جامعة لهذا كلَّه – يقصد ما كتبه عن ابن عباد من مثالب – (فردَّ عليه أبو حيان) : تلك تجزَّع (تجزَّء) فى دسْت كاغد فرعونى ، فقال . أجْد تحريرها وعلىَّ بها ، ولك الضَّمان ألاَّ يراها إنسان ، ولا يدور بذكرها لسان . قلت السمع والطاعة» .

أبو حيان يسوق الشواهد من النقاد فى تقييم ابن عباد :

" قال (ابن سعدان) قد تركنا من حديثه ما هو أولى مما مر بنا ، كيف بلاغته من بلاغة ابن العميد ؟ وأين طريقته من طريقة ابن يوسف والصابى ؟ قلت : قد سألت جماعةً عن هذا ، فأجابنى كل واحد بجواب ، إذا حكيته عنه ، كان ما يقال فيه ألصق ، وكنت من الحكم عليه وله أبعد .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ .

قال : صف هذا .

قلت . سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عبّاد فى كتابته ، فقال . يرتفع عن المتعلمين فيها بدرجة أو بدرجتين ، وقال علىٌّ بن القاسم . هو مجنون الكلام ، تارة تبدو لك منه بلاغة قُسّ ، وتارة يلقاك بعَيٍّ باقل ، تحريف كثير المعانى ، وإحالة فى الوضع ، وغلط فى السجع ، وشرود عن الطبع .

وقال ابن المرزبان · هو كثير السرقة [1] سيء الإنفاق ، ردئ القلب والعكس ، فَروقة (شديد الفزع) فى إيراده ، هزيمته قبل هجومه ، (وإحجامه) أظهر من إقدامه . وقال الصابى · هو مجتهد غير موفّق ، وفاضل غير منطّق (غير بليغ) ؟ ولو خطا كان أسرع له ، كما أنه لما عدا كان أبطأ عليه ، وطباع الجبلى مخالف لطباع العراقى ، يثب مقاربا فيقع بعيدا ، ويتطاول فيتقاعس قعيداً .

وقال على بن جعفر . ممَّ كانت الطبائع . هو يكذبُ نفسَه بحُسن الظنِّ فى البلاغة ، وطباعه تصيق عنه بالتخلُّف ، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ، فأما شينُه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة ، وأما إحالته فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة... "

عود إلى كتاب مثالب الوزيرين :

قبل أن نعود للحديث عن هذا الكتاب ، وقبل أن ننساق مع أبى حيان وهو فى نشوة التشفّى من ابن عبّاد ، نذكّر بعضنا بعضا بشيء من حياة الرّجل ، قال الدكتور حامد حفنى : « ولم تكن [2] ثقافة الصاحب مقصورةً على ما أخذه من ابن العميد (أبى الفضل) من صناعة الكتابة ، أو ما أفاده فى رحلاته إلى بغداد من علوم اللغة ، بل أضاف إلى جانب ذلك ثقافات شيعية تلقنها من بيئته ، وقد كانت بلاد ايران منذ عصر بنى بويه مهدا للتشيُّع والشيعة ، كذلك تلقّن فى هذه البيئة ثقافات اعتزالية تتعلق بعلم الكلام ، والمناظرات وطرائق الجدل والحوار وقد كان أكثرُ الشيعة يدينون بالاعتزال . فأنت ترى – مما قدمته لك – أن الصاحب بن عبّاد شيعى معتزلى ، وكاتب شاعر واسع الثقافة ذو مشاركة فى كثير من العلوم المعروفة فى عصره » .

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) الدكتور حامد حفنى داود – الآداب الاقليمية فى العصر العباسى الثانى

وأما الكتاب محل الدراسة فموضوعه تعديد الجوانب الضعيفة - فى رأى أبى حيان - لكل من أبى الفتح بن العميد والصاحب بن عباد ، ويتبيَّن من القَدْر الذى نقله من هذا الكتاب - وهو غير قليل - أنَّ ما يخص الصاحب أكثر مما يخصُّ ابن العميد ، وإن الحنق على الصاحب أشد من السخط على أبى الفتح - خاصة\ وأن هذا الأخير أودَى شهيداً على يدى من أذاقه العذاب ألواناً لتمسكه بمبادئه وإيفائه بعهوده - ولا عجب فى هذا ، فإننا لا نعرف الزمن الذى قضاه عند أبى الفتح ، ولم نعلم مقدار أمله فيه ، لكنَّنا علمنا أنَّه قضى زمناً أطول عند ابن عباد بالرَّى (٣٦٧ - ٣٧٠) وأنَّه خدمه، وأمَّل فيه أملا عظيما . غير أن أمله ذهب هباءً ، فعاد إلى بغداد حانقا أشد الحنق عليه .

أبو الفتح ابن العميد

يقتضى التنويه على ذكر ذى الكفايتين أبى الفتح بن العميد ، أن أبا حيان لا قد يذكر أباه قبله بكنيته (أبى الفضل) ، وهو على عهده دائما يحاول البحث عن النقائص ما اهتدى إلى ذلك سبيلا قال : فأما ابن العميد [1] فإنى سمعت ابن الجمل يقول . سمعت ابن ثوابة يقول . أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنَّه تخيَّل مذهب الجاحظ وظنَّ أنَّه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوقع بعيدا عن الجاحظ ، قريبا من نفسه ، ألا يعلم أبو الفضل أنَّ مذهب الجاحظ مدَبَّر بأشياءَ لا تلتقى عند كلٍّ إنسان ، ولا تجتمع فى صدر كلِّ أحد ، بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق (رغبته فى الكتابة) والمنافسة والبلوغ ، وهذه مفاتح قلمَّا يملكها واحد ، وسواها مغالق قلّما ينفكُّ منها واحد .

وأمَّا ابنه ذو الكفايتين ، فلو عاش كان أبلغ من أبيه [2] كما كان أشعر منه ، ولقد تشبه بالجاحظ فافتضح فى مكاتباته لإخوانه ، ومجانته فى كلامه ، ومسائله لمعلمه التى دلتنا على سرقته وغارته ، وسوء تأتِّيه ، فى تستُّره وتغطِّيه ، ومن شاء حمَّق نفسه ، وكان مع ذلك أشد الناس ادعاءً لكل غريبة ، وأبعد الناس من كل قريبة ، وهو نَزْر المعانى ، وشديد الكلف باللفظ ، وكان أحسدَ الناس لمن خطَّ بالقلم أو بلَغ باللسان ، أو فلجَ فى المناظرة ، أو (فكه) بالنادرة ، أو أغرب فى جواب ، أو اتَّسع فى خطاب ،

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ص ٦٦

(٢) المرجع السابق ص ٦٦ ، ٦٧ . (ومن أول حديثه . "فأمَّا ابن العميد ..." يتاكد لنا أنه تناول كلا من الوالد وولده بالنقد الجارح ولاسيما الابن) وهذا لايتعارض مع القول بأن المراد بابن العميد فى كتابه مثالب الوزيرين هو أبو الفتح .

ولقد لقى الناس فيه الدواهي لهذه الأخلاق الخبيثة ، وقد ذكرت ذلك فى الرسالة ، وإذا بُيِّضَتْ وقفْت عليها (الخطاب لابن سعدان) من أوّلها إلى آخرها إن شاء الله .

وحتى لا ننساق أيضا مع ابن حيَّان فى تشفِّيه من أبى الفتح بن العميد ، نذكُر عن الرجل نبذة من حياته دفاعاً عنه - وقد سبق أن ذكرنا شيئا من هذا القبيل - ولد أبو الفتح بن العميد عام ٣٢٧ هـ وقتل سنة ٣٦٦ هـ . كذا ذكر ابن الصابى ، وكان أديبا فاضلا بليغا ، قد اقتدى بأبيه فى علو الهمة وبعد الشأو فى الكرم والفضل :

إنَّ السَّرىَّ إذا سرى فبنفسه   وابن السَّرى إذا سرى أسراهما

وكان أبوه قد أدبه فأحسن تأديبه ، وهذبه أبو حسين بن فارس اللغوى وأحسن تهذيبه ، ولما مات فى الوقت الذى ذكرناه فى ترجمته وهو سنة ستين وثلاثمائة [١] قام مقامه فى وزارة ركن الدولة ، وذلك قبل الاستكمال وفى بُعد من الاكتهال ، وعمره حينئذ اثنتان وعشرون سنة وألقى ركن الدولة مقاليده إليه ، وعوَّل فى تدبيرالسيف والقلم عليه ، فلما جرى لعز الدولة بُختيار بن مُعز الدولة ببغداد ما جرى مع غلامه سُبُكتكين ، وأرسل إلى عمِّه ركن الدولة يستعين به ، تقدَّم إلى إبى الفتح بالمضىِّ إلى شيراز[٢] ، والمسير بصحبة ولده عضُد الدولة لإنجاد عزِّ الدولة ، وورد إلى بغداد ، وجرى ما جرى من موت سُبكتكين ومحاربة أصحابه حتى أنجلو عنها ، وطَمِعِ عضد الدولة فيها ، ومكاتبته إياه بمفارقتها (أى حينما طلب منه أبوه تركها) وتسليمها إلى عزِّ الدولة ، وكتب ركن الدولة إلى أبى الفتح بالقيام بذلك والتكفُّل به (وهذا هو أوَّلُ شيء اختزنه عضد الدولة لأبى الفتح) حتى يفارق عضد الدولة بغداد فى قصة هى مذكورة فى التواريخ . فتشدَّد ابن العميد على عضد الدولة فى ذلك ، وخاطبه مخاطبات حقدها عضد الدولة عليه ... » .

إلى إن واتت عضد الدولة الفرصة التى كان يمنِّى نفسه للتنكيل بأبى الفتح بن العميد . " فكتب عضد الدولة إلى أخيه مؤيِّد الدولة يأمره بالقبض عليه واستصفاء أمواله وتعذيبه ، فقبض عليه وحمله إلى بعض القلاع ، وبدرت منه إليه كلمات فى حق عضد الدولة نُمِّيَتْ إليه ، فزادت فى استيحاشه منه ، فأنهض من حضرته من تكفَّل

---

(١) يسه الباحث . أن هذا التاريخ ذكر خطأً فى الجزء الرابع عشر من معجم الأدباء ص ١٩٢ حيث ذكر أن أبا الفضل مات سنة ٣٣٠ والصواب هو ما أثبتناه (٣٦٠هـ) .

(٢) ياقوت الحموى - معجم الأدباء من ص ١٩١ - ٢٤٠ .

بتعذيبه ، واستخراج أمواله ، والتنكيل به فأول ما عمل أن سَمَل إحدى عينيه ، ثم نَكَّل به وجزَّ لحيته ، وجدع أنفه ، وعُذِّب بأنواع من العذاب . قال :

بُدل من صُورتي المنظر ... لكنَّه ما بُدِلَ المَخْبَرُ
وليس إشفاقاً على هالك ... لكنْ على مَنْ ليس يستعبِرُ
وواله القلب لما مسَّني ... مُستخبِرٍ عنِّي ولا يُخبَرُ
فقل لمن سُرَّ بما ساءني ... لابُد أن يسلك المعبَرُ

ووُجد على حائط مجلسه بعد قتله .

مَلِكٌ شُدَّ لى عُرا الميثاق ... بأمانٍ قد سَار فى الآفاقِ
لم يَحُلْ رأيه ولكنَّ دهرى ... حال عن رأيه فشدَّ وَثاقى
فقرى الوْحشَ مَنْ عظامِي ولحْمِي(١) ... وسقى الأرْضَ مِنْ دمِي المُهراقِ
فعلَى مَنْ تركْتُه مِنْ قريبٍ ... أو حبيبٍ تحيَّةُ المُشتَاق

وفى بنى العميد يقول بعضهم .

مررت على ديارِ بنى العميد ... فألفيْتُ السَّعادَةَ فى خُمود
فقل للشامتِ الباغى علينا ... فإنَّك لم تُبَشَّرْ بالخُلودِ

ومن شعره فى الحبس :

ما بالُ قومِيَ يجفُونى أكابِرُهم ... أأنْ أطاعتْهُمُ الأيَّامُ والدُّولُ
أإن تقاصَر عنِّى الحال تقطعُنى ... عُراهمو سَاءَ ما شَاءُوا وما فعلوا
أغيرَّهم أنَّ هذا الدَّهرَ أسكتنى ... عنهم وتنطقُ فيه الشاهُ والإبلُ
قِدْماً رُميت فلم تَبْلُغْ سهامو ... وأخطأُ الرَّمْيِ أنْ يُرمَى به زُحَلُ

وَهُنا نتوقف قليلاً لنرى ماذا فعل أبو حيان إزاء هذه المأساة التى تعرَّض لها أبو الفتح بن العميد :

---

(١) المرجع السابق .

لقد ذكرْنا آنفا فى معرض حديثنا عن أمانة أبى حيان فى النَّقل والرواية أنه ذكر ما حدث لأبى الفتح ، بأمانة ودقة ، ونقلها عنه ياقوت فى معجمه ، ولم يتزيَّد فيها ولم يبالغ، بل حكاها كما وقعت فعلا على رغم ما كان يحمل بين جنبيه لابن العميد من الألم جراء مقاساته لنيل رفده وقد اتَّفقت روايته هذه مع الرواية التى رواها الثعالبى فى يتيمة الدهر .

بعض مثالب ابن العميد

قال أبو حيان فى كتاب (المحاضرات) [1] · وقصدتُ مع أبو زيد المرَوزِى دار أبى الفتح ذى الكفايتين ، فمُنعنا من الدخول عليه أشد منع ، وذكَر حاجبه أنه يأكل ، فرجعنا بعد أن قال أبو زيد للحاجب .

أجلسنا فى الدَّهليز إلى أن يفرُغ من الأكل فلم يفعل[2] ، فلما انصرفنا خزايا أنشأ يقول متمثلا

على خُبز إسماعيل واقيةُ البخلِ فقد حلَّ فى دارِ الأمان من الأكْلِ
وما خُبزه إلاَّ كَآوى[3] يُرى ابنه ولم يُر آوى فى الحُزون وفى السَّهْلِ
وما خبزه إلاَّ كعنقاءِ[4] مُغربٍ تُصَوَّرُ فى بُسط المُلوك وفى المُثلِ
يحدَّث عنْها النَّاسُ من غير رُؤيةٍ سوى صورة منْ أن تَمُرَّ ولا تُملى

قال أبو حيان وأنشدنا أبو بكر القومسى الفيلسوف ، وكان بحراً عجَّاجا ، وسراجا وهَّاجا وكان من الضُرِّ والفاقة ، ومقاساة الشدة والإضافة بمنزلة عظيمة .. ثم انشدنا للعَطَوى ·

(وذكر قصيدة عدتُها ستة عشربيتاً منها) :

مَنْ رماهُ الإلهُ بالإقتارِ وطِلاب الغِنَى من الأسفارِ
هو فِى حيرةٍ وضنْكٍ وإفلا سٍ وبؤسٍ ومِحنة وصَغارِ

وقلتُ له يوما : لو قصْدتَ ابن العميد وابن عباد عسى تكون من جملة من ينفق عليهم ، وتحظى لديهما ، فأجابنى بكلام منه · معاناة الضُرِّ والبؤس أوْلَى من مُقاساة

---

(١) المرجع السابق الجزء (١٥) من ص ٩-١٣ إلى ص ٢٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٩ - ١٢ .
(٣) آوى ابن آوى .
(٤) أى أن حبزه مستحيل الوصول له كالعنقاء المصورة في بسط الملوك والتى تذكر فى الأمثال .

الجُهَّال والتيوس الصبر على الوخم الوبيل أولى من النظر إلى مُحيًا كلِّ ثقيل ثم أنشأ يقول

بينى وبيْنَ لئـام النَّاسِ معتـبـةٌ   مـا تنقـضى وكـرامُ النَّاس إخـوانى

إذا لقـيتُ لئـيمَ القـوم عنَّفَنى   وإنْ لقـيتُ كـريمَ القـوم حـيَّـانى

ففى المثال السابق الذى سُقناه لأبى حيّان عن ابن العميد هو للتدليل على أنَّه كان يتَّسم بالبُخل وهو اتهام رماه به أبو حيان ، لكنَّه لم يجرِّحه كما جَرَّح ابن عبَّاد إلى حدِّ الإسفاف ، ومع هذا فقد ذكر ياقوت لأبى حيان فى آخر كتاب مثالب الوزيرين ما ينبئ عن كرم ابن العميد وسخائه ، وإنْ كان السَّخاء على غير أبى حيان ومن ذلك قوله :

" جرى بينى وبين أبى على مسكويه شيء ، قال لى مرة · أما ترى إلى خطأ صاحبنا [1] – يعنى ابن العميد فى إعطائه فلاناً ألف دينارضربةً واحدة ؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق .

فقلتُ – بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف ، أيها الشيخ ، أسألك عن شئ واحد، فاصدق فإنَّه لا مذبَّ للكذب بينى وبينك ، لو غَلط صاحبُك فيك بهذا العطاء وأضعافه ، اكنت تتخيله فى نفسك مخطئاً ومفسِدا أو جاهلا بحقِّ المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ، وليته أربَى عليه ؟

فإن كان الذى تسمع على حقيقة ، فاعلم أنَّ الذى يردُ ويَرِدُ مقالك إنمَّا هو الحسد ، أو شيء آخر مِنْ جنسه ، وأنْتَ تدَّعى الحكمة وتتكلَّف الأخلاق ، وتُزيِّف الزائف ، وتختار منها المختار ، فافطِنْ لأمرك ، واطَّلِعْ على سرِّك وشرِّك" .

أبو حيان يثنى على أبى الفتح بن العميد

لم يجد أبى حيان فيما وجد من مآخذ على أبنى الفتح ابن العميد – كما زعم – إلا البخل واللهو ، إلا أنَّه عاد فنفى عنه البخل من المثال الذى سقناه ثم إن صفة المجون واللهو هى سمة من سمات الشباب لا سيما الذى نشأ فى النعيم العميم ، على أن ابن العميد قد ولى الوزارة وهو غضُّ الشباب بعد وفاة والده فَنسِى أيام الطراءة والبراءة وأعدَّ للأمر عدته ، وبرهن على أنه أهل للأمور الجسام كما حكينا عنه آنفا ، فإذا ذكر أبو حيان عنه فيما ذكر مثلا شيئا مما ينسبه إليه فإنما هو تحصيل حاصل لا يغير من

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

الحقيقة شيء قال « وهذا بالأمس [١] على بن محمد ذو الكفايتين اغتر بشبابه ، ولها عن حزم والأخذ بما كان أولى به ، وظنّ أن كفايته تحفظه ، ونسبه يكفيه .. ومشى فعثر، وراب فخثر ... » .

لكنّ أبا حيان ما لبث أن عاد فأعاد الحقّ لأهله وربما كان عن غير قصد ، صرح بهذا في قوله على لسان صديقه أبى الوفاء المهندس بعد عودته من الرَّى إلى بغداد[٢] ، «إنك تعلم يا أبا حيان إنك انكفأت من الرى إلى بغداد فى آخر سنة سبعين (وثلاثمائة) بعد فوت مأمولك من ذى الكفايتين – نضّر الله وجهه – عابسا على ابن عبّاد مغيظاً منه .. » كذلك نقل عنه وهو يصف أبا الفتح فى أيام وزارته حينما زار بغداد واحتشد بحضرته العلماء والأدباء والشعراء كلٌّ يطرى وكلٌّ يبدى إعجابه وقال " ودخل شهر رمضان [٣] فاحتشد وبالغ ووصل ووهب ، فجرت فى هذه المجالس غرائب العلم ، وبدائع الحكمة ، وخاصّة ما جرى مع أبى الحسن العامرى ، ولولا طول الرسالة لرسمت ذلك كلَّه فى هذا الكتاب ... إلى أن يقول . وسمعت أبا إسحاق يقول : هو ابن أبيه لله درُّه ، وأخذ فى تعظيم أبيه ... » .

وقال فى معرض الحديث عن وفادته على دار الصاحب بن عباد حينما سأله عن ابن العميد – أبى الفتح .

« ما ذنبى إذا قال لى هل وصلت إلى ابن العميد [٤] أبى الفتح ؟ فأقول نعم رأيته وحضرت مجلسه ، وشاهدت ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا ، وفيما تقدَّم منه كذا وكذا ، وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا . ووصل أبا سعيد السيرافى بكذا وكذا ، ووهب لأبى سليمان المنطقى كذا وكذا – فينزوى وجهه (أى الصاحب) ويُنكر حديثه ، وينجذب إلى شيء آخر ليس ممّا شرع فيه ، ولا ممّا حرّك له ، ثم يقول : إعلم أنَّك إنَّما انتجعته من العراق ، فاقرأ علىّ رسالتك التى توسلّت إليه بها ، وأسهبت تقريظا له فيها ، أفتمانع فيأمر ويشدّد فأقرؤها فيتغير ، ويذهل ، وأنا أكتبها لك (لابنْ سعدان) ليكون زيادة فى الإفادة :

---

(١) الامتاع والمؤانسة (جـ/٣) ص ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق جـ/١ ص ٢ .
(٣) ياقوت – معجم الأدباء جـ/٥ ص ٥١
(٤) المرجع السابق ص ٣٦ ، ٣٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم هيئ لى من أمرى رَشدا ، ووفقنى لمرضاتك أبدًا [1]، ولا تجعلْ الحرمان علىّ رصدا ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب وخير الثواب ما تضمَّن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلَّق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن الشكر وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخبر الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما نشأ عن توفيق .

لما رأيت شبابى هرما بالفقد ، وفقرى غنيًا بالقناعة ، وقناعتى عجزاً عند أهل التحصيل عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكانى فيه وموضعى منه ، فرأيت طرْفه نابيا ، وعَنانه عن رضاى متثنيا ، وجانبه فى مرادى خشنا ... حتى لاحت لى غرَّة الاستاذ فقلت . حلَّ بى الويْل (المطر) وسال بى السيل ، أين أنا عن مَلك الدنيا والفلك الدائر بالنُّعمى أين أنا من مشرق الخير ومغرب الجميل ، أين أنا من بدر البدور ؟ وسعد السعود ؟ أين أنا عمَّن يرى البُخل كفراً صريحاً ، والإفضال دينا صحيحا ؟ أين أنا من سماء لا تفتر عن الهطَلان؟ وعن بحر لا يقذف إلا اللؤلؤ والمرْجان .. لمَ لا أقصد بلاده ، لمَ لا اقتدح زناده ؟ لمَ لا أنتجع جنابه وأرعى مزاده ؟ لمَ لا أسكن ربْعه؟ لمَ لا أستدعى نفعه؟ لمَ لا أخطب جُوده ؟ وأهتصر عُوده .

فتىً صيغَ من ماءِ الشبيبةِ وجُهه   فألفاظهُ جودٌ ، وأنفاسه مجد

بعض مثالب الصاحب بن عبَّاد :

قال أبو حيان (لابن سعدان) " .. وقصدت ابن عباد [2] بأمل فسيح وصدر رحيب ، فقدم إلىّ رسائله فى ستين مجلَّدة على أن أنسَخها له ، فقلت نَسْخُ مثله يأتى على العمر والبصر، والوراقة كانت موجودة ببغداد (أى أتعجب لأنى تركتها ورائى فى بغداد وأجدها أمامى فى الرَّى) فأخذ فى نفسه علىَّ من ذلك ، وما فزت بطائل من جهته ، فقال (أى ابن سعدان) بلغنى ذلك . فقلت له : لو كان شيء يرتفع من السيّد بمدة قريبة (أى لو أعطانى شيئا ومنحنى مدَّةً قريبة) لكنتُ لا أتعطَّل وأتوفَّر عليه، ولو قرَّر معى أجر مثله لكنتُ أصبر عليه، فليس لمَن وقع فى شرّ الشباك وعين الهلاك إلاَّ الصبر .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ص ١٣ .

هذه الفقرة السابقة أوردها ياقوت نقلاً من المحاضرات لأبى حيان . « وقال أبو حيان فى كتاب أخلاق الوزيرين من تصنيفه : طلع ابن عباد [1] علىَّ يوما فى داره ، وأنا قاعد فى كسْر إيوان أكتب شيئا قد كان كادنى به (كلفّنى به) فلما أبصرته (نهضتُ) قائماً ، فصاح بحلق مشقوق : اقعد فالوراَّقون أخس أن يقوموا لنا ، فهممت بكلام . فقال لى الزعفرانى الشاعر . اسكت فالرجل رقيع ، فغلب علىّ الضحك ، واستحال الغيظ تعجبا من خفته وسخفه ، لأنه قد قال هذا وقد لوى شدقه ، وشنَّج أنفه وأمال عنقه ، واعترض فى انتصابه ، وانتصب فى اعتراضه ، وخرج من تفكك مجنون، وقد أفلت من دير جنون ، والوصف لا يأتى على كُنه هذه الحال ، لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ ، ولا يواتى عليها اللفظ ، فهذا كلُّه من شمائل الرؤساء ، وكلام الكبراء، وسيرة أهل العقل والرزانة ، لا والله وَتَرباً (خسرانا) من يقول غير هذا » .

وحدّث أبو حيان قال · قال الصاحب يوما . فَعْل وأفعال قليل ، وزعم النحويون أنه ما جاء إلاّ زنْد وأزناد ، وفرخ وأفراخ وفرد وأفراد ، فقلت له : أنا احفظ ثلاثين حرفا (لفظا) كلها فعل وأفعال . فقال . هات يا مدَّعّى ، فسردت الحروف ودللت على مواضعها فى الكتب ، ثم قلت ليس للنحوى أن يلزم مثل هذا الحكم إلاَّ بعد التبحُّر والسماع الواسع ، وليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة والقياس مطَّرداً ، وهذا كقولهم (فعيل) : على عشرة أوجه ، وقد وجدتُه أنا يزيد على أكثر من عشرين وجها ، وما انتهيت من التتبع إلى أقصاه ، فقال خروجك من دعواك فى (فعل) يدلُّنا على قيامك فى (فعيل) ولكن ألا تأذنْ لى فى اقتصاصك (أى فى الاقتصاص منك) ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجُرأتك فىّ مجلسنا وتبسطك فى حضرتنا فهذا كما ترى . (أى تجرأت فى مجلسنا وتبسطت فى حضرتنا بدون استئذان) .

قال أبو حيان : وأما حديثى معه يعنى ابن عباد[2] ، فإنِّى حين وصلت إليه قال لى أبو منْ ؟ قلت أبو حيان ، فقال : بلغنى أنّك تتأدَّبُ فقلت : تأدب أهل الزمان ، فقال : أبو حيان ينصرف أوْلا ينصرف ؟ قلت إنْ قبله مولانا لا ينصرف ، فلما سمع هذا تنمَّر وكأنه لم يعجبه ، وأقبل على واحد إلى جانبه وقال له بالفارسية : سفها على ما قيل لى، ثم قال : إلزم دارنا وانسخ هذا الكتاب . (قصد الصاحب بكلمة ينصرف فى الإعراب فأوَّلَها أبوحيان إلى ترك المكان والانصراف) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦ - ٢٨ .

(٢) المرجع السابق

ابن عبّاد يسأل أبا حيان عن أبى حيان :

" قال أبو حيان . وقال لى ابن عبّاد يوما :يا أبا حيان من كنّاك بأبى حيان ؟ قلت : أجلُّ الناس فى زمانه ، وأكرمهم فى وقته ، فال من هو ويلك ؟ قلت أنت ، قال ومتى كان ذلك ؟ قلت حين قلت يا أبا حيَّان من كنَّاك أبا حيان ، فأضرب عن هذا الحديث وأخذ فى غيره ، على كراهة ظهرت عليه .

قال : وقال لى يوما آخر – وهو قائم فى صحن داره والجماعة قيام ، فيهم الزعفرانى ، وكان شيخا كثير الفضل جيِّد الشِّعر مُمتع الحديث والتميمى المعروف بسَطْل ، وكان من مصر ، والأقطع وصالح الورَّاق وابن ثابت ، وغيرهم من الكتَّاب والندماء ، (قال) يا أبا حيان : هل تعرفُ فيمن تقدَّم مَنْ يكنَّى بهذ الكُنية قلتُ نعم ، من أقرَبِ ذلك أبو حيان الدَّارمىُّ (ثم استطرد للحديث عن سميِّه).

«حدثنا أبو بكر محمد بن محمد القاضى الدقَّاق قال حدثنا ابن الأنبارى قال حدثنا أبى حدثنا ابن ناصح قال : دخل أبو الهذيل العلاَّف على الواثق فقال له الواثق لمن تعرف هذا الشعر :

سَبَاكَ مِنْ هاشمٍ سليلُ	ليس إلى وصْلهِ سبيلُ
مَنْ يتعاط (١) الصِّفات فيه	فالقولُ فى وصفه فُضول
للحُسن فى وجهه هلالٌ	لأعينِ الخلْقِ لا يزولُ
وُطرَّةٍ لا يزال فيها	لنُور بدْرِ الدُّجى مَقيلُ
ما اختال فى صَحْن قصر أوسٍ	إلا ليُسجىَ له قتيلُ
فإنْ يقِفْ فالعيون نُصْبٌ	وإنْ تولَّى فهُنَّ حُولُ

فقال أبو الهذيل : يا أمير المؤمنين ، هذا الرجل من أهل البصرة يعرف بأبى حيان الدارمى ، وكان يقول بإمامة المفضول (كان يفتى بجواز إمامة المفضول) ..... فلما وفيْتُ الشعر ورويت الإسناد ، وريقى بليل (نَدِىّ) ولسانى طَلْق ووجهى متهلِّل وقد تكلفت هذا وأنا فى بقية من غرْب الشباب (حِدَّته) وبعض ريعانه وملأت الدار صياحا بالرواية والقافية ، فحين انتهيت انكَرْت طرفه (.أى ابن عباد) وعلمتُ سوءَ موقع ما رويتُ عنده قا ل : ومن تعرف أيضا (أى من يكنَّى أيَضا بأبى حيان ؟) قلت :

---

(١) يتعاط وصفه : يحاول وصفه .

ابن الجعابيّ الحافظ ، يكنى أبا حيان ، رجل صدق ، وهو يروى عن التابعين ، قال : ومن تعرف أيضا قلت روى الصُّولى فيما حدثنا عنه المرزبانى أنَّ معاوية لما احُتضر أنشد يزيد عند رأسه :

لو أن حـيًّـا نجـا لفـات أبو حـيّـان لا عـاجـزٌ ولا وَكِل
الحُـوَّلُ [1] الـقُـلَّـبُ الأريـبُ وهـلْ يدفـع صـرْف المنَّيـة الحـيل

(قال أبو حيان معلقا) وقال الصولى : وهذا (أى أبو حيان الوارد فى الشعر) كان من المعمَّرين المغفَّلين ، وانتهى الحديث من غير هشاشةٍ ولا هزَّة ولا أريحيَّة ، بل على اكفرار وجه ، ونبوٍّ طرْف ، وقلَّة تقبُّل ، وجرْت أشياء أخر كان عقباها أنى فارقتُ بابه سنة سبعين (وثلاثمائة) ، راجعا إلى دينة السلام (بغداد) بغير زاد ولا راحلة[2] ، ولم يُعْطنى فى مدَّة ثلاث سنين درهما واحدا ، ولا ما قيمته درهم واحد ، احملْ هذا على ما أردْتَ ، ولمَّا نال منِّى هذا الحرمان الذى قصدنى به وجعلنى من جميع غاشيته فرداً أخذْتُ أُملى فى ذلك صدق القول عنه ، وسوء الثناء عليه ، والبادى أظلم وللأمور أسباب ، وللأسباب أسرار ، والغيب لا يُطَّلَع عليه ، ولا قارع لبابه .

وقفة لابد منها :

قبل أن نستطرد فى سرد بعض مثالب ابن عبَّاد التى ذكرها أبو حيان – لنا وقفة مع أبى حيان نفسه ، ذلك أنَّ القارئ قد أدرك بفطنته أن هذا الرجل قد فاته ما كان يلحظه على غيره ، فهو – كما علمنا – استطاع أن يغوص فى أعماق النفس الإنسانية، وتأتَّى له أن يحلِّل أمراض النفوس تحليلا جعله رائداً للطب النفسىِّ ولكنَّ العجب العجاب أن يقع هو فريسة المرض الذى وصفه وشخَّصه . فقد علمنا من خلال أسئلته التى وجهها لاستاذه مسكويه أنه قد أدرك ما يعنيه سؤاله . اقتران العُجْب بالعالم سؤاله الذى يتعلق بمحاربة الناجح فى حياته بدافع الحسد وغيرها من الأسئلة التى تستوضح أدواء النفس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تبين لنا من المواقف التى حدثت له مع ابن عباد أنه كان بعيدا كل البُعد عن آداب مخاطبة الامراء والوزراء ، لا سيما أن ذلك العصر لا يُعرف فيه إلاَّ وزير واحد للدولة وقد اجتمعت فى يديه كلُّ أمور الدولة : الحربية والسياسية والاقتصادية والثقافية . فهل يليق بأبى حيان بعد هذا

(١) الحول دو القوة والقدرة على التعرف والاريب البصير بالأمور .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢

إفحام الصاحب بن عباد فى معرض الحديث عن القضية النحوية فعل وأفعال ، إذا ذكر ابن عباد أنها نادرة فى اللغة العربية كما قال النحويون فينبرى له أبو حيان بالمعارضة والتدليل على أنَّه أعلم منه ومن النحويين ، وكذلك ردُّه عليه الذى يتسم باسماجة . حينما سأله يا أبا حيان من كنَّاك بأبى حيان ؟ فلم يردّ عليه ردًا مقنعا ولمّا آعاد سؤاله عليه : أنت ، فقال ومتى كان ذلك ؟ قال : حين قُلت يا أبا حيَّان من كنَّاك بأبى حيَّان . فهل هذا أدب الحديث مع وزير الدولة وكاتبها والمؤتمن عليها ، بل إنَّه تجاوز حدَّه فى أول لقاء معه حينما سأله بقوله · أبو من ؟ فقال أبو حيان ، فأراد أن يعلم مدى علمه بالنحو قائلا ينصرف أولا ينصرف ؟ فردَّ عليه بالتورية للتدليل على أنه أعلم من السائل ، إذ قال إنْ قبلَه مولانا لا ينصرف . فهو لا يقصد بردِّه هذا عم صرف الاسم وإنَّما قصد عدم انصراف صاحب الاسم من دار الوزير .

مما سبق نستخلص أن النباهة المفرطة قد تكون وبالا على صاحبها إذا آسئ فعلها فهل كنا نتوقع من الصاحب بن عباد أن يُثنى على أبى حيان الذى أحرجه وأظهر للناس أنه أعلم منه ، أو يمتدحُ ذكاءه وهو يتهرب من الرد الصريح عليه ، فى خُروجه من الردِّ (المباشر) إلى ردِّ (غير مباشر) . أو كان ينتظر منه الإعجاب والإطراء وهو يسرد على الملأ ما استوعبته ذاكرته فى مباهاة وهو يملأ الدار صياحا بالرواية والقافية.

مواقف أخرى مع ابن عباد

" قال أبو حيان ، قال لى الصاحب يوما ، وهو يحدِّث [1] عن رجل أعطاه شيئا فتلكأ فى قبوله " (وهو يقول) ولابدَّ من شيء يعين على الدَّهر ، ثم قال : سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم ذلك ، فقلت ، أنا احفظ ذاك . فنظر بغضب فقال : ما هو ؟ قلتُ : نسيتُ ، فقال . ما أسرع ذكرِك من نسيانك . قلت ذكرته والحال سليمة ، فلما استحالتْ عن السلامة نسيت ، قال . وما حيلولتها ؟ قلتُ : نظرَ الصاحب بغضب فوجب فىَّ حُسن الأدب ، ألا يقال ما يثير الغضب ؟ قال : ومن تكون حتى نغضب عليه دع هذا وهات .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

قلت قول الشاعر

ألام على أخـذ القليل وإنّما أصادفُ أقواماً أقلَّ من الذَّرّ
فإنْ أنا لمْ آخذْ قليلاً حُرِمْتُه ولابُد منْ شيءٍ يُعينُ على الدَّهر

فسكت

" وحكى أبو حيّان قال : حضرت مائدة الصاحب بن عبّاد [1] ، فَقُدِّمت مضيرة (مرقة تطبخ باللبن الحليب) فأمعنت فيها ، فقال لى . يا أبا حيّان . إنّها تضرُّ بالمشايخ فقلتُ : إنْ رأى الصاحب أن يدَع التطبُّبَ على طعامه فَعل فكأنِّى ألقمتُه حجراً وخجل واستحيا ولم ينطِق إلى أن فرغنا .

" .... قال وكان ابن عباد شديد الحسد[2] لمن أحسن القول وأجاد اللفظ ، وكان الصواب غالبا عليه وله رفق فى سرد حديثه ونيقة (توضيح) فى رواية ، وله شمائل مخلوطة بالدعانة بين الاشارة والعبارة ، وهذا شيء عام فى البغداديين وكالخاص فى غيرهم " .

وحكى ابن عباد حكايات وأسندها إلى من أخبره بها . [3]

ثم قال . فما ذنبى – أكرمك الله – إذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر ، فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان ، على أنى قد سترت شيئا كثيرا من مخازيه إمَّا هرباً من الإطالة ، أو صيانة للقلم من رسم الفواحش وبث الفضائح ، وذِكْر ما يسمح مسموعه ، ويكره التحدث به . هذا سوى ما فاتنى من حديثه ، فإنى قد فارقته سنة سبعين (وثلاثمائة) .

وقال مبررا قدحه لابن عباد " ما ذنبى ان ما ذكرت ما جرَّعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحمّلنى عليه من الإخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة ، والوعد المتصل، والظنِّ الحسن ، حتى كأنِّى خُصِصْتُ بخساسته وحدِى ، أو وجب أن أعامل به دون غيرى .

(١) المرجع السابق ص ٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٣ .

خاتمة كتاب مثالب الوزيرين

لعلنا نكون أدنى إلى الصواب إذا استنبطنا من هذاالكتاب[1] أنّه لم يكن كله هجو كما يُفهم من اسمه ، ففيه هجاء وفيه وصف لأحوال الوزيرين وأخلاقهما ، وكفايتهما ، مع التحامل عليهما ، والجنوح إلى الغضّ من شأنهما وخاصة مع ابن عبّاد فها هو ذا يُثنى على عباد والد الصاحب والعميد والد أبى الفضل بن العميد قال :

" كان عباد يلقب بالأمين ، وكان ديّنا خيّراً ، مقدّماً فى صناعة الكتابة ، وكتب الأمين لركن الدولة ، كما كتب العميد لصاحب خراسان ، والأمين كان ينصر مذهب الأشنانى تديُّنا وطلبا للزلفى عند ربه ، والعميد كان يعمل لعاجلته .

وإن قلت كان العميد معلِّماً بقرية من قرى طالقان الديلم قيل : وكان والد العميد نخّالا فى سوق الحنطة بقُم " .

وقال عندما قارب الفراغ من كتابه هذا " ولولا أن هذين الرجلين – اعنى ابن عباد وابن العميد – كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا والقبيح يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحّد .

ولكن النقص ممّن يدّعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة (داهية) والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة (شدة وبلوى) والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت – مع هذا كله - أن تجد لهما ثالثا فى جميع من كتب للجبل والديلم ، إلى وقتك هذا المؤرِّخ فى الكتاب لم تجد "

وختم أبو حيان فى كتابه فى أخلاق الوزيرين بعد أن اعتذر عن فعله ، ثم قال .

وانى لأحسد الذى يقول :

أعُـدُّ خمسين حولاً ما علىَّ يدٌ[2]	لأجنبىٍّ ولا فضْلٌ لذى رَحِمَ
الحمدُ لله شكراً قد قنعْتُ فلا	أشكو لئيماً ولا أطرِى أخا كَرَمِ

لأنِّى كنت أتمنى أن أكونه ، ولكن العجز غالب لأنه جنورٌ فى الطينة ، ولقد أحسن الآخر حين قال :

---

(١) د. أحمد محمد الحوفى – أبوحيان التوحيدى جـ/٢ ص ٧٦ .

(٢) ياقوت / معجم الأدباء جـ/١٥ ص ٤٨ .

ضيِّق العُذرَ فى الضراعة إنَّا   لو قنِعْنا بقَسْمِنا لكفانا
ما لنا نعبُد العِباد إذا كا   نَ إلى اللّه فَقْرنا وغنانا

وأدعو ها هنا بما دعا به بعض النساك ، اللهم صُنْ وجُهنا باليسار ، ولا تبذُلها بالإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شر خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى وذم مَنْ منع ، وأنت من دونهم ولىُّ الإعطاء ، وبيدك خزائن الأرض والسماء . يا ذا الجلال والاكرام .



•خصائص أبى حيان الفكرية والفنية وموازنته بكتاب عصره :

لقد وصلت الثقافة العربية فى القرن الرابع حداً عظيم الشأو ، إذ تمثلت فيها ثقافات الأمم المتحضِّرة التى انطوت تحت لواء الإسلام ، والتى تُرجمت آثار كتَّابها ونُقلت فنونها إلى الحضارة العربية ، فقد صُهرت هذه الثقافات ببوتقة الثقافة العربية ، فأصبحت خصائص هذه الثقافة تدلُّ على القرن الرابع الهجرى الذى يُعرف بربيع الثقافة العربية .

والكُتَّاب فى ذلك العصر نجدهم على ثلاثة ألوان ·

١- كُتَّاب جُلُّ موضوعاتهم رسائل ديوانية وإخوانية ومقامات وعهود ، وطريقتهم تعتمد على إيثار اللفظ والصناعة ، ومنهم ابن العميد وبديع الزمان والخوارزمى وابن عباد، وهم أشهر كُتَّاب ذلك العصر .

٢- وكُتَّاب يجولون فى موضوعات ثقافية عديدة ، يحتفلون فيها بالمعنى أكثر من اعتنائهم باللفظ ، وجلُّهم تأثَّر بأساليب المناطقة وتحاليل الفلاسفة وهؤلاء كاد الأسلوب العلمى يطغى علي كتاباتهم الأدبية . ومن هؤلاء أبو على مسكويه وأبو الوفاء المهندس وعلى بن عيسى الرمَّانى .

٣- وكُتَّاب جمعوا بين محاسن اللونين السابقين فهم قد اعتنوا بالمعنى واللفظ معا ، وجمعوا بين الصناعة اللفظية والتحليل المنطقى ، ومن هؤلاء أبو سعيد السيرافى وأبو سليمان المنطقى وأبو حيَّان التوحيدى وهذه السمة بارزة فى كتابات التوحيدى إذ يقول :

فإن الكلام صلف تيَّا لا يستجيب لكل إنسان ، ولا يصحب كل لسان ، وخطره كثير[1] ومتعاطيه مغرور وله أرنٌ (نشاط) كأرن المهر وإباء كإباء الحرون ، وزهو كزهو الملك ، وخفق كخفق البرق ، وهو يتسَّهل مرة ، ويتعسَّر مرارا ، ويذل طورا ويعز أطوارا، ومادته من العقل · والعقل) سريع الحُؤول (التحول) خفى الخداع ، وطريقه على الوهم ، والوهم شديد السيلان ومجراه على اللسان ، واللسان كثير الطغيان ، وهو مركَّب من اللفظ اللغوى والصوغ الطباعى ، والتأليف الصناعى ، والاستعمال الاصطلاحى ، ومستملا من الحجا ، ودَرْيَه (دَرَيانه وعلمه) بالتمييز ، ونسجه بالرقة والحجا فى غاية النشاط ، وبهذا البون يقع التباين ويتسع التأويل ويجول الذهن وتتمطى الدعوى ، ويفزع إلى البرهان .



(١) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان جـ/١ ص ٩ .

غلبة أصحاب الصناعة اللفظية والأساليب الزخرفية فى القرن الرابع :

لا يُذكر القرن الرابع الهجرى إلاَّ ويُذكر معه ما وصل إليه الكُتَّاب من التفنُّن فى الكتابة النثرية وحشدها بألوان البديع ، حتى قيل إنَّهم أوَّل من ابتكر طريقة الشعر المنثور (إن صحَّ) ، والذين أثَّروا على هذا النفر من الكُتَّاب هم أدباء العراق والشام ومصر وأثروا بوجه خاص على شعراء الجبل والديلم يقول الثعالبى : " والسبب فى تبريز القوم قديما[1] وحديثا على من سواهم فى الشعر . قربهم من خطط (سنن) العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وسلامة ألسنتهم من الفسادالعارض لألسنة أهل العراق، المجاور للفرس والنبط ولداخلتهم إياهم ، ولما جمع شعراء العصر بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ..... انبعثت قرائحهم فى الإجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام وأبدعوا ما شاءوا . وأخبرنى جماعة من أصحاب الصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد أنه كان يعجب بطريقتهم المُثلى التى هى طريقة البحترى فى الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة " .

فكتاب الرسائل الديوانية والإخوانيات والمقامات هم الذين عنوا بالأناقة اللفظية أيَّما اعتناء وحشدوا كتاباهم بالأشعار التى عزاها صاحب يتيمة الدهر إلى مدرسة البحترى التى تمتاز بالجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة والتى جمعت بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة " فأصبح هؤلاء الكتاب بفضل تمكنهم من هذا اللون من الكتابة من الوزراء والحكام وذوى الجاه ، ولأنَّ مقاليد الحكم بأيدى الأعاجم ، وهم يجنحون إلى الزخرف والصناعة[2] ، ولأن العربية الأصيلة كان ظلها يتقلص فى الأدب والتعبير كما تقلص سلطانها فى الملك والحكم والسياسة فنهضت اللغة بفضلهم فى هذا القرن كما ساهم مفكرو ذوى الثقافات الأجنبية فى إحداث موازنة بين الثقافة الأصلية والحكمة المترجمة. ولم يكن للعرب أو المسلمين ميل لترجمة الآداب اليونانية التى تحمل أساطير عن آلهتهم ومعتقداتهم والإسلام فى غناء عن هذا بل إنَّه الدين الذى اصطفاه الله ليظهره على الدين كله ، ولم يحفل بهذه الترجمات إلا القلة من المولَّدين .

أبو حيَّان التوحيدى فى ميزان النقد :

إنَّ أبا حيان التوحيدى قد خرج على الموضوعات الغالبة فى عصره – على رغم ما تسنَّمه كُتَّاب ذلك اللون من مراتب عالية – فلم يحفل بالكتابات الديوانية والمقامات

(١) الثعالبى يتيمة الدهر ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) د أحمد محمد الحوفى / أبو حيان التوحيدى جـ/٢ ص ١٠٥ .

وكتابة العهود مع أنّه يحسن إجادتها لو أراد ، وخرج أيضا على الأسلوب الشائع فى القرن الرابع أسلوب الاحتفال باللفظ والصناعة أكثر من الفكرة .

وهذا النحو الذي نهاه قد حدا بكثير من النُّقاد والدراسين أن يصفوه بأنه نسيج وحده فهذا المستشرق آدم متز يصفه فى كتابه الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجري كما نقل ذلك عنه الدكتور الحوفى قال : «إن رسائل القرن الرابع الهجرى هى أجمل آية للفن الإسلامي [1] ، ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون ، وهى اللغة ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التى صنعتها أيدى الفنانين فى ذلك العهد من الزجاج والمعادن ، لاستطعنا أن نرى فى هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق ، وامتلاكهم لناحية البيان فى أصعب صُوره وتلاعبهم بذلك تلاعبا ..

إلى أن يقول : « هذه الطريقة بما فيها من زخاف كثيرة ، جعلت اللغة سلسة القياد، قويّة التعبير ، وزادتها تلطيفا ، رغم الاختصار ، وهى الطريقة التى لجأ إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما فى نفوسهم ، راعين فى ذلك ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية في التعبير ، وقد بلغ أبو حيان التوحيدى المتوفى عام ٤٠٠ هـ مرتبة الاستاذ لهذه الطريقة» .

«وأول ملاحظة أنه كان عالما بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادراً عليه ، غير أننا نكاد لا نلاحظ فى أسلوبه ذلك التكلف الذى نجده عند غيره من الأدباء ، ولم يكتب فى النثر العربى بعد أبى حيان ما هو أسهل وأقوى وأشد تعبيرا عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان . ولكن الجمهور يميل إلى طريقة الآخرين فى البديع ، ولقد كان أبو حيان فنانا غريبا بين أهل عصره ، وكان يعانى وحشة من يرتفع على أهل زمانه ويتقدّم عليهم » .

فأبو حيان التوحيدى – كما أسلفنا القول – واحد من عُمد الثقافة العربية فى ذلك العصر الثقافى الزاهر ، حتى ليعتبره بعض المؤرخين الناطق بلسان الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجري ، وقد قال فيه ياقوت « وهو فى ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له[2] ذكاء وفطنه وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان فى ذلك محدودا محارفا (محروما) يتشكى صرف زمانه ويبكى فى تصانيفه على حرمانه » .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦

(٢) ياقوت – معجم الأدباء جـ/١٥ ص ٥

سمات كتابات التوحيدى :

* من أهم السمات التى تمتاز بها كتاباته معانقة الفكرة والأسلوب[1] ، فهو لا يعتمد على جرس الكلمة ووقع الجملة فحسب بل لابد أن يكون قلبه متيقظا وعاطفته جياشة " فهو كاتب فكرة حيث يعبر عن فكرة ، وكاتب عاطف حين يصور عاطفة وخير ما يمثل مذهبه قوله : «إن البليغ ينبغى به أن يبرأ من التكلف ويتباعد عنه لأنه مفضحة، وصاحبه مذموم ، ومن استشار الرأى الصحيح علم أنه إلى سلامة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ ، وأنه متى فاته اللفظ الحُر لم يظفر بالمعنى الحر» .

ونريد أن نستدرك ما قلناه آنفا إنه تأثر فى بعض كتاباته بمدرسة ابن العميد ، ونحن فى هذاالاستدراك لا ننفى ما قلناه ، وإنما نؤكده ، ولكنه لا ينحو هذا المنحى إلا إذا أراد الصناعة وفق ما يقتضيه المقام فلنقرأ له هذه الفقرة وهو يصف ابن عباد متحاملا عليه " تراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويبتسم [2] ويطير فرحا وينقسم ، ويقول : ثمرة السبق لهم وقصرنا أن نلحقهم أو نقفو أثرهم ، أو نشق غبارهم ، أو نرد غمارهم ، وهوافى كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويلوى شدقه ويبتلع ريقه ، ويردُّ كالآخذ ، ويأخذ كالممتنع ، ويغضب فى غرض الرضا ، ويرضى فى لبوس الغضب، ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل ويتمايل ، ويحاكى المومسات ، ويخرج فى أصحاب السماجات " .

* والسمة الثانية لكتاباته أنه قد سجَّل ثقافة القرن الرابع[3] ، كما سجل الجاحظ ثقافة القرن الثانى ، ويزيد التوحيدى عن سلفه أنه سجل أيضا ثقافة القرن الثانى والثالث ، وإن كانت الثقافة العربية فى القرنين السابقين له كانت ثقافة عربية أصيلة إلاَّ أن امتزاج الثقافات الأخرى بها (فى القرن الرابع) جعله يتحمَّل عبئاً أكبر فى تسجيل هذه الثقافة المطَّعمة بالثقافات الأخرى ، وقد امتاز بكثرة ما روى عن السابقين والمعاصرين ، نقلا عن كتبهم وما استوعبه من مناظراتهم ، وسجَّل ما كان يسمعه فى مجالس العلماء والأدباء من محاورة ومجادلة ومناظرة ، وقد سبق ان استشهدنا له بمحاورتين سجَّلهما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، الأولى موضوعها · مناظرة بين النحو العربى والمنطق اليونانى والثانية محاورة بين أبى سليمان المنطقى وإخوان الصفا وتوضيحه حد الفلسفة فى مناقشة الأمور الدينية .

---

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى / أبو حيان التوحيدى ، جـ/٢ ص ١٠٧

(٢) الامتاع والمؤانسة - لأبى حيان التوحيدى جـ/١ ص ٥٩

(٣) د. أحمد محمد الحوفى / أبو حيان التوحيدى جـ/٢ ص ١٠٨ .

* لقد تفرد أبو حيان في كتاباته واصفًا أدباء وفلاسفة عصره وصفًا دقيقًا ومستوعبًا[1] ، مثل وصفه لأبى سعيد السيرافى ، وعلىّ بن عيسى الرُّمَّانى ، والصاحب بن عباد ، وأبى اسحاق الصابى ، وأبى على مسكويه ، وأبى سليمان المنطقى فلنقرأ له هذه الفقرة فى وصف مسكويه :

« وأمَّا مسكويه فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف[2] ، رقيق الحواشى ، سهل المأخذ ، قليل السكب ، بطئ السبك ، مشهور المعانى ، كثير التوانى شديد التوقِّى ضعيف الترقِّى ، يرد أكثر ممّا يصدُر ، ويتطاول جهده ثم يقصر ، ويطير بعيدا ويقع قريبا ، ويسقِى من قبل أن يغرس ، ويمنح من قبل أن يميه (أى يغرف قبل أن يتأكد من وجود الماء) وله بعد ذلك مأخذ كشدْوٍ (أخذ طرف) من الفلسفة وتأتٍّ (تلطف) فى الخدمة... » .

ويقول عن أبى سليمان المنطقى :

« أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقُّهم نظرًا وأقعرهم غرَضًا [3]، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر وأوقفهم على الغرر ، مع تقطُّع فى العبارة ، ولكنةٍ ناشئة عن العُجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبُخل بما عنده من هذا الكنز » .

ويعتبر أبو حيان التوحيدى موسوعة جامعة أو دائرة معارف (متحرِّكة) [4] قد حفلت بألوان شتى من العلم والمعرفة والدليل على ذلك مؤلفاته التى جمعت بين كثير من العلوم والأفكار والفلسفية والتصوف والاهتمام بعلم النفس وعلم الحيوان وعلم النبات .

* من السمات الفريدة لكتاباته [5] أنه يحسن نقل الكلام المروى عن غيره بألفاظه وأسلوبه ، حتى ولو سمعه مشافهة ، فإذا قارنت الكلام الذى رواه عن غيره وكلامه هو فستجد بونا شاسعا فى الأسلوبين ، ورواياته كثيرة ومتعددة فى العلم والفلسفة والأدب، وكذلك يرويها فى خطبة أو رسالة أو حوار أو مناظرة فهو فى كل ذلك يجيد النقل والرواية .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى جـ/١ ص ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٤) د. أحمد محمد الحوفى – أبو حيان التوحيدى جـ/٢ ص ١٠٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١١١ .

* من سمات كتاباته أنه لا يمارى ولا يدارى[1] فى وصف الأشخاص ، وهذا من أهم الأسباب التى أوغرت الصدور عليه ، ولقد اتخذ من أسلوبه النثرى المسجوع المصنوع سلاحا لمحاربة أعدائه كالفقرة التى استشهدنا بها آنفا فى وصف ابن عباد ، وفى ذات ليلة سأله ابن سعدان عن الفلاسفة ثم عن الشعراء ثم عن العلماء ، وقد كشف الغطاء عن كل واحد من هذه الفئات الثلاث بلا تحرز ولا اعتذار ، فها هو ذا يصف أحد العلماء وهو أبو القاسم الداركى [2] . فقد وصفه وصفا يُودى بصاحبه إلى الحضيض ، ولا تقوم له بعد ذلك قائمة قال « وأما الداركى فقد اتخذ الشهادة مكسبه ، وهو يأكل الدنيا بالدين ويغلب عليه اللواط ولا يرجع إلى ثقة وأمانة ، وقد تهتك بنيسابور قديما ، وببغداد حديثا ، ولقد ندَّ بجُعْل غلام (هرب بمرتب غلام) وهو اليوم قاضى الرَّى ، وابن عباد يكَنفه ويقرِّبه ليكون داعية له ونائبا عنه ، **وليس له أصل** ، وهو من سواد همذان ، **وأبوه كان فلاحاً** ، ولقد رأيته إلاَّ أنه يأتى لابن عباد فى سمته ، ولزوم ناموسه، حتى خفَّ عليه ، وهو اليوم قارون ، وقد علت مرتبته فى الكلام حتى لا مزيد عليها ، إلاَّ أنه نَغِل (فاسد) الباطن خبيث الخبأ ، قليل اليقين ... » .

هنا يمكننا القول أن البراعة فى الكتابة سلاح ذو حدين ، فها هو ذا أبو حيان قد استخدم براعته فى استعمال الكلمات ، وحسِّه اللغوى الدقيق فى موضع غير ملائم وهو التحقير من شأن هذا العالم ، حتى ولو كان كذلك فما كان ينبغى التشهير به أمام وزير شهير قد احتشد فى مجلسه علماء أجلاء وفلاسفة كبار وأدباء مرموقون (مجلس ابن سعدان) .

* كان أبو حيان على دراية دقيقة بفن الكتابة ومتطلباته فها هو ذا يصف لنا الكلام الرقيق . « إن الكلام صلف تيَّاه [3] ، ولا يستجيب لكل انسان ، ولا يصحب كل لسان ، وخطره كثير ومتعاطيه مغرور ، وله أرَنٌ (نشاط) كأرن المهر ، وإباء كإباء الحَرون ، وزهو كزهو الملك ، وخفق كخفق البرق ، وهو يتسهل مرة ويتعسر مرارا ويذل طورا ويعز أطوارا » . وقد يسر عليه هذه البراعة علمه باللغة وحفظه لمفرداتها ، وبصره بمعانيها ، وذوقه المرهف فى معرفة مدلولاتها ومناسباتها .

(١) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٢) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى جـ/١ ص ١٤١ . أبو القاسم الدَّاركى (نسبته إلى دارك قرية بأصبهان) أحد فقهاء الشافعية ، وهو بغدادى ، أقام بنيسابور مدة ، وانتهى التدريس إليه ببغداد وأخذ عنه عامة شيوخها ، مات سنة ٣٧٥.

(٣) المرجع السابق ص ٩ جـ/١) .

* ويغلب عليه إيثار الإطناب والتفريع [1] فى الوصف كقوله فى التمهيد لمدح أبى الفتح بن العميد حينما قدم عليه طالبا رفده « أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمَّن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع وخير النفع ما تعلَّق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن الشكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق : لما رأيت شبابى هرم بالفقر ، وفقرى غنياً بالقناعة وقناعتى عجْزًا عن أهل التحصيل : عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكانى فيه ، وموضعى منه ... "

* من سمات كتاباته أيضا أنه يكثر من الفصل[2] بين أجزاء الجملة الواحدة بجمل معترضة للدعاء ولغير الدعاء ، وبعض هذه الجمل الاعتراضية قصير وبعضها طويل كمثل قوله " فقال – أدام الله دولته وبسط لديه نعمته – قدَّم هذاالفن على غيره "

وكقوله :

« قلتَ لى – أدام الله تعالى توفيقك فى كل قول وفعل ، وفى كلِّ رأى ونظر – إنك تعلم يا أبا حيان » . وقوله « إنك انكفأت من الرَّى إلي بغداد .. بعد فوات مأمولك من ذى الكفايتين نضر الله وجهه – عابساً على ابن عباد ، مغيظاً منه » .

* ومن سمات كتاباته أنه برع فى إيجاد[3] الوقع الموسيقى للجمل بتقسيمها إلى فقرات قصار ، متناسبة الطول يكثر فيها الازدواج ليكون أثرها على السمع وفى النفس أشبه بالشعر " كقوله على لسان أبى الوفاء المهندس .

« وبعد ، فما أطيل ، ولعل لهب الموجدة يزداد[4] ، ولسان الغيظ يغلو ، وطباع الإنسان تحتد ، والندم على ما أسلفتُ من الجميل يتضاعف ، ولست أنت أولَ مَنْ بُرَّ فعَقَّ ، ولا أنا أول من جُفى فنقَّ ، وهذا فراق بينى وبينك » .

* كثيرا ما كان يستشهد أبو حيان فى كتاباته بإيراد [5] الشعر والحكم والأمثال كما كان له ميل إلى استعمال التضاد ليزيد الفكرةَ قوة ووضوحا لا تلاعبا باللفظ ، ومن هذا يقول:

---

(١) ياقوت – معجم الأدباء ص ٣٦ حـ١٥

(٢) د أحمد محمد الحوفى أبو حيان التوحيدى جـ/٢ ص ١١٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٧ .

(٤) الامتاع والمؤانسة لابى حيان التوحيدى حـ/١ ص ٢٦١ .

(٥) د. أحمد محمد الحوفى / أبو حيان التوحيدى جـ/٢ ص ١٢١ .

لما رأيت شبابى هرما بالفقر ، وفقرى غنيا بالقناعة وقناعتى عجزا عن أهل التحصيل : عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكانى فيه وموضعى منه ... "[1]

موازنة بينه وبين كتاب عصره :

لقد كان القرن الرابع قرن ازدهار الثقافة العربية ، حيث انصهرت فيها ثقافات أمم شتى ، والثقافة العربية قوامها اللغة . ومن شأن اللغة العربية أنها تجبُّ كل ألفاظ الحضارة وتعرِّبها لذا كان ذلك القرن يتسم بثقافة عربية مشربة بثقافات جديدة ، وفى إطار هذه الثقافة الجديدة ظهرت أكثر من فئة من الكُتَّاب - كما سبق القول - وتعددت معالجاتهم للموضوعات التالية ، التى سنذكرها باقتضاب ونذكر معالجة أبى حيان لها ، بالنظر لغيره من الكتَّاب .

* **تطويع الكتابة النثرية للتعبير عن المعانى العاطفية** [2] التى كانت مجالا للشعر وحده.

فقد سار أبو حيان فى كتاباته كما سار غيره فى ذات الطريق : طريق السجع والازدواج وحسن التقسيم والخيال والمحسِّنات ، أى أنه لم يتحرَّر تحرراً مطلقا من سمات كتَّاب ذلك العصر .

* **ظهور الشعوبية فى الأدب العربى**[3] : ظهر بعض الشعراء والكتاب الذين يعتزون بأصلهم غير العربى ، وهو ما يطلق عليه نزعة الشعوبية ، ومن هؤلاء الشاعر مهيار الديلمى الذى يقول :

أعـجـبَتْ بِى بين نادى قـومـهـا ... أمُّ سـعـدٍ فـمـضت تسـألُ بى
سـرَّهـا مـا علمَتْ من خُلُقِى ... فـأرادَتْ عِلْمَـهـا مـا حـسـبِى
لا تخـالـى نسـبـاً يخـفـضنى ... أنـا مـن يُرضـيـك عند النسبِ
فـأبـى كِـسـرى عـلا إيوانُه ... أيـن فـى النـاس أبٌ مـثـل أبـى
قـد جـمـعـت المجـد من أطرافـه ... سُـؤددُ الفـرس ودين العـربِ

ووكذلك فعل الجيهانى فى تفضيل العنصر الفارسى على العنصر العربى ، فتصدَّى له أبو حيان التوحيدى فكبح جماحه ، مستشهدا بما قاله المفكرون الكبار فى هذه القضية .

---

(١) ياقوت - معجم الأدباء جـ/١٥ ص ٤٣ .

(٢) د. أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى جـ/١ ص ١٣٣ .

(٣) كما يتضح من المثال فإن نزعة الشعوبية كانت نزعة سياسية بحتة مع تمسكها بالإسلام ومقوماته .

*** الاكثار من الازدواج والسجع وحسن التقسيم[1] :**

لم يختلف أبو حيان عن غيره من الكتّاب فى هذا المضمار ولكنه لم يستعمله إلا طبقا لما يقتضيه المقام .

*** استعمال الجمل الاعتراضية للدعاء [2]:**

كذلك لم يخالف أبو حيان كتاب عصره فى هذا المضمار، كما سبق لنا التنويه بذلك.

*** الاحاطة بثقافة العصر واستيعاب ثقافات العصور السابقة[3] :**

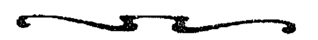
وهذه سمة تفرد بها أبو حيان التوحيدى ، فعرفه النقاد بها ، وأصبح هو مسجل هذا القرن ، وناقل ثقافته إلى جميع العصور التالية .

*** الميل إلى الدُّعابة والفكاهة عند من نسميهم بظرفاء العصر [4] :**

لم يكن أبو حيان النوحيدى من هذه الفئة لأن فقره المدقع ومعاناته المحضة ، مكابدته المؤلمة ، جعلته يميل إلى أدب التشفىِّ من ذوى الجاه والثراء .

*** طائفة الكتاب الموضوعيين الذين غلّبوا الفكرة على الصنعة اللغوية [5]:**

وهؤلاء لم يتكلفوا السجع ولا الازدواج ، ولم يهتموا بالمحسِّنات البديعية ، وإنما كانت كتاباتهم فى تحرر وترسُّل مثل · المرزبانى وأبى الفرج الأصفهانى ، وابن مسكويه ، وأحمد بن يوسف ، **وأبو حيان التوحيدى من هذا القبيل فى أكثر كتاباته .**



(١) المرجع السابق ص ١٢٣ .
(٢) ذات المرجع وذات الصفحة ،
(١) المرجع السابق ص ١٢٤ .
(٤) ذات المرجع وذات الصفحة
(٥) المرجع السابق ص ١٢٥ .

مُلحة المُلَح (أو مُلحة الكِتَاب) (من الإمتاع والمؤانسة)[٦]

تعـوَّد ابن سـعـدان أن يطلب من أبى حـيَّان مـوافـاته بملحـة الوداع فى آخـر كل مسامرة من ليالى " الإمتاع والمؤانسة " ويطيب لنا أن نطلب منه ملحة المُلح ونحن على وشك الانتهـاء من هذاالكتاب ، واعتقد أنَّه سيتحف قراءه بما حفلت به الليلة الثالثة والعشرون من أحاديث نبوية شريفة ، وهذه تعدُّ بحق إحدى حسنات أبى حيان التوحيدى على الأدب والأدباء ولا يقولنَّ قائل : وماذا فعل أبو حيان غير أنْ روى هذه الأحاديث ؟ فالرُّد عليه : أن اختار أبى حيان لهذه الأحاديث فى موضوعات شتى دليل على سلامة ذوقه، وقديما قيل · أن اختيار المرء جزء من عقله ، قال أبو حيان وكان الوزير رسَم (أمر) بكتابة لُمعٍ من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فأُفردَتْ فى هذه الورقات وهى :

* قال صلى الله عليه وسلم « أشدُّ الأعمال ثلاثة . إنصاف الناس من نفسك ، ومواساة الأخ مِّن مالك ، وشكر الله تعالى على كل حالٍ .

* « وقال الواقدى لما غالظ خالد بن الوليد عبد الرحمن بن عوف .. قال النبى صلى الله عليه وسلم ياخالد ذَروا لى أصحابى ، لوكان لك أحد ذهباً ، تنفقه قراريط فى سبيل الله لم تدركْ غدْوةً أو روحة من عبد الرحمن .

* « وقال عليه السلام « إنَّ أحدكم إذا قام إلى الصلاة تَبَشْبَشَ الله إليه (رضى عنه وأكرمه) وإن أخَّرها أعرض عنه

* « وقال عليه السلام «إنَّما فَدَكَ (بلدة بخيبر) طُعمةٌ أطعمنيها الله في حياتى ثم هى بين المسلمين ».

* وقال عليه السلام « المقَوم قد يأتم ولا يغرم ».

* وقال عليه السلام فى دعائه . اللهُّم اجمع على الهُدى أمرَنا ، وأخرجنامن الظلمات إلى النور ، واصرف عنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، اللهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذريَّاتِنا ومعايشنا ، اللَّهم اجعلنا شاكرين لنعمتك ، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

* « وقيل له صلى الله عليه وسلم إن فلاناً استشهد[٢] ، فقال : كلا إنَّ الشَّمْلَة التى ´خذها من الغنائم يوم حنين اشتعلت عليه ناراً »

تاع والمؤاسة من ص ٩٢ - ١٠١ جـ/٢ .

، السابق .

* وقال صلى الله عليه وسلم . من اطلع من صِبْرِ (بضم الصاد وكسرها . ناحية) باب فُفقئت عينه فهى هدَر (أى لاقصاص لها) .

* وقال صلى الله عليه وسلم لرجل يذبح شاه · أرهف شفرتك ، فإذا فَريْتَ فأرِحْ ذبيحتك ودعها تخبُّ وتشخبُ فإن ذلك أمرَى للدم واحلَى للحم .

* وقال عليه السلام العنىُّ الحفُّى التقىُّ

* وقال : التاجر الصدوق إن مات فى سفره كان شهيداً ، أو فى حضَره كان صديِّقا .

* وقال صلى الله عليه وسلم . ظهْرُ المؤمن مشجَبُه ، وبطنه خزائنه ، ورِجْله مطيَّته وذخيرته ربُّه .

* وقال صلى الله عليه وسلم ما نقَص مالٌ من صدقة فتصدَّقوا ، ولا عفا رجل عن مظلمة إلاَّ زاده الله عزَّ وجل عزًا وعفوا ، فاعفوا ، ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر ، فاستعفوا .

* وقال عليه السلام . أجود الأعمال : الجود فى العُسْر ، والقصد فى الغضب والعفو عند المقدرة .

* وقال عليه السلام : إنَّ بيْن مصراعَىْ باب الجنة مسيرة مائة عام ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام .

* وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول قوم من بنى عامر يستأذنه فى المرعى حول المدينة ، فقال عليه الصلاة والسلام · إنَّها ديار لا تضيق عن جارها ، وإنَّ جارنا لا يظلم فى ديارنا وقد ألجأتكم الآزمة ، فنحن نأذن لكم فى المرعى ، ونشرككم فى المأوى ، على أن سرْحَنا كسرحكم (السرح . المال السائم) وعانيا كعانيكم ، ولا تعيبوا علينا بعد اليوم ، فقال · لا نعين عدوا ما أقمنا فى جوارك ، فإذا رحلنا فإنَّما هى العرب تطلب آثارها (ثأرها) وتشفى ذحولها .

فقال عليه الصلاة والسلام . يا بنى عامر ، ما علمتم أنَّ اللؤم كلَّ اللؤم[1] أن تتحاشوا عندالفاقة وتثبوا عند العزة ، فقال . وأبيك إن ذلك للؤم ، ولن نبعيك غائلة بعد اليوم ، فقال : اللهم فاشهد وأذن لهم .

* وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيه الوحى ؟ فقال . فى مثل صلصلة الجرس ثم ينفصم .

---

(١) المرجع السابق .

* وقد روى ابن الكلبى عن أبيه عن ابن صالح عن ابن عباس قال . لما كان يوم بدر، قال علىّ : رضى الله عنه – للمقداد · اعطنى فرسك أركبه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت تقاتل راجلا خيرُ منك فارسا ، قال : فركبه ووتر قوسه ورمى فأصاب أذن الفرس فصرَمه فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى أمسك على فيه ، فلما رأى علىّ ضحكه غضب فسلَّ سيفه ثم شد على المشركين فقتل ثمانية قبل أن يرجع ، فقال علىّ (رضى الله عنه) لو أصابنى شر من هذا كنت أهلَه حين يقول أنت تقاتل راجلا خير منك فارسا . فعصيته .

* وقال صلى الله عليه وسلم : إن امرءاً عَرف الله وعبده وطلب رضاه وخالف هواه لحقيق أن يفوز بالرحمة .

* لما ورد محمد بن مسلمة على عمرو بن العاص من جهة عمر بن الخطاب رضى الله عنه صنع له عمرو طعاماً ودعاه إليه فأبى محمد ، فقال عمرو . أتحرِّم طعامى ؟ قال · لا ، ولكنى أومر به ، فقال عمرو لعن الله زمانا عملنا فيه لابن الخطاب ، لقد رأيته وأباه وإنهما لفى شملة ما توارى أرساغهما ، وأن العاصى بن وائل (يقصد أباه) لفى مقطَّعات الديباج مزَّررة بالذهب فقال له محمد : أمَّا أبوك وأبو عمر ففى النار، أما أنت فلولا ما وليت لعمر لرأيته معتقلا عنزا يسرك غزرها ويسؤك بكؤها (البكء قلة اللبن) فقال عمرو · المجالس أمانة ، فقال محمد : أمَا ما دام عمر حيا فنعم.

* دخل النبى صلى الله عليه وسلم على فاطمة –رضى الله عنها – يُعودها من علة فبكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ؟ قالت · قلة الطُّعم وشدة السُّقم وكثرة الهمِّ .

* قال عبد الله بن مسعود : شر الأمور محدثاتها[1] ، وشر الغنى غنى الإثم ، وخير الغنى غنى النفس ، والخمر جُماع الأثم والدنيا حِبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون قيل له · أتقول هذا من تلقائك ؟ قال : لا بل من تلقاء من فرض الله علىّ طاعته.

* وقال أبو ذر (رحمة الله عليه) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] يا أبا ذر إنِّى أراك ضعيفا ، وإنِّى أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسى ، لا تأمَّرنَّ على اثنين ، ولا تولَّينَّ مال اليتيم . (أى لاتتأمرنَّ على اثنين ، ولاتتولين مال اليتيم) .

---

(١) المرجع السابق

(٢) لاتناقض فى هذا الحديث مع حديث آخر يأمر بالإمرة بين اثنين أو ثلاثة ذلك أن هذا الحديث يخص أبا ذر لما فيه من حدة ، وقوله صلى الله عليه وسلم «ما أحب لنفسى» أى ولو كان – حاشاه الله – له هذه الحدة لنهى نفسه كما نهى أبا ذر .

* وقال أبو هريرة : عن النبى صلى الله عليه وسلم – ستحرصون على الإمارة ، وستكون حسرة وندامة يوم القيامة ، فنعمت المُرضعة وبئست الفاطمة .

* أبو إمامة يرفعه قال : ما من رجل يلى إمرة عشرة إلاّ يؤتى به يوم القيامة مغلولا أطلقه العدل ، أو أوثقه الجوْر . (هذا الحديث وسابقه يوضحان عظم المسئولية) .

* قال العباس للنبى صلى الله عليه وسلم أمِّرنى يا رسول الله فاصيب (أوردها صاحب العقد الفريد كاملة قال · إن العباس رضى الله عنه طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم · يا عم نفسٌ تحييها خير من ولاية لا تحصيها .

* قال عبد الله بن عمرو بن العاص . إنّ رجلا جاء إلى النجاشي[*] فقال له أقرضني ألف دينار إلى أجل ، فقال له من الكفيل بك ؟ قال : الله . فأعطاه الألف ، فلما بلغ الأجل أراد الردّ فحبسته الرِّيح ، فعمل (الرجل) تابوتا وجعل فيه الألف وغلفه وألقاه فى البحر ، وقال اللهم أدِّ حمالتك ، فخرج النجاشى إلى البحر فرأى سوادا ، فقال ائتونى به . فأتوه بالتابوت ففتحه فإذا فيه الألف ، ثم إنّ الرجل جمع ألفا بعد ذلك وطابت الريح ، وجاء إلى النجاشى فسلمَّ عليه فقال له النجاشى لا أقبلها منك حتى تخبرنى بما صنعت فيها . فأخبره بالذى صنع فقال النجاشي لقد أدّ الله عنك وقد بلغت الألف فى التابوت فأمسك عليك ألفك . (أى وصلتنا الألف بأمر الله تعالى كما رجوته) .

* رأى أبو هريرة رجلا (يسير) مع آخر فقال من هذا الذى معك[1] ؟ قال . أبى قال فلا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله ، ولا تدعه باسمه ، ولا تستب له (لا تعرِّضه للسب) .

* قال أبو هريرة : كان جريج يتعبَّد فى صومعته ، فأتت أمه فقالت . يا جريج أنّا أمك كلِّمنى ، فقال . اللهم أمِّى وصلاتى فاختار صلاته ، فرجعت ثم أتته ثانية فقالت يا جريج كلّمنى فصادفته يصلى فقالت اللهم إن هذا ابنى عقَّنى فلم يكلمنى فلا تُمتْه حتى تريه المومسات ، ولو دعت عليه أن يفتن لفتن قال وكان راعى ضأن يأوى إلى ديره

(*) النجاشى . هوملك الحبشة الذى أعلن اسلامه وأكرمه الله بالإسلام .

(١) المرجع السابق

فخرجت امرأة من القرية ، فوقع عليها الراعى ، فحملت فولدت غلاما فقيل لها · ممن هذا فقالت من صاحب هذه الصومعة فأقبل الناس إليه بفُؤء وسهم ومساحيهم فبصروا به فصادفوه يصلى فلم يكلمهم فأخذوا يهدمون ديره فنزل وتبسم ومسح رأس الصبى وقال من أبوك ؟ قال أبى راعى الضأن فلمًا سمع القوم ذلك راعهم وعجبوا، وقالوا نحن نبنى لك ما هدمنا بالذهب والفضة قال لا أعيدوها كما كانت ترابا ثم عاد . (لتنسُكه) .

* وقال أبو الدرداء : لا يحافظ على سبحة الضحى إلاَّ أوَّاب .

* وقال أيضا ليس على سارق الحمام قطع

* وقال إذا اخترتم أرضاً فلا تختاروا أرمينيه فان فيها قطعة من عذاب الله (يعنى البرد)

* أبو هريرة يـ فعه · ؤ ! لعرفاء ، ويل للأمناء ليتمنيّ أقوام يوم القيامة أنهم كانوا متعلقين بين السماء والأرض ، ذبذبون من الثريا ، وأنهم لم يلوا عملا .

* قال النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمُرَة . لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتَها عن مسألة وُكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها . (سبق هذين الحديثين أكثر من حديث عن عظم المسئولية) .

* وقال النبى صلى الله عليه وسلم كلكم راع ومسئول عن رعيته[1] ، فالأمير راع على الناس وهو مسئول أقام أمر الله فيهم أمّ ضيع والمرأة راعية على بيتها وما وليت من زوجها ومسئولة عنهم أقامت أمر الله فيهم أمّ ضيعت والخادم مسئول عن مال سيده أقام أمر الله فيه أم ضيع · هكذا رواه ابن عتبة عن نافع عن ابن عمر .

* قال عياض الأشعرى قدم أبو موسى على عمر ومعه كاتب له فرفع حسابه ، فأعجب به عمر وجاء إلى عمر بكتاب ، فقال لأبى موسى : أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ قال إنه لا يدخل المسجد . قال لِمَ ؟ أجُنُب هو ؟ قال إنه نصرانى . (لم يتم الحديث) .

* قال عبد الله بن نافع · جاء رجلان من الأنصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم يختصمان فى مواريث بينهما قد درست ليس بينهما بينة ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنكم لتختصمون إلىّ وإنمّا أنا بشر ، ولعل بعضكم ألحَنُ بحُجّته من بعض وإنّما

(١) المرجع السابق .

أقضى بينكم على نحو ما أسمع منكم ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها إسطاما (حديدة مستعرة مشتعلة) فى عنقه يوم القيامة قال: فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما : حقى لأخى فقال صلى الله عليه وسلم : أما إذْ قلتما هذا فاذهبا فاستهما ، وتوخَّيا الحق وليحلِّلْ كل واحد منكما صاحبه ، وفى رواية أخرى اذهبا فاصطلحا .

* وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كتب إلى النجاشى(*) أصْحَمه . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته فكتب النجاشى : إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من النجاشى أصحمه بن أبجر سلام عليك يا نبى الله من الله رحمته وبركاته .

* وقال النبى صلى الله عليه وسلم . الكافر خبٌّ ضبٌّ (خداع وحاقد) والمؤمن دَعِبٌ لَعِبٌ.

* وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : اعدل فإنَّك إلى الآن لم تعدل .

فقال ويلَكْ إذا لم أعدلْ أنا فمنْ يعدل ؟

* وقال صلى الله عليه وسلم . إنَّ الواجد يبيح ظهْره وعرضه (المُغضِب ينسى حفظ ما يجب حفظه) .

* وقال عمر . رَدِّدِ الخُصوم كى يصطلحوا .

* وقال عليه السلام : لا تحلفوا بأيمانكم ، ومن حلف بالله فليصدق ، ومن حُلف له فليقبلْ .

* وقال من حلف يمينا كاذبة يقتطع بها مال امرئ مسلم ، لقى الله وهو عليه غضبان

* وقال : من حلف يمينا ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو هو خير ، وليكفِّرْ عن يمينه .

وقال عليه السلام لا تسافرالمرأة ثلاثة أيام إلاَّ مع ذى محرَم .

(*) المراد من هذا الحديث هو تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم وشهادته بالأنبياء الدين سبقوه وتواضع النجاشى فى مخاطبته للرسول صلى الله عليه وسلم بتقديمه على اسم النحاشى في أول الخطاب .

* حدّثنا أبو السائب القاضى عتبة بن عبيد ، قال : حدثنا محمد بن المرزبان قال : حدثنا المغيرة قال : حدثنا محمد بن العباس المنقرى قال · كان شريك بن عبد الله على القضاء بالكوفة ، فقضى على وكيل لعبد الله بن مصعب بقضاء لم يوافق عبد الله ، فلقى (عبدالله) شريكا ببغداد فقال له قضيت على وكيلى قضاء لم يوافق الحق ، قال : من أنت ؟ قال : من لا تُنكرُ قال · قد نكرتك أشد النكير ، قال · أنا عبد الله بن مصعب قال · فلا كبير ولا طيب قال . كيف لا تقول هذا وأنت تشتم الشيخين قال · من الشيخان ؟ قال : أبو بكر وعمر . وقال والله لا أشتم (أباك) وهو دونهما ، فكيف أشتمهما ، وهما فوقى وأنا دونهما ؟

* وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من رجل يؤتى الدنيا ويوسّع له فيها وهو اله على غير ما يحبُّ إلا وهو مستدرج ، لأنَّ الله تعالى يقول (فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابرالقوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين). قال ابن الأنبارى : قوله صلى الله عليه وسلم · إلاَّ وهو مستدرج . معناه إلاَّ وهو مستدع هَلَكته ، مأخوذ من الدارج ، وهو الهالك يقال هو اعلم من دَبَّ ودَرَج ويراد بدرج : هلك ، وبدبَّ مشى .



خاتمـــة

ها هو ذا أبو حيان التوحيدى أديب القرن الرابع الهجرى ، صاحب الإمتاع والمؤانسة ، والهوام والشوامل والصداقة والصديق ومثالب الوزيرين - ها هو ذا أبو حيان التوحيدى الأديب الذى اختلفت فيه الآراء فبينما رآه بعضهم متنسكا صوفياً، رآه الآخرون زنديقا وجوديا ، ولكن الجميع اتفقوا على أنَّه كان الموسوعة العلمية والأدبية التى نقلت لنا ثقافة القرن الرابع ، هو ذلك الأديب الذى لاقى ما لاقى من البؤس والحرمان ، وفقد الصحب والخلان . والذى أختتم الحديث عنه بهذه الواقعة التى رواها فى كتابه (المحاضرات) ·

قصدت أنا والنصيبى رجلا من أبناء النعم والموصوفين بالكرم ، لا يرد سائليه ، ولا يخيِّب آمليه ، والألسن متفقة على جوده وتطوله والعيون شاخصة إلى عطاياه وفضله ، له فى السنَّة مبارٌ كثيرة على أهل العلم وأهل البيوتات ، ومن قعد به الزمان وجفاه الإخوان ، فلم نصادفه فى منزله وقصدناه ثانيا فمُنعنا من الدخول إليه ، وقصدناه ثالثا فذُكر أنه ركب ، وقصدناه رابعا فقيل هو فى الحمَّامَ ، وقصدناه خامسا فقيل إنه نائم ، وقصدناه سادسا فقيل عنده صاحب البريد وهو مشغول معه بمهم ، وقصدناه سابعا فذُكر أنه يأكل ولا يجوز الدخول إليه بوجه ولا سبب ، .... (حتى يقول) وقصدناه الخامس عشر فسُهِّل لنا الإذن ودخلنا فى غمار الناس ، والناس على طبقاتهم جلوس ، وجماعة قيام يرتِّبون الناس ويخدمونهم ، وقد اتُّفق له عزاء ، وشغل بغيرنا ، وبقينا فى صورة احتقان البول والجوع والعطش ، وما أقمنا فى جملة من يُقام . فقال النصيبى : هذااليوم الذى ظفرنا به وتمكنا من دخول داره، صار عظيم المصيبة علينا ، ليس لنا إلا مهاجرة بابه والإعراض عنه وقمع النفس الدنيئة بالطمع فى غيره .. (ولكن أبا حيَّان أقنعه بمعاودة قصده مرة أخرى ، فقصداه أكثر من عشرين مرة) حتى قال النصيبى : لو علمت أن داره الفردوس والحصول على ما عنده الخلود فيها ، وكلامه رضا الله تعالى وفوز الأبد ما قصدته بعد ذلك وأنشأ يقول .

طَلَبُ الكريم نَدَى يد المنكُود ... كالغيْث يُستسقى من الجُلمود
فافزعْ إلى عزِّ الفراغِ ولُذْ بهِ ... إنَّ السُّؤالَ يريد وجْهَ حديدِ

---

(١) ياقوت الحموى - معجم الأدباء جـ/١٥ ص ٤٩ ، ٥٠ .

فأجبته أنا وعيناى بالدموع تترقرقان لما بان لى من صرفتى ونبو الدهر بى ، وضياع سعيى ، وخيبة أملى فى كل من أرجِّيه لملم أومُهِمّ أو هادية أو نائبة :

دنيـا دنتْ من عـاجـزٍ وتبـاعـدَتْ عــن كــل ذى لــبٍّ لـــهُ خـــطـــرُ
سلِمَتْ على أربَابهـا حـتَّى إذا وصلَتْ إلىَّ أصــابـهـا الـحَـصـرُ

وبعد فهذا أبو حيَّان التوحيدى الذى لم يأنس بحياة هادئة أو عيشة راضية فراح يطلب الرزق فى كل مكان إلى أن عاد كاسف البال ، مهدود القوى ، ولم يلبث أن عمد إلى كتبه فأحرقها وهى أعز شيء لديه ، ناقما على أولئك الناس الذين لم يقدروا أدبه ولا موهبته وهكذا كل موهوب لاقى فى عصره مثلما لاقى هذا الرجل هو أبو حيان زمانه ، والمعاناة والضجر دائماً يلازمانه .

وهنا نقول : الحمد لله فى الأولى والآخرة وفى البداية والنهاية

* * *

وبهذا تمّ الانتهاء من كتاب أبى حيان التوحيدى :

فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

لمؤلفه : أحمد محمد عبدالهادى

المراجع

أبو حيان التوحيدى : **الإمتاع والمؤانسة** ، تحقيق الأستاذين : أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت – منشورات مكتبة دار الحياة

أبو حيان التوحيدى : **الهوامل والشوامل** ، تحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، القاهرة ، ١٩٥١.

أبو حيان التوحيدى : **الإشارات الإلهية** ، القاهرة ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٠ ، تحقيق الدكتور / عبد الرحمن بدوى

أبو منصور الثعالبى : **يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر** ، بيروت ، تحقيق وشرع ايليا الحاوى .

أبو جعفر أحمد (المحب الطبرى) **الرياض النضرة فى مناقب العشرة** – القاهرة – مكتبة الجندى – تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا .

ابن تغري بردى – جمال الدين أبو المحاسن – **النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة** ، القاهرة – وزارة الثقافة والارشاد القومى ، سلسلة تراثنا .

أحمد محمد الحوفى (دكتور) **أبو حيان التوحيدى** (جزءان) ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب .

حامد حفنى داود (دكتور) **الآداب الإقليمية فى العصر العباسى الثانى (٣٢٤ – ٦٥٦ هـ)** القاهرة – مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٧٧ .

خيرى شلبى ، أبو حيان التوحيدى ، **ربيع الثقافة العربية** ، القاهرة ، مؤسسة الروم للطباعة والنشر ، ١٩٩٠ .

ياقوت الحموى : **معجم الأدباء – الجزء الرابع عشر والجزء الخامس عشر** ، القاهرة ، مطبوعات دار المأمون ، تحقيق الدكتور / أحمد فؤاد رفاعى .

* * *



فهرس الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضــــــــوع	الصفحة

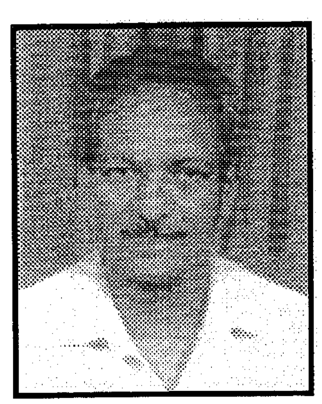
الموضوع	الصفحة
الليلة التاسعة	١٧٣
الليلة العاشرة	١٧٣
ليلة من ليالى الإمتاع والمؤانسة / الليلة السابعة عشرة	١٧٤
• مثالب الوزيرين	١٩١
ابن سعدان يسأل أبا حيان عن ابن عباد	١٩١
أبو حيان يسوق الشواهد من النقاد فى تقييم ابن عباد	١٩٣
عود إلى كتاب مثالب الوزيرين	١٩٤
أبو الفتح بن العميد	١٩٥
بعض مثالب ابن العميد	١٩٨
أبو حيان يثنى على أبى الفتح بن العميد	١٩٩
بعض مثالب الصاحب بن عباد	٢٠١
ابن عباد يسأل أبا حيان عن أبى حيان	٢٠٣
وقفة لابد منها	٢٠٤
مواقف أخرى مع ابن عباد	٢٠٥
خاتمة كتاب مثالب الوزيرين	٢٠٧
• خصائص أبى حيان الفكرية والفنية وموازنته بكتاب عصره	٢٠٩
غلبة أصحاب الصناعة اللفظية والأساليب الزخرفية فى القرن الرابع	٢١٠
أبو حيان التوحيدى فى ميزان النقد	٢١٠
سمات كتابات التوحيدى	٢١٢
موازنة بينه وبين كتاب عصره	٢١٦
ملحة الملح (أو ملحة الكتاب)	٢١٨
خاتمة	٢٢٤
المراجع	٢٢٧
فهرس الكتاب	٢٢٩







نبذة عن الكاتب والكتاب



الكاتب : هو الشاعر الأديب أحمد محمد عبدالهادى صاحب دواوين : أحاسيسى (١٩٦٨) وأغانى الغرباء (ثلاث طبعات آخرها فى سنة ١٩٨٧) - ومن وحى الإسلام (١٩٨٤) - إسلاميات (١٩٨٨) واللحن الضائع (١٩٩٣) وآلام وأنغام (١٩٩٦).

وله من الكتب النثرية والدراسات الأدبية :

* المنفلوطى حياته ومؤلفاته (صدر فى عام ١٩٨١)
* الأم فى القرآن الكريم (صدر فى عام ١٩٨٣) .
* تأملات فى شعر العقاد (صدر فى عام ١٩٨٤) .
* كما صدر له مسرحية شعرية بعنوان : الخنساء الشاعرة أم الشهداء فى صيف عام ١٩٧٥ . وهو عضو اتحاد الأدباء بالقاهرة وعضو نادى القصيد وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية والمشرف الثقافى بهيئة خريجى الجامعات بالقاهرة .

أما الكتاب : فهو عن أبى حيان التوحيدى : فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، كما قال عنه ذلك ياقوت الحموى فى كتابه (معجم الأدباء) ، وقد عاش التوحيدى من أول القرن الرابع الهجرى حتى نهايته . وربما يكون قد جاوزه (من ٣١٢ إلى ٤١٤) وهو القرن الذى ازدهرت فيه الثقافة العربية ازدهاراً بالغاً حيث انصهرت فيها ثقافات أمم وشعوب شتى ، منها ما أصبح تحت لواء الإسلام ومنها ما تفتحت عليه الحضارة الإسلامية ، فأثّرت فى تلك الثقافات وتأثرت بها .

ويعتبر التوحيدى الذى عاش فى ظل الدولة البويهية التى استولت على بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى سنة ٣٣٤هـ) - يعتبر مسجلا للقرن الرابع بكل ما فيه من أدب وأدباء ، وفلاسفة وبلغاء ، وحوارات ومساجلات ومناظرات بلاغية وفلسفية . وقد ساعده فى ذلك احترافه للوراقة (نسخ الكتب فى شتى العلوم والآداب والفنون) وتلقيه علوماً وآدابا شتى ، بتتلمذه على جهابذة الأدب والفقه وأساطين الفلسفة فى ذلك العصر من أمثال : أبو سعيد السيرافى وأبو سليمان المنطقى ومسكويه وعلى بن عيسى الرمانى وأبو بكر القومسى وغيرهم . ورغم ذلك عاش فقيراً محروماً يتشكى جور زمانه ويبكى فى تصانيفه على حرمانه . ومن تصانيفه : الإمتاع والمؤانسة - والهوامل والشوامل والمقابسات والصداقة والصديق ومثالب الوزيرين .

الناشر